وَدَاعًا أيُّهَا المَلَلْ

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
الطبعة الثانية
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م
الطبعة الثالثة
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م
الطبعة الرابعة
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م
الطبعة الخامسة
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

أنيس منصور

وداعًا أيها الملل

دار الشروق

كلمة أولى

ما معنى أن يولد العفن فى تفاحة ؟ .

معناه أن يولد الموت فى أحلى كفن ، وفى أجمل نعش ؟ .

معناه أننا نحمل الموت معنا فى كل خلايانا .. فكل خلية هى نقط وثوب لعزرائيل .. فما أكثر ملايين النقط التى يختفى فيها الموت فى أجسامنا ، وفى حياتنا كلها ! .

ولكن فى حياتنا شىء آخر ، ليس هو الموت ، ولكنه نوع من عدم الشعور بالموت .. ولا بالحياة أيضًا ! .

شىء ناعم الملمس .. يسرى فى أجسامنا كأنه خدر .. كأنه ملايين النمل .

إنه يحول أيدينا وأرجلنا إلى أكياس من النايلون محشوة بملايين من ذرات الرمل .. أو النمل .

وهذا الشعور «بالتنميل» أو «بالترمل» .. أى الذى يجعلنا كالنمل أو كالرمل ، هو الذى نسميه بالملل ..

والذى يشعر بالملل ليس هو الذى لا يرغب فى الحياة .. وليس هو الذى لا يرغب فى الموت .

لأن الذى لا يرغب فى الحياة ، يرغب فى الموت .. والذى لا يرغب فى

الموت يرغب فى الحياة .. فكلاهما يرغب فى شىء . ولكن الذى يمل ، أو الذى يتململ هو إنسان لا يرغب حتى فى الرغبة .

فالذى عنده ملل يشعر أنه ليس على صلة بالواقع .. أنه منعزل .. إنه معزول .. أنه منقطع .. أنه مقطوع .. وأنه لا توجد لديه وسيلة للاتصال بالعالم الخارجى .

كأن هذا الإنسان المملول ـ إذا صح التعبير ـ بلا يدين ولا رجلين .. لا توجد عنده أطراف للاتصال بالدنيا حوله .

أو بعبارة أخرى : إنه يشعر بأن الواقع نفسه بعيد عنه .. كأنه ينظر إليه من العدسة الصغيرة فى النظارة المعظمة.. فكل شىء على مسافة منه.. والمسافة بعيدة ووسيلة المواصلات صعبة .. أو لا توجد وسيلة للمواصلات .

فالإنسان المملول إنسان فى حالة عجز عن الاتصال بالغير أو أنه إنسان عنده إحساس بأن الآخرين عاجزون عن الاتصال به ، ومعنى ذلك أن هناك نقصًا فيه هو ، أو نقصًا فى الواقع . وأن هذا النقص جعله « قعيدًا » ، جعله جامدًا فى مكانه ، ربطه بمقعده وسمر مقعده فى الأرض ، كلما اقتربنا من الواقع ابتعد عنا : وكلما اقترب الواقع منا ابتعدنا عنه ، أو شعرنا بأننا بعيدون عنه .

إن تنتالوس البطل اليونانى هو أحسن نموذج لهذه الحالة من العجز فقد حكمت عليه آلهة اليونان بأن يتعذب إلى الأبد .. إذ وضعوه فى بحيرة من الماء العذب وهو تحت أشعة الشمس .. وكلما ارتفع الماء إلى شفتيه ، وحاول الانحناء انحسر الماء إلى قدميه ، فإذا اعتدل فى وقفته ارتفع الماء مرة أخرى ، فإذا حاول أن يبلل شفتيه انحسر الماء .. وهكذا إلى الأبد ..

وحكمت عليه الآلهة أيضًا أن يتدلى من شجرة تفاح ، وكلما مد يده إلى

تفاحة ابتعدت التفاحة .. فإذا عادت ذراعه اقتربت التفاحة ، وإذا حاول أن يختطف التفاحة تباعدت عنه .. وهكذا إلى الأبد .

وحكمت عليه الآلهة بأن يجلس عند مدخل أحد الكهوف .. وفى لحظة ينهار حجر فوقه ويمس شعره دون أن يصيبه فإذا وقف ارتفع الحجر فإذا جلس هبط الحجر . .

وهكذا ، يبقى تنتالوس فى حالة خوف أبدى .

ولكن تنتالوس لم يمل ، إنه كان يعلم أن هذا الحكم أبدى ، ومع ذلك لم يستسلم لهذا الحكم ، فقد ظل يعلو ويهبط ، ويمد شفتيه ويمد يديه ويرفع عنقه .. كان هناك أدنى أمل أن يذوق الماء أو يتذوق التفاح أو يزول الخوف .

إن عيب تنتالوس أنه لا يعرف الملل .. لقد كان عاجزًا تمامًا .. فالتكرار لم يحطم إرادته ولم يحول أعصابه إلى عضلات ، لم يحول عضلاته إلى ملايين النمل ، إلى ذرات رمل ، لم يكن هو كيسًا من النايلون ملقى على الأرض .

إن تنتالوس بطل لأن جسمه لم يعرف العجز ، ولأن نفسه لم تعرف الملل .

إن الشاعر الإنجليزى مارلو قد كتب لنا فى مسرحية «الدكتور فاوستوس» هذا الحوار بين الطبيب فاوست وبين الشيطان مفيستوفليس :

فاوستوس : قل لى من هو إبليس ؟

مفيستوفليس : إنه قائد الأرواح .

ـ لم يكن ملاكًا قبل ذلك ؟

ـ بل كان أحب الملائكة إلى الله .

ـ إذن كيف أصبح بعد ذلك أميرًا للأشرار ؟..

ـ بالغرور والوقاحة .

ـ وأنتم تعيشون معه ؟

ـ نحن الأرواح الشقية التى سقطت معه وتآمرنا على الله معه .

فلعننا إلى الأبد ؟

ـ وأين تعيشون ؟

ـ فى جهنم .

ـ ولكنك لست فى جهنم ؟!

ـ هل الذى أحس برحمة الله وعرف السعادة الأبدية فى السماء ، ثم هو الآن محروم منها .. ألا ترى أن هذا أسوأ من جهنم ألف مرة ! .

إن هذا الشيطان على حق ، فهو يعانى عذابًا أقسى من عذاب جهنم . ولكن هذا الشيطان لم يفقد الأمل . إنه لا يزال يدرك الفارق بين النعيم والجحيم . إنه لا يزال يتحسر على هذا الذى راح ، إنه لا يزال يشعر بأنه أخطأ وأنه نادم على ما فعل .

ولذلك رأينا الكاتب الإيطالى بابينى فى كتابه عن «الشيطان» يعتقد أن إبليس والشيطان جميعًا سيدخلون الجنة يوم القيامة ، لأنهم ندموا بما فيه الكفاية ، ولأنهم تعذبوا بما فيه الكفاية .. ولأن لديهم أملاً فى رحمة الله ، فلا يمكن أن تقف رحمة الله دون الشياطين . فرحمة الله لا حدود لها ، وهى لذلك تتسع للإنسان وللشيطان .

فهو يرى أنه حتى الشياطين لم تفقد الأمل ، وهى لم تفقد الأمل ، لأنها لم تعرف الملل ، لأنها لم تمل من اليأس . لم تمل الجحيم لأن الجحيم المستمر لم

يفقدها الشعور به ، والشعور بغيره .. أى الشعور بالنار وبالجنة ! .

فالإنسان «المملول» هو الإنسان الذى مل الأمل ومل اليأس .. وهو قد مل كل شىء ، لأن كل شىء لا يصل إليه ، لأن كل شىء أقصر من أن يناله .. وهو أقصر من أن ينال أى شىء .. وكل شىء أقصر من أن يتطاول إليه ! .

تمامًا كما نضع على أجسامنا لحافًا قصيرًا .. إذا سحبناه على أقدامنا تعرت رءوسنا ، وإذا غطينا به رءوسنا تعرت أقدامنا .

فالواقع لا يعطينا .. لا يكفينا .. ولذلك فنحن نمله .. نحس بمرارته على شفاهنا ، أو نحس به كالصمغ على أجسامنا .. إنه يقرفنا لذلك لا نمد أيدينا إليه .. أو نحن الذى نقرفه ، فهو لا يمتد إلينا !

والفيلسوف الوجودى ياسبرز يقول : إن العلاقة التى تربطنى بمن حولى هى أننى على صلة ما بالذين حولى . ولا بد أن تكون هناك صلة .. والإنسان لا يستطيع أن يعيش بمفرده .

ولذلك فالذى يعيش بمفرده . أى بغير أن تكون له صلة بالآخرين ، هو : الله سبحانه .. والحيوانات !

فالله ليس فى حاجة إلى أحد . ولذلك ليس على صلة بأحد لأنه قائم بنفسه .

والحيوان يستطيع أن يعيش بمفرده ، لأنه عاجز عن الإحساس بغيره أو حتى الإحساس بنفسه .

ولكن الإنسان يستطيع أن يعيش أيضًا بمفرده عندما يكون فى حالة ملل .

فهو يصبح معزولاً عن غيره ، كأنه ليس فى حاجة إلى أحد .. كأنه إله .. أو كأنه لا يشعر لا بغيره ولا بنفسه كأنه حيوان !

والملل يشبه إلى حد كبير انقطاع التيار الكهربى .. فانقطاع النور الكهربى يجعلنا نرى الدنيا التى حولنا فى حالتين متناقضتين .. فعندما نضىء الغرفة مثلاً ، نرى كل شىء بوضوح .. المكتب والمصباح والمقاعد .. كل شىء فى مكانه وبلونه وبحجمه .. وعندما ينطفئ المصباح يختفى كل شىء فى الظلام .. وتغرق هذه الموجودات فى حالة من العدم المؤقت .. فالملل يشبه حالتنا عندما ينطفئ النور .. إن الملل ليس هو الظلام الذى يبتلع كل ما فى الغرفة ، ولكنه الشعور باختفاء كل ما فى الغرفة .. الملل ليس هو الاختفاء نفسه ، ولكنه شعورنا باختفاء شىء .

والملل يشبه أيضًا انقطاع الماء الساخن ونحن نستحم .. فقبل انقطاع الماء نشعر بالدفء والانتعاش ونحس كأن الماء يقوم بتدليك عضلاتنا وأعصابنا ، ويغسل متاعبنا ، ويلقى بها مع الصابون فى البالوعة فلا يكون لهذا كله إلا صوت غريب .. صوت الماء وهو يتمشى فى البالوعة .

وعندما ينقطع الماء نشعر بضياع الدفء ، ونشعر بالبرودة ..

فانقطاع الماء ليس هو الملل ولكن شعورنا بأن الدفء قد انقطع .. بأن بالوعة أخرى قد انفتحت وابتلعت شيئًا حارا مريحًا كان يغمرنا ، هذا هو الملل .

وهذا الملل أيضا الذى يصيبنا يجعلنا أقل تذوقا للدنيا .. يجعل طعمها على اللسان غريبا .. ويجعل ألوانها فى العين غريبة ، ورنينها فى الأذن غريبًا ، وملمسها فى اليد غريبا أيضا .

فالملل هو الذى يجعل كل ماحولنا غريبا .. أو يجعلنا نحن غرباء فى هذا العالم .. وغرباء عنه ..

فالشعور بالغرابة ، والشعور بالغربة ، والشعور بالاغتراب . هو بداية الملل .

فالملل يجعل العين تأنف من الرؤية ، ويجعل الأذن تعاف الاستماع ، ويجعل أيدينا فى حالة غثيان من لمس كل ماحولنا .

ويحس الإنسان كأن مرضا أصاب الدنيا .. إنها بدأت تذوى وتجف وتتساقط .. إن الملل هو إعلان خطير عن بداية الخريف والشتاء فى عز الربيع .

والملل مرض شديد العدوى ..

هذا المرض الذى أصابنى وانتقلت عدواه إلى كل ماحولى هو الملل .

فأنا فى حالة الملل ، لا أعرف بالضبط إن كنت أنا المرض أو أنا المريض . ولا أعرف إن كنت أنا المريض الذى انتقلت عدواه إلى غيره أو أنا الضحية لمرض الآخرين ! .

والملل كالمرض ، من الممكن أن يصيبنى دون أن أشعر به ... وليس معنى عدم شعورى بالملل ، أننى لست فى حالة ملل . فمن الممكن أن يشكو الإنسان من أوجاع فى ركبته دون أن يعرف أن سبب هذه الشكوى تسويس فى أسنانه . أو يشكو من الصداع دون أن يعرف أن سبب الصداع هو ضغط الدم ، أو التهاب فى المصران الغليظ .

إن الكثير من متاعب الأطفال والمراهقين سببها أنهم يشكون من الملل أو يشكون من السأم أو الزهق .. فالذى يشكو منه الطفل الصغير عندما يحطم أدوات البيت ، ولا يقنع بالتوجيه من أمه أو أبيه ليس مللاً ،ولكنه نوع من الملل إنه الزهق .. فهو ليس أكثر من رغبة فى تغيير شىء .. ليس أكثر من رغبة فى أن يجدد صلاته البسيطة بالعالم الذى حوله .

أما الذى يصيب الكبار ، الذى تعددت صلاتهم بالعالم ، وتعبوا من حياتهم ، وأتعبوا حياتهم أيضًا ، فليس زهقًا ، ولكنه شيء أعمق وأعتقد : أنه الملل .

هذا الإحساس الذى يجعلنا نجد صعوبة فى أن نتصل بغيرنا .. فى أن تصل إلى غيرنا أنظارنا ، لأن وسيلة المواصلات أو الاتصال بالغير هى اللغة ، هذا الإحساس ، هو الملل فى أعلى درجاته .

فاللغة مربوطة بسلاسل اسمها المنطق ، أو قواعد العقل .. حتى هذه السلاسل لا تربط اللغة ، إنها تخنقها . إذن فالعقل هو خانق اللغة .. وعلى ذلك فأية لغة عقلية هى لغة مجنونة .. وأى معنى تنقله هو جثة معنى .

ولذلك فوسائل الاتصال بالغير ميتة .. فالإنسان حى ، ولكن مواصلاته ميتة .. إنه جثث ألفاظ ، وقبور معانٍ ، وعفن فكرٍ .

ومن هنا ظهرت كل الاتجاهات الأدبية والفنية التى تقول إن كل شيء ممل .. كل شيء سخيف لا معنى له ، وإذا كان له معنى فالمعنى تافه .. فلا معنى لشيء ، ولا طعم ولا فائدة من الكلام عن شيء .

ولم يقل أدباء اللامعقول أو أدباء العبث غير أن الحياة مملة ، وأنها عبث أى بلا عقل . أى أنها موجودة بلا مبرر ، فلا مبرر لوجودى أو لوجودك .. أو للوجود كله ! .

وعندما صدرت . قصة «الملل» لأديب إيطاليا البرتو مورافيا استقبلها الناس بشيء من الفتور . وأحس المؤلف أن هذا الاستقبال هو أعظم تحية له ولقصته الطويلة .

فكأن الناس قابلوا الملل بالملل .

كأنهم وضعوا على وجوههم الأقنعة المملة ، التى تناسب رواية تتحدث بمتعة عن حياة لا متعة فيها .

وبعد هذه الرواية ظهرت فى إيطاليا أفلام تتحدث عن الملل .. عن مدينة روما ـ وكل عاصمة أخرى ـ التى تتثاءب وتتلوى فى كسل .. إنها تتثاءب فيفتح اليأس بيوتهم . ويخرجون كأنهم مغص تتلوى به شوارع روما .. إنها تلفظ ساكنيها .. فى قرف يومى مستمر ..

وكل العواصم تتثاءب . وكل سكان العواصم فى قرف .. ومعظم المدن أصبحت تقلد العواصم . ولذلك فالعالم يعيش فى عصر الملل .

وقد حاول مورافيا فى قصته «الملل» أن يقدم لنا فلسفة الملل .. وكيف أن هذه الفكرة قد ملأت حياته . وكيف أنه حاول التخلص منها بالتفكير فيها .. أى بالنظر إليها من بعيد .. أى بالتسامى عليها .

ومورافيا يؤكد لنا أن هذه مجرد فكرة خطرت له ، وأن وقته لم يتسع لدراستها .. أو أن وقته يتسع ولكنه مل التفكير فى الملل .

فهو يقول لنا إن أول آية فى الكتاب المقدس تنص على : أنه فى البدء خلق الله السموات والأرض ..

وأنه شعر بالملل .

وبعد ذلك خلق آدم وحواء .

وآدم وحواء شعرا بالملل فى الجنة فارتكبا أول خطيئة ..

ثم ملا الحياة على الأرض ، فارتكب أحد أبنائهما أول جريمة . فقتل قابيل أخاه هابيل .

ونوح عندما نزل إلى الأرض مل الحياة عليها فاخترع النبيذ ..

وجاءت الامبراطوريات القديمة الواحدة بعد الأخرى .. امبراطورية مصر ، وبابل ، والإغريق ، والرومان .

ومن الوثنية خرجت المسيحية ..

ومن الكاثوليكية خرجت البروتستانتية .

ومن الملل من أوربا ظهرت أمريكا .

ومن الملل من الكرة الأرضية ظهرت الأقمار الصناعية ..

ومن الملل من الإقطاع اشتعلت الثورة الفرنسية ..

والملل من الرأسمالية أدى إلى قيام الثورة الروسية .

ومن الملل من المثالية ظهرت الشيوعية ..

ومن الملل من الشيوعية ظهرت الوجودية ..

ومن الملل من المثالية والمادية والوجودية ظهرت اتجاهات اللامعقول فى المسرح وفى الشعر وفى الرسم .. فى أوروبا وفى أمريكا وأخيرًا فى العالم العربى .

ثم ظهرت الفلسفة «البنائية» عند «كلود ليفى ـ اشتراوس» وغيره ..

ولابد أن تنتهى موجة اللامعقول بشىء جديد معقول جدًّا .. أو أكثر تطرفًا فى العقل والمنطق . أى لابد أن يظهر شىء معقول جدًّا بشكل غير معقول . أى لا بد أن يعقل ـ أى يربط ـ العقل نفسه .

وليست جرائم الأفراد إلا بسبب الملل الذى أصاب المجتمع ..

وليست الحروب إلا بسبب الملل الذى أصاب الشعوب ..

فكما أن المجتمع يريد أن يتسلى .. يريد أن يفيق من ملله فهو يستدرج أفراده إلى إطلاق النار ، وإسالة الدم . فالمجتمع يلطم نفسه بيده لكى يصحو .

لقد كان الشاعر الألمانى شيلر عندما يغلبه النوم من التعب ، يضع مصباحًا قريبًا من وجهه ، فكلما غلبه النوم قرب رأسه من النار ليصحو .. فهو يوقظ نفسه بالنار .

وكذلك الشعوب توقظ نفسها بالنار .. توقظ نفسها بأن تحرق أفرادها ، مئات الألوف من أفرادها ، حتى لا يروح الباقون ضحية الملل ، ضحية شعور يأكل كل شعور آخر .. ضحية سوس يتسلل إلينا ويأكلنا من داخلنا .. ضحية شىء غريب يدخلنا فيحولنا إلى قبور له ..

فكل ميكروب يتسلل إلى جسمى ، إلى دمى ، يصيبنى بمرض .. وهو فى الوقت نفسه يعمل على تحويلى من كائن حى إلى مقبرة لكائن حى .. إلى مقبرة لى .. إلى إنسان لا يحمل ملابسه وإنما يحمل كفنه .. إلى إنسان يمشى فى جنازة نفسه .. إلى إنسان هو الميت وهو النعش وهو المشيعون وهو المقبرة أيضًا !.

هذا السوس الغريب ، الذى يتسلل إلى داخلى هو الملل .. فالشعوب بدلاً من أن تقتل الملل تقتل الألوف من أبنائها .. تقطع رجلها بيدها ، تقطع رقابها بعقلها .. تحرق الملل بالنار .. وتغرقه فى الدم .

وقد كان الرومان يطلقون الوحوش على المساجين .. ويتفرجون عليهم بنفس الحماس الذى يتفرج به الأسبان على مصارعة الثيران .. ويتفرج به أبناء أندونيسيا على مصارعة الديوك .. ويتفرج به اليابانيون على المصارعة اليابانية .. لقد كان الرومان يعانون من الملل .

فلا بد أن يقتلوا الملل .. ولا بد أن تكون هناك دماء حية .. دماء حيوانات أو دماء بشر .

والملك شهريار فى «ألف ليلة وليلة» كانت تروى له شهرزاد قصة كل يوم .. وكانت قصصها مسلية .

فقط ألف قصة وقصة .. ولكنها لا تستطيع أن تروى كل يوم قصة .. وحتى لو استطاعت، فكيف يستطيع إنسان واحد أن يسمع من امرأة واحدة ألوف القصص .. إن القصة قد تكون مثيرة .. ولكن كيف تكون امرأة واحدة مثيرة دائمًا .

وإذا كانت المرأة مثيرة ، فكيف يكون الرجل هو نفسه مستمتعًا ممتعًا طول الوقت ؟. كيف لا يملها ؟ كيف لا تمله !.

ولذلك أنا لا أعتقد أن ألف ليلة وليلة بدأت عندما قتل الملك شهريار زوجته لأنه وجدها فى حضن أحد عبيده .

أنا أعتقد أن الملك شهريار كان يجب أن يقتل شهرزاد .. بعد أن أكملت القصة الأولى بعد الألف .

فقتل شهرزاد .. بعد أن أكملت القصة الأولى بعد الألف هو البداية الحقيقية لقصة ألف ليلة وليلة .. فليس من المعقول أن يقبل رجل واحد قصة واحدة مسلسلة من امرأة واحدة .

وإذا كان الملك شهريار لم يقتل شهرزاد فى النهاية .. أو لم تقتله شهرزاد فى النهاية .. فسبب ذلك أنهما لم يعرفا الملل .

بل إن مؤلفى ألف ليلة وليلة لم يعرفوا الملل .. ولو عرف المؤلفون الملل ، لقتلوا شهريار أو شهرزاد .

أما نحن الذين نعانى الملل ، فلا بد من أن نبدأ قصة شهرزاد بأن يقتلها الملك فى النهاية .

وأنا أعتقد أن شهر زاد عندما كانت تتثاءب فى نهاية كل ليلة ، لم يكن هذا التثاؤب نفسيا .. أو فلسفيا .. إنه تثاؤب جسدى .. إنها متعبة فقط .. هى متعبة أو المؤلف متعب .

ولا بد من إنهاء هذه الحلقة واستئنافها فى اليوم التالى ..

فالتثاؤب فى ألف ليلة مضبوط مع صياح الديك ..

حتى الديك لم يعرف الملل !..

ولكن ألا توجد وسيلة للخلاص من الملل ؟

هل الملل قد أصبح كلون البشرة ، لا يمكن أن يزول إلا بزوال صاحب البشرة !.

هل الملل أصبح كالبقع الموجودة فى جلد النمر .. لا أمل فى غسلها ؟

أيوجد هناك أمل ؟.

هذا الملل يدل على أننا لم نمل بما فيه الكفاية .. أو على أن هناك نوعًا من المسام ، من الفتحات الصغيرة فى الكيس النايلون الذى اسمه الملل ..

حتى البرتو مورافيا عندما ضاق بالملل ، راح يفكر .. تمامًا كما فعل نوح قبل أن تغرق الدنيا ..

لقد صنع سفينة من الخشب ، والسفينة عبارة عن ألواح خشبية ، هذه الألواح موضوعة بعضها إلى جوار بعض . أى أن هناك فكرة فى رأس نوح ، وهذه الفكرة تجسدت على شكل سفينة .

وهذه السفينة ، أو هذه الفكرة الخشبية ، هى التى أنقذت نوح من الطوفان .

والطوفان الحديث اسمه الملل .. ونوح الجديد اسمه الحب .. فالحب هو الذى يصنع السفينة .. هو الذى يضم غصنًا جافا إلى جوار غصن جاف ويبنى فوقها بيتًا .. هذا البيت العائم هو السفينة .

وقد كانت سفينة نوح تضم كل أنواع الحيوانات والبذور .. لقد كانت السفينة دنيا صغيرة .

فى مواجهة الطوفان والضياع ، يجب أن نصنع دنيا صغيرة .. هذه الدنيا يجب أن نحيطها بأنفسنا .. أو نجعل هذه الدنيا هى أنفسنا .. فنحن الدنيا .. نحن دنيا أنفسنا .. نحن غاية لأنفسنا .. نحن الوسيلة الوحيدة لإسعاد أنفسنا وإنعاش أنفسنا أيضًا .

فكما نبنى السفينة ، تكون رحلتنا عبر الطوفان .

إن مورافيا وجد أن الحل الوحيد للهرب من الملل ، أو لأن نمل مللنا : أن نحب .. أن نجدد صلاتنا بالعالم الخارجى .. أن نحس أن هناك صلة .. وأن كل شىء فى متناولنا .. وأن كل ما فى الدنيا هو عبارة عن يد ممدودة لتصافحنا .. إن كل ما فى الدنيا شفاه فى انتظار تقبيلنا لها .. فالفرار من الملل هو أن نفكر فى الملل .

والتفكير فى الملل هو محاولة للتسلل فى داخل جدرانه الناعمة .

وإذا تسللنا فى داخل جدرانه الناعمة .. وإذا تسللنا إلى أعماق الملل ووسعنا هذه الفتحة .. حتى أصبحت هذه الفتحة هى البالوعة التى يتسرب منها الرمل والنمل . من داخل الكيس النايلون الذى هو أجسامنا ونفوسنا .

إن أروع ما قاله إنسان فى علاج الملل ، هو ما أنشده الشاعر الألمانى ريلكه حين قال :

قل لى يا شاعر ما الذى تفعله فى هذه الدنيا ؟

إننى أحبها !

وهذه الأشياء الكريهة الشريرة . كيف تحتملها . وكيف تقبلها ؟

إننى أحبها !

وهذه الأشياء التى لا اسم لها ولا معنى لها . كيف تختار أسماءها ومدلولاتها ؟

إننى أحبها !

وهذه النجوم البعيدة الهائلة وهذه القوى الصامتة المخيفة فى هذا الكون كيف تعرف طريقها إليك ؟

إننى أحبها !

لأنه يحبها .. لأنه يجدد الصلة بها .. لأنه يجعل الصلة تتحول إلى وشائج حارة خفاقة .. لأنه جعل للدنيا قلبين يخفقان فى وقت واحد .. لأنهما يؤديان لحنًا واحدًا .. ورغم أنه متكرر . فإنه تكرار لا يولد الملل .

إنه كلمعان النجوم .. متكرر .. كدقات القلب متكررة .. ولكن عن طريق هذه الدقات المتكررة تنبع أكثر العواطف اختلافًا .. وأكثر العواطف التهابًا .. وأكثر العواطف قدرة على إنتاج أجمل وأعمق وأبقى ما صنع الإنسان ! .

فأنا أحب .. وأنت تحب .. وشهريار الملك يحب . إذن : لا أنا ولا أنت ولا هو سنعرف الملل ! .

ولكن هل الحب وحده يكفى ؟

ربما ...

أنيس منصور

أولاد الفجــر !

والسبب ابتسامة ما

الطريق الضيق المظلم الذى سأمشى فيه الآن ، يمر بأعماق أعماقك .. نعم أنت وأنا أيضًا . إننى أهتدى بضوء خافت رأيته على وجه سيدة تبتسم عندما رأت حبل المشنقة يلتف حول عنق رجل . الصورة نشرتها الصحف فى صفحتها الأولى ، إنها شىء غريب عجيب . أناس قالوا : متوحشة .

وآخرون قالوا : بينهما شىء .

والعقلاء قالوا : إنها ليست ابتسامة شخصية .. ولكنها ابتسامة « تاريخية » .. ابتسامة الشماتة .. حواء تشمت فى آدم .. ابتسامة المظلوم لنهاية الظالم !.

وطلبت أنا تصريحًا لمشاهدة تنفيذ حكم الإعدام . وجاء التصريح . ووضعته فى جيبى . وبدأت المتاعب .. متاعبى ..

وسألت نفسى : ما وجه الغرابة فى أن أذهب لرؤية مشنوق ؟ ألا يحدث أن نحرص على مشاهدة آلام الناس وعذابهم ودموعهم ودمائهم ؟ ألا ندفع فى ذلك وقتنا ومالنا ؟. والجواب : بلى ! سؤال آخر : ولماذا ؟ وجواب ثان : لأننا نستريح لعذاب الآخرين .. لأننا نتعذب لعذابهم . وهذا التعذب لعذاب الآخرين يريحنا .

إذا لم يكن هذا واضحاً . فهذه هى الأدلة . فالصحف والمجلات مليئة بجرائم القتل والسرقة والدماء . وأكثر الصحف انتشاراً فى العالم هى صحف الجرائم . وأكثر الأفلام انتشاراً هى أفلام قطاع الطرق ورعاة البقر والأفلام البوليسية وأفلام الأشباح . وأنجح برامج التليفزيون هى التى ترعب المتفرج وتجعله جامداً فى مكانه . والأفلام العاطفية لماذا تنجح هى الأخرى ؟ لأنها تهزنا .. لأنها تروعنا لأنها تبكينا ..

الدموع فى عيوننا ، تصفق لهذه الأفلام ! .

وفى مدينة الملاهى توجد ألعاب مخيفة يتزاحم عليها الناس .

وأجمل الأغانى هى التى تقدس العذاب والظلم والحرماء والبعاد ــ أى التى تجعل لعذابنا إطاراً فنيًا .. أى التى تجعلنا نبكى ونرقص فى نفس الوقت . فنحن نغنى ليلاً ونهاراً : أحبك يا قاسى .. وتظلمنى برضه أحبك .. تهجرنى برضه أحبك .. وعلشان الشوك اللى فى الورد أحب الورد ــ ولا نقول علشان الورد اللى فى الشوك أحب الشوك ! ــ وأنا والعذاب وهواك .. وظلموه .. ويا ظالمنى يا هاجرنى .. ولو ترضى بهوانى برضه انت اللى ليه .. إلى آخر الظلم والعذاب والهوان الذى نحبه ونغنيه ويفتح شهيتنا للطعام والشراب ! .

فلا بد أن مشهد الإعدام لأى إنسان يريح بعض الناس أوكل الناس . فهناك بلاد تنفذ حكم الإعدام فى الميادين وكذلك الضرب والجلد . إنها نفس الرغبة فى التعذيب .. وفى التعذب .. فى تعذيب غيرنا وتعذيب أنفسنا . بل إن الذين قتلوا علىّ بن أبى طالب والحسن والحسين يلبسون عليهم السواد والطين والقطران ويضربون أنفسهم بالسيوف والسلاسل حزنًا على هؤلاء الشهداء . مع أنهم هم الذين قتلوهم . قتلوهم لأنهم يتلذذون بالتعذيب ويبكون عليهم للذة التعذب ! .

فلابد أن أمسك التصريح فى يدى وأذهب لأرى هذا الشىء الغريب . إننى لم أره من قبل . سأرى أناسًا يعرفون شيئًا لا يعرفه أحد من الناس .. لا أنا ولا أنت . إنهم يعرفون أنهم سيموتون اليوم .. الآن . بعد لحظات . إنهم يعرفون متى وأين ولماذا وكيف يموتون ؟ إنهم يعرفون كل ما نخاف أن نعرفه نحن ، فما هى إلا لحظات حتى يلتف الحبل حول أعناقهم . إنه نفس الحبل الذى يضعه كل منا حول عنقه .. كل واحد . فالموت من الممكن أن يجىء فى أى وقت ولأى سبب . وحينئذ يضغط الحبل ، وتشده يد العشماوى كأنه يشد «سقاطة» باب ينفتح على العالم المجهول ، إنه حبل يضغط على العمود الفقرى .. أى على حبل آخر . حبل يقتل حبلاً . مثل عصا النبى موسى التى تحولت إلى أفعى أكلت أفاعى فرعون !

سأرى شيئًا غريبًا .. سأرى العشماوى يضع الطاقية السوداء على عيون المحكوم عليهم . لماذا ؟ حتى لا يروا الناس ، حتى لا يروا العشماوى وهو يقترب منهم ، حتى لا يروا الذين جاءوا يتعذبون من أجلهم ومن أجل أنفسهم .

هذه الطاقية تشبه السحابة السوداء التى تخفى نجومًا تلمع هى عيون الناس . ومعنى ذلك أن هناك شيئًا أقسى من الشنق : عيون الناس !.

عيون الناس فيها معان غريبة .. فيها استطلاع سخيف ، وفيها إشفاق قاتل ، وفيها فزع يضاعف فزع المحكوم عليه .. وهى تتفرج عليه وتتفرس فيه كأنه حيوان غريب .. كأنه مجنون . كأنه عفريت .. ولذلك فهذه الطاقية السوداء ترحم المحكوم عليه من شىء هو أقسى من الموت !.

وفى فراشى أتقلب فى الليل .. وعندما يقترب الغطاء من رقبتى أفزع كأنه حبل .. وفى أحلامى أرى أشياء تعلقت من حبل طويل كحبل الغسيل .. إنها

وجوه غريبة .. وجوه أناس أعرفهم وأناس لاأعرفهم.. وفى الصباح قررت ألا أذهب فأنا لاأحتمل مشهد الإعدام مرتين.. ففى الليل تم تنفيذ حكم الإعدام فى نومى.. فى راحتى.. والسبب هو ابتسامة ما لسيدة ما ! .

كرهت الحب !

العلاقة التى تربطنى بأمى غريبة ..

فهى تحبنى بطريقة مختلفة عن حبى لها .

وكل ما يهم أمى ، لا يهمنى ، وكل ما يهمنى لا تعرف أمى عنه أى شىء .. فهى لا تعرف ماذا أعمل ، ولا كم أساوى ، ولا ماذا يقلقنى . أو يخيفنى . وإذا كنت مريضًا ، فإننى لا أفتح فمى ولا أقول : آه .. وإذا كان المرض شديدًا فإننى أختلق أى قصة وأهرب من البيت وأنزل فى أحد الفنادق .. فأمى لا تتصور أبدًا أننى من الممكن أن أمرض أو أتعب أو أتعذب .. إنها تحزن فى عجز .. فكل ما تملكه أمى هو بضعة ملايين من الدموع ، ومثلها من الدعوات .. ثلاث مرات فى اليوم .. وهذا هو الطب القديم الذى لا تؤمن به الأمعاء ولا المعدة ولا الأعصاب .

والزجاجات الكثيرة الملونة الصغيرة والكبيرة التى إلى جوار فراشى ليست إلا فيتامينات بسيطة للزكام .. والزكام سببه البرد والسهر وسقوط اللحاف من فوقى وأنا نائم .. كما تقول أمى . وأؤكد لها ذلك كل يوم ؟!

وكل رجل يطلبنى بالتليفون هو تلميذ من تلامذتى فى الجامعة ولذلك تدعو له بالنجاح فى الامتحان ! أما كل فتاة تطلبنى فهى خطيبتى ، أو ستكون خطيبتى أو زوجتى وأمى تدعو لها بالسعادة والرفاء والبنين .. وأمى طبعًا ضعيفة

فى الحساب ، وإلا لكانت قد تصورت أننى لا أستطيع أن أتزوج كل من يطلبنى فى التليفون فى خلال سنة أو عشر سنوات..

وأنا أحمد الله أن أمى لا تعرف عنى أكثر من هذا ، ولا تعرف ما يصيبنى فى جسمى أو فى نفسى ، وإلا كانت كارثة علىّ أنا .. فكل ما يصيب أمى ، يصيبنى بعدها بلحظات .. إننى أبالغ فى متاعبها .. وهى أيضًا .. هى ترى متاعبها ضئيلة جدًا ، ولكنى أراها خطيرة .

ولكن حب أمى يعذبنى فعلاً .

إنها سلبتنى أعز ما أملك .. سلبتنى حريتى .

إننى أصبحت أشعر بأنى حارس لابنها .. الذى هو أنا .. بأننى حاميه بأننى أمانة .. فى عنقى .. بأننى «عهدة» يجب أن أسلمها إلى صاحبتها وهى والدتى .. بأننى يجب أن أصون نفسى ، يجب ألا أمرض ، ألا أتعب .. ألا أتقلب فى فراشى .

إن حبى لأمى جعلنى أتحول من صاحب مال إلى حارس لهذا المال ، من صاحب عمارة إلى بواب إلى خفير، من ابن إلى كلب يحرس هذا الابن ! .

لقد كرهت حبى .. كرهت حبى لأمى .. لأنه يعذبنى .. لأنه يحرمنى متعة المرض ، متعة الصراخ بأعلى صوتى وأقول : آه .. متعة تبديد نفسى .. إهدار صحتى .. ممارسة حريتى .

وحتى هذا ــ والحمد لله ــ لا تعرفه أمى ، وإذا عرفته فإنها لا تفهمه ولا يهمها .. فالذى يهمها هو أن أعود إلى البيت فى أى وقت ، وأدخل غرفتى ، وأمد يدى إلى كوب الشاى فأشربها ومعها قرص أسبرين، وأسحب «القربة الساخنة» وأضعها تحت رجلى .. وأنام .. ولا تعرف أمى ــ طبعًا ــ أننى

فى حاجة إلى قربة ساخنة تحت رأسى ، وإلى جوار قلبى .. وقربة ساخنة بين
وبينها .. قربة تشفينى من عذابى ، تشفينى منها .. فإنها هى المرض الغريزى .
والمرض الذى أوصت به السماء فى كل دين !.

لحظة قصيرة

كل يوم يمشى الناس فى الشوارع على الجانبين .. فى زحام بالأيدى .. بالأرجل .. على أبواب المحال ، أو على الفترينات .. يفكرون فى شىء .. أو لا يفكرون .

وكل يوم تنفجر عجلة سيارة .. أو تصطدم بسيارة أخرى .. ويكون هناك دوى .. وضجة .. ويتلفت الناس ، ويتوقفون . وبعضهم يتجه إلى مكان الصوت فى حماس .. أو من غير حماس .. ولكنهم يتجهون .. وتفاجأ بأن عدداً كبيراً من الناس قد تزاحم حول مكان الحادث .. أو مكان الصوت .

فى هذه اللحظة ، لحظة الالتفات والحماس والاتجاه نحو مصدر الصوت ما الذى يدور فى نفوس الناس ؟ ما الذى يجعلهم يغيرون اتجاههم ؟ ولماذا ؟

شىء غريب غامض يولد فى الحال أثناء هذه اللحظة ، ويكبر وينمو ولايقوى عليه الناس.. وكأن هذا الدوى إعلان بميلاد شىء .. أو كأن هذه الضوضاء شىء ينتظره الناس بلهفة شديدة .. فلما حدثت ، شعر الناس بارتياح .

ما الذى يولد ويضطرب فى نفوس هؤلاء وبسرعة ؟ .

إنهم يشعرون بالارتياح .. لأن هذا الصوت قد انتشلهم من السير بلا هدف واضح .. أو من الحركة التى لا معنى لها .. فهذا الصوت قد شدهم .. قد رسم

لإحساساتهم الطريق نحو شيء يمكن رؤيته .. ويمكن الذهاب إليه .

أما الذين لهم هدف واضح ، فإنهم يتلفتون ثم يمضون فى طريقهم .. أو حتى لا يتلفتون .

ولو أن رجلاً مات فى مصنع أو فى داخل سيارة فإن أحدًا لا يتوقف .. ولا يتعطل ولا يتلفت .. فكل الناس لديهم هدف آخر وهذا الهدف قد أخذهم .. أو هذا الهدف يتحرك بهم ولا يمكن أن يشغلهم شيء عنه .

ولو أن رجلاً مات فى البورصة ، فإن الأصوات لن تنخفض .. وربما أدى موته إلى ارتفاع الأسهم .. لكن أحدًا لايدرى به .. فكل الناس لهم هدف واضح محدود .. وهذا الهدف قد شدهم ، وسحبهم .. وشغلهم عن أى شيء آخر .

ولكن المشاة بلا هدف فى الشارع بلا وجهة واضحة .. وفجأة ظهر لهم هدف ، وجهة واضحة وهدف صارخ .. فاتجهوا إليه بارتياح .

ويشعر الناس بالارتياح أيضًا ، لأن هذا الذى حدث سواء كان انفجار عجلة سيارة أو اصطدام سيارة بأخرى ، لم يصبهم .. وإنما أصاب غيرهم .. كانت الإصابة بعيدة عنهم .. فى استطاعتهم أن يذهبوا إلى مكان الحادث وهم فى أمان .. تمامًا كأنهم يسمعون عن هذا الحادث فى الراديو .. أو يرونه فى التليفزيون ، أو يقرأون عنه فى الصحف .

فالحادث بعيد عنهم .. وقريب منهم .

قريب لدرجة أنهم يستطيعون أن يروا أشخاصه وأن يحكموا عليهم وأن يكون لهم رأى .. بعيد عنهم لأنهم فى أمان ، لأن عندهم مناعة .. لأن الحوادث غير معدية .

وهذا الذى يعطيهم الشعور بالارتياح .. يشبه شعور الناس الذين رأوا «رجل البوليس» يمسك أحد اللصوص فذهبوا معه إلى النقطة .. ووقفوا إلى جوار اللص ، وإلى جوار رجال «البوليس» .. فهم قريبون من اللص ، ولكنهم بعيدون عن أيدى رجال «البوليس» .. وهم بريئون من تهمة اللص .. فهم فى أمان .. وهذا هو الذى يعطى الناس الشعور بالراحة .

ويشعرون بالارتياح لأن الناس عادة تضيق بالناس .. لأن الناس لا تعنيهم الناس ، ولا ما يصيب الناس .. واهتمام الناس بالناس سببه : الملل الذى يصيب حياتهم .. فهم فى حاجة إلى أن ينشغلوا .. إلى أن يملأوا فراغهم .. إلى أن يطعموا حواسهم الجائعة : اللسان جائع إلى الكلام والأذن إلى الثرثرة ، والعين إلى الحوادث ، والأنف إلى أن تحشره فى كل ما يحيط بهم .

فالحواس كلها فى حاجة إلى تنبيه .. إلى تدليك .

وأهم من هذا كله يشعر الناس بالارتياح لأن هناك فضيحة .. لحظة فضيحة .. فهذا الانفجار سيجعل العيون تتركز على سائق السيارة أو صاحبها .. وقد يكون السائق قبيح الوجه ، والسيارة فخمة .. وقد تكون فى السيارة فتاة جميلة إلى جوار رجل شيخ .. أو تلميذة هاربة من المدرسة مع تلميذ آخر .. إنها فضيحة .. وسيتكلم الناس .. وسيسمع السائق أو صاحب السيارة عبارات كالرصاص من المتفرجين الذين احتشدوا فجأة حوله : حاسب يا أخى خد بالك . بدل ما انت حاطط ايدك على كتفها ، حط ايدك على الدركسيون . يا أخى مادام لابس نضارة تخينة كدة ما بلاش تسوق .. هات لك سواق .

إلى آخر الكلام الذى يقوله الناس ، ويشعرون أن هذا الكلام من حقهم .. إن الحكم على هذا السائق فورا ، وفى مكان الحادث . من حقهم .. ثم إن الناس يشعرون بالارتياح .. لأن رجلا أو سيدة قد أصبحت

مفضوحة .. أصبحت مكشوفة .. أصبحت كالفأر فى مصيدة من ألسنة الناس وعيونهم .

وكل الفضائح تدخل السرور على نفوس الناس .

فالفضيحة مثيرة .. وكل ما يثير هو متعة للناس مادام لايمسهم .. لايصيبهم .. لايحرمهم متعة التفرج على مصائب الناس .

وكل فضيحة هى تحية للناس .. هى حفلة تكريم لكل الناس .. فالفضيحة معناها أن رجلاً أو امرأة قد انكشف أمره أو أمرها .. وأن الناس جميعا فى أمان وأنهم فى ستر . وأن أحدا لم يمسهم ، لم يعرف سرهم .. أو يخدش كرامتهم .

فالإنسان المفضوح هو تحية لإنسان ليس مفضوحا .. ونحن عادة عندما نشتم غيرنا ونروى فضائحهم نشعر بالارتياح لأننا لسنا مثلهم . لأننا أحسن منهم .. فنحن نقيم حفلات التكريم لأنفسنا على حساب الآخرين .. على دماء الآخرين .

وأمام حادثة السيارة يقف المشاة وهم سعداء .. فهنا عداء بين المشاة وبين أصحاب السيارات .

والذى يملك سيارة ينظر إلى الحادث ، ويحمد الله أنه لم يكن فى هذه السيارة أو لم يحدث له شىء من هذا .. أو أنه حريض لدرجة أنه لايمكن أن يقع فى مثل هذا المأزق .. فى مثل هذه الفضيحة .

والذى لايملك سيارة يشعر بالارتياح والشماتة فى أصحاب السيارات وهو يقول فى نفسه ولغيره أيضا ، يستاهل .. همه أصحاب العربات فاكرين نفسهم ايه .. عاوزين يدوسوا الناس !.

فأمام لحظة الفضيحة ، يشعر المتفرجون بالتكريم والارتياح ،
ويشعرون بشيء غامض .
يشعرون بخيبة الأمل .. كأنهم كانوا متوقعين شيئا ، ولم يحدث أو لم يحدث كما كانوا يتصورون .

هل تذكر شعورك وأنت خارج من أى فيلم .. إنه شعور بالقرف .. بخيبة الأمل .. لأن الفيلم جعلك تعيش فى جو مثير رائع .. جو مدروس محبوك .. الإخراج والقصة والتصوير والتمثيل .. هذا الجو قد استولى عليك ، وقد استنفذ كل حماستك .. فعندما خرجت من الفيلم وجدت جوا آخر .. بلا نظام ولا ترتيب .. ثم إنه لايوجد عندك أى نشاط لتواجه الجو الجديد .. ويكون شعورك هو خيبة الأمل ، هو القرف .

وهذا بالضبط ما يحدث عندما تذهب إلى مكان انفجار عجلة أو اصطدام سيارة .. تنطلق وراء الصوت المدوى .. فهذا الانفجار قد خلق لنا هدفا فاتجهنا ، وأثار حواسنا فنشطنا ، وأشعل حماسنا فاسترحنا .

ولما ذهبنا إلى مكان الانفجار ، لم نجده بالشيء الكبير ولا الخطير .. فأحسسنا أن أحدا من الناس قد خدعنا . قد ضحك علينا .. قد ملأنا بالحماس .. ثم اكتشفنا أن الإنفجار كان إعلانا ضخما عن فيلم تافه .. كان تهويشا . فجعلنا نظهر بمظهر المغفلين .. لقد فضحنا أيضا .

فبدلا من أن نشعر بالعطف على صاحب الحادثة ، شعرنا بالضيق منه لأنه أوهمنا بأننا سنرى شيئا يساوى الإثارة التى أحدثها ، يساوى الحماس الذى جمعناه .. ولكننا لم نر شيئا .. أو رأينا شيئا تافها .

تماما كما يحدث أن رجلا يصفع طفلا فيصرخ الطفل بأعلى صوته ..

ويغطى وجهه بيديه .. ويلتف الناس حوله فى فزع .. فهم يخشون أن تكون الصفعة قد أطفأت إحدى عينى الطفل .. وبعد لحظات يرفع الطفل يديه من فوق عينيه .. ويفاجأ الناس بأن عينى الطفل سليمتان .. وأن الصفعة لم تصب عينيه . هنا يضيق الناس بالطفل .. ويشتمونه ويتهمونه بالتهويل والمبالغة والتهويش .. وبعض الناس يضربه . لماذا ؟ لأن الطفل المضروب الموجوع قد خدع الناس .. قد ضحك عليهم .. لأنه أوهمهم بأن عينه طارت .. مع أنها فى مكانها .. والناس لايشعرون بالعطف على الطفل الذى ضرب .. وإنما يشعرون بالغيظ .. لأنه خدعهم .. لأن صراخه كان وعدا منه بأنهم سيرون شيئا خطيرا .. شيئا يساوى فزعهم .. ولكن الطفل استدرجهم إلى موقف يجعلهم مخدوعين .. مغفلين .. مفضوحين أمام طفل صغير .

وربما كان هذا الشعور بأن أحدا من الناس قد خدعنا وغرر بنا هو الذى يجعلنا نشمت فى صاحب الحادثة ونقول : يستاهل .

والحقيقة أنه « لايستاهل » ولكن لأنه ضحك علينا .. لأنه فضح رغباتنا .. لأنه انتقم من المتفرجين عليه .. لأنه فضحهم .. لأنه فضحهم قبل أن يفضحوه !.

والصحف التى تنشر الفضائح أكثر توزيعا من التى تنشر الأدب والفن .

وأفلام الجاسوسية والجرائم والأشباح . والدماء والخناجر والصراخ ، هى التى يقبل عليها الجمهور فى كل مكان .. هى التى يتزاحم عليها الجمهور ، ليحجز مكانه .. فإذا حجز مكانه استراح وانتظر اللحظات التى ستفزعه ، التى ستخيفه وتنشف دمه وتسيل عرقه ، تكسر ضلوعه من الرعب .. إنه يشترى الرعب بالفلوس .. إنه يشترى الخوف بالوقوف ساعات أمام شباك التذاكر يفعل كل هذا وهو فى غاية الارتياح .. وبعد أن يخرج من الفيلم ، وقد تبدد ملله ، وشعر بالارتياح .. يفاجأ بجو آخر خارج الفيلم .. هذا الجو يجعله يقرف

ويشعر بخيبة الأمل .. ويعود إلى حياته العادية .. يبحث عن الشيء الذى يقتل الملل ويحطم القرف .. يبحث عن الشيء المثير .. الشيء الأعنف .

فإذا انفجرت عجلة سيارة .. أو شبت النار فى السينما .. أو فى أى مكان .. أو ظهر سفاح .. أو قامت حرب .. فإن الناس يشعرون فى كل مكان فى العالم .. بأنهم أقرب .. بأنهم أحسن حالا .. وأنهم فى حالة ارتياح .. لأن شيئا قد أنقذهم .. قد انتشلهم من الملل ، وضياع الهدف .. لأن شيئا قد خطفهم من أنفسهم ، من بلادتهم النفسية .. وألقى بهم فى الموقف المثير .. ولو بالقوة .. ولو بالضرب .. ولو بالنار .

وكأن العجلة التى انفجرت قد أحدثت تفريغا فى الشارع ، هذا التفريغ هز نفوس الناس ، ثم سحبهم إلى قلب الانفجار .

والحروب والفضائح والكوارث ليست إلا انفجارات متوالية وعنيفة فى شوارع الحياة .. يشقى بها القليل من الناس ، ولكن الملايين سعداء بها !

نحن أولاد الغجر !

قرأت خبرا قصيراً يقول إن جماعات الغجر فى إيطاليا سيحتفلون بذكرى ميمى . وميمى ماتت منذ زمن . وميمى ليس اختصاراً لمارلين مونرو أو مارى منيب وإنما هو كل اسم ملكة الغجر التى ماتت فى شمال إيطاليا .. ورأيت جسمها الضخم وهو ملقى على سرير من الورود ، ومشيت فى جنازتها ودفنتها مع الناس . ولم أكتب عنها سطراً واحداً .. لقد دفنتها فى نفسى وزررت عليها القميص والجاكتة وفمى !.

والذى يربطنى بملكة الغجر هو تاريخ طويل ، فأنا منذ بدأت أقرأ أجدنى أهتم بقصص الغجر وتاريخهم ، وكيف دخلوا إلى بلادنا وكيف عاشوا فى أوربا . وكيف أنهم يقيمون فى أطراف المدن فى عزلة . وكيف أنهم جماعات حائرة ضالة من الناس لهم لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وفنونهم وكيف أنهم قطيع من البشر يعيشون على الحافة المتروعة السلاح بين القانون والجريمة . وكيف أنهم حاولوا أن يجمعوا كل الغجر فى أوربا ويقيموا جمهورية لهم فى بولندا ، وكيف انعقد مؤتمرهم الدولى فى سويسرا منذ أكثر من سبعين عاما وانفض المؤتمر ولم يتفقوا .. إنهم غجر !.

ولم أفهم سر اهتمامى بالغجر فى ذلك الوقت .

وعندما رأيت فيلم « غراميات كارمن » بطولة « ريتا هيوارث » وكان أول فيلم رأيته فى حياتى خرجت من الفيلم ودموعى فى يدى .. على أصابعى وعلى كفى ، وكنت أتصور فى ذلك الوقت أن سر بكائى هو أن البطل الهارب فى

الجبال كان أميراً وتحول إلى قاطع طريق وكيف أنه لعن كل إنسان يعمل مالا يحب ، وكيف أنه لعن كل إنسان يحكم عليه بما يراه .

فالذى يراه يقول : لص ... مع أنه ليس كذلك .. ولكن الناس يحكمون بعيونهم وآذانهم لابعقولهم .

ولا أعرف إن كنت فى ذلك الوقت أعمل مالا أحب . ولكن هذا الفيلم هزنى هزا عنيفا وظللت أكتب عنه سنة ، وهذا الفيلم دفعنى إلى قراءة المسرحيات الوجودية والأدب الوجودى .

ولكنى عرفت بعد ذلك أن الذى هزنى هو حياة الغجر ، هو حياة ريتا هيوارث فى هذا الفيلم ، نظراتها الحائرة وخصرها الحائر بين الصاجات وعيون الناس ، هو أن الناس يريدون أن يأكلوها لحما ، ويرموها عظما .. هو أن الناس يضعونها على العين والرأس إذا استجابت ، وبعد ذلك يقولون : غجرية حقيرة ! .

ولما قرأت قصة « القروية » لالبرتو مورافيا بكيت .. لاحبا فى البطلة الساذجة فأنا أكره سذاجتها ، إنها توجعنى وتنفرنى وتحرجنى معها كثيرا .. ولكن بكيت عندما سمعتها تقول لأحد المارة : لست مريضة وليس مرضى معديا ولكن الفقر هو الذى عزلنا عن الناس وجعلنا نتكلم لغة أخرى غير لغتهم ، وجعل الناس يهربون منا ، كأن الأموال التى فى جيوبهم ستفر إلى جيوبنا .. كأننا غجر وكأنكم أنتم أبناء الحضارة الرومانية .. كأننا نفاية المجتمع الحديث ، كأننا تراب أحذيتكم اللامعة ! .

كأنها غجرية ، مع أنها ليست كذلك .

وفى مسرحية جديدة لأديب أمريكا تنسى وليامز يقول خادم قصير القامة جدا لسيده العملاق المفكر : نحن الاثنان فى عزلة أيها السيد العظيم ونظرة

الناس لنا واحدة . وكل واحد منا يبعث على الدهشة ، ونحن الاثنان معا نبعث على الضحك !.

وكل قصير جدا فى عزلة ، وكل طويل جدا فى عزلة ، وكل بدين جدا فى عزلة . والعبقرى معزول والعظيم معزول . والمجنون معزول والمريض معزول . والفقير معزول والغنى معزول .

وكل جماعة من هؤلاء فى عزلة ، يعيشون وحدهم فى مجتمع خاص بهم ، كأنهم جماعة من الغجر . ينظر إليهم الناس فى دهشة .

فالعلماء الذين يشتغلون بالذرة فى أمريكا فى عزلة تامة عن الناس ، وعلماء الصواريخ فى روسيا لايعرفهم أحد ولايراهم وعليهم حراسة كأنهم مجرمون أو هاربون من العدالة .؟

أو كأنهم عجر يعيشون ضيوفا على القانون .

وعشرات الكتب عن حياة الغجر وتاريخهم وفنونهم وصورهم القاتمة التى أراها من حين إلى حين تدل على أن اهتمامى بالغجر أكثر من عطف أو إشفاق عليهم .

ولكن طفولتى وشبابى ورجولتى كلها تربطنى بهم من أكثر من ناحية . فلم تكن طفولتى مستقرة . لقد كنا ننتقل من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى مدينة . كل يوم نحن فى بلد . كل يوم نحمل متاعنا الخفيف ونسافر . لم يكن متاعنا كثيرا . لم يكن لى أصدقاء . لم يكن لى أصحاب . لم تكن هناك بلدة عزيزة علىَّ . ولم يكن هنالك أحد عزيز على . كل يوم أرى وجوها جديدة . لا أعرف كيف أتعلق منها أو فيها . كنا جماعة منعزلة يفاجأ الناس بنا ويسألوننا عن بلادنا وكنا نقول ، وكان الناس يصدقوننا أو لا يصدقون . لم يكن زملائى فى المدرسة يرحبون بى ولايحبوننى . فهذا أبوه فلان وهذا أخوه فلان . كلهم من أبناء

المدينة ، أما أنا فمن بلاد أخرى لايعرفها أحد . ولايعرفون من أين جئت ولايعرفون أهلى ولا أقاربى . وكنت غريبا وكنت أعوض غربتى بالتفوق فى دروسى وكان هذا يضاعف متاعبى . وكثيرا ما كان الطلبة يضربوننى لأننى أنفرد بالمذاكرة وبالتفوق . مع أننى أريد أن أرتفع بدروسى إلى مستواهم النفسى ، إلى مستوى استقرارهم وقدرتهم وأسرهم .

وكنت حجرا متحركا .. وعرفت لماذا كرهت العنف . كرهت العنف لأن القوة لا أملكها ، ولأننى كالحجر فعلا دار كثيرا فتكسرت أطرافه وأصبح ناعما كرويا ينزلق على الأرض .

وكنت أشعر أننى أعيش فى خيمة . مع أن البيت الذى أعيش فيه من جدران وله أبواب ونوافذ وأقفال ومفاتيح .. ولكن شعورى أننى فى مهب الأيام والفقر والمرض .. وأننى ضمن جماعة حائرة ضالة فى مجتمع كبير .. وأننا جماعة من البدو لانكاد نجد العشب حتى ندق خيامنا ، فإذا جف العشب انتقلنا إلى مرعى آخر .. ومتاعنا قليل ، ومتعنا أقل ، وجذورنا واهية ، وما يربطنا بالناس أو هى فلم يتسع وقتنا لنحب الناس ، ولم يتسع وقت الناس ليحبونا .. كنا مثل عربة تحمل أناسا لهم وجوه غريبة وسلع غريبة وتصدر عنهم موسيقى حزينة يختلط فيها غناء الأطفال ببكاء الأم وآهات الأب وعواء الذئب . والخوف من الذئب جعلنا ننام وعيوننا مفتوحة وأيدينا مقفلة على بقايا طعام وبقايا مال ، وعلى أسلحة وهمية تحمينا من غزوات الذئاب .

ولم أسكن فى خيمة أبدا ، ولكننى لم أقتنع بعد أن البيت الذى أسكنه ليس فى مهب الرياح ، ولم أر الذئب أبدا ولكن عواءه لم يفارق أذنى ، والخوف منه لم يختف من أحلامى .

فكيف لا أبكى على ميمى .. إن دموعى لاتنزل عليها ، وإنما تنزل على خدى ، على نفسى !.

فى عزلة

الناس كثيرون فى كل مكان .. فى الشوارع ودور السينما ، والنوادى والمطاعم والأفراح والمآتم والمدارس والدواوين والمصانع .. كثيرون.. ولكنهم ينظرون .. عيونهم مسددة إلى غيرهم .. ترى ولا تتكلم .. وإذا تكلمت فكلمة أو اثنتين أو تتفادى الكلام .

كل ما يربط الناس بعضهم ببعض هو هذه النظرات .

ونظرات الناس ليس فيها ود ولا حب .. إنها نظرات متزلقة .. لاتثبت على شىء .. دائما تتزحلق على كل شىء .. وأحيانا ترى عيون الناس وهى تبرق وتلمع .. تماما كالفنارات التى تبرق .. وتعلن للسفن أن هناك مياها إقليمية .. ولكن هذه النظرات تنذر وتهدد ولا ترحب كالفنارات .

ماذا جرى للناس .. وفى المدن والعواصم ؟

لماذا هم هكذا .. لايبالون .. لايهتمون .. لايثيرهم شىء .

هذه هى مشكلة أبناء المدن والعواصم .

إن شيئا واحدا يجمع أبناء المدن هو العزلة .. هو هذه المسافات البعيدة المتباعدة بين الناس .. إن الناس كالقلاع القديمة .. صماء عالية تحيط بها المياه من كل جانب .. وتتعلق عليها الكبارى .. فإذا جاء العدو ، رفعوا هذه

الكبارى .. وأبناء المدن يرفعون الكبارى عادة ، ثم يلقون فى المياه بألواح من الثلج اسمها ! اللا مبالاة !.

إننى سرت فى شارع فى لندن اسمه بيزووتر .. الشارع طويل جدا .. ولم أصادف إنسانا واحدا يمشى على قدميه .. ساعة وراء ساعة .. وفى هوليوود مشيت فى شارع اسمه بيفرلى هيلز ساعات لم أجد إنسانا على قدميه .

والمدن الكبرى كهذه الشوارع .. كبيرة وشوارعها مرصوفة وبيوتها مرصوفة وأناسها مرصفون .. ناعمون سود .. وفيهم أنوار تبرق وتلمع .. منذرة لامرحبة .. والعمارات طويلة كالشوارع .. ولكنها خالية من الناس .. أو فيها ناس ولكنهم لايتكلمون .. يتحركون فى صمت كأنهم أشباح .. ولا أحد يريد أن يمد جسرا لأحد .. أو يجفف المياه التى حوله .. الكل فى صمت الأشباح ، والشوارع المرصوفة والعمارات الرخامية ، والقبور والصخور ، والنجوم البعيدة .

ولكنهم جميعا ينظرون .. فقط ينظرون ولايتكلمون ، وإذا تكلموا فإنهم يقولون : تذاكر .. تذاكر .. اقفل الباب وراءك .. انظر إشارة المرور من فضلك .. رخصتك أرجوك .

إن الذى يتكلم هو الرسميون فقط .. ولأسباب تتعلق بأعمالهم .. فقط وبعد ذلك ينظرون .

والناس فى عزلة .. عزلة مفروضة عليهم .. وقليلون جدا هم الذين يختارون العزلة .

فالمشتغلون بالفن والفكر هم الذين يريدون العزلة .. يختارون الاعتزال عن الناس والحياة ، ليكون لديهم هدوء أكثر ، ووقت أكثر ليفكروا وينتجوا ويعودوا إلى الناس .

فالفن « اعتزال » من أجل العمل .. أما الباقون فهم يعانون الاعتزال .. الانعزال عن الناس .. لا أحد يكلمهم .. ولا هم يكلمون أحدا .. ولايعرفون ماذا يفعلون .. يجلسون أمام الراديو ولا يتكلمون .. أمام التليفزيون ولا ينطقون .. وفى السينما يضحكون معا ويتوهم الحاضرون أنهم شلة أو أصدقاء أو عائلة فلا يكاد الفيلم ينتهى حتى يبتلع كل واحد منهم ريقه المر .. والذى ازداد مرارة .. ويتفرغ إلى النظر .. إلى مجرد النظرات والصمت .. ويتحول الناس إلى تماثيل بدأت حواسها تتنبه .. حاسة حاسة .. وأولى هذا الحواس . النظر فى احتقار .. لكل الناس !

كثيرون منعزلون .. ملايين منعزلون ولا يعرفون ماذا يصنعون .

إن هذا العنف الذى نراه فى العواصم .. ليس إلا تحطيماً للحاجز الصوتى بين الناس .. ليس إلا تحطيماً للزجاج الشفاف الذى يفصل بين الناس . إن الناس قد تعبوا من الصمت .. تعبوا من السكوت .. تعبوا من « الانعزال » .. من انعزالهم من الناس ومن عزل الناس لهم .. تعبوا . من قلاعهم الصماء الجامدة المظلمة المحاطة بالمياه الباردة .. ولذلك هم يلجأون إلى العنف .. إلى القتل والسطو .. والهتك .. والإدمان والتخريب .. إنهم يريدون أن يستمعوا إلى كلام .. إلى صراخ .. إلى شتائم .. إلى أن يقترب منهم أى إنسان ثم يقول لهم شيئا .. يقول لهم كلاما شخصيا .. فكل شىء فى العواصم ليس شخصيا .. الصحف تصدر لكل الناس .. الإذاعة تتكلم إلى كل الناس .. التليفزيون لكل الناس .. السينما لكل الناس .. ولكن هذه الأعمال العنيفة تؤدى إلى كلام شخصى .. إلى اتهام شخصى .. إلى من يمسك القاتل ويضربه وحده ، ويحبسه وحده .. إلى أن يلمسه .. إلى أن ينظر إليه وحده ويبصق فى وجهه .

الحرب عمل غير شخصى .. ولكن القتل مسألة شخصية .

ولذلك فجرائم المدن والعواصم كلها من أجل أن يكون هناك كلام واهتمام واتهام شخصي !.

وبعد هذه الأعمال العنيفة .. تتحدث المدينة أو العاصمة ثم يعاودها الصمت من جديد .. وتبقى المشكلة قائمة .. وتزداد الهوة بين الناس .. فى العمارات الكبيرة وفى المدن الكبيرة .

وبين المدن والضواحي .. وبين المدن والمدن .. ويدخل الناس المستشفيات لينعموا بعزلة أخرى .. ويكبر الناس فى السن ، ويدخلوا فى عزلة الشيخوخة .

والشباب أيضا فى عزلة لايعرفون كيف يخرجون منها .

إن الصحف فى أمريكا وفى بريطانيا تنشر إعلانات غريبة لشبان يريدون أن يتزوجوا .. إن الوسيلة الوحيدة للبحث عن الزوجة هى الصحف .. فالصحف تقوم بدور الخاطبة . والخاطبة كان لها دور أيام المجتمع الريفى المحافظ الذى لايستطيع فيه الشاب أن يرى الفتاة .. المجتمع المحافظ الريفى .. شبيه بالمجتمع المحافظ الصناعى .. لاوقت ولا مكان لكى يرى شاب فتاة .. فالصحف الآن هى الخاطبة .. وهناك مكاتب للزواج .. فقد قرأت هذا الإعلان : أنا فى الرابعة والعشرين جامعى رياضى أعيش مع أمى وألعب التنس وأقدس الترفيه يوم الأحد وأريد فتاة عاملة ولا شأن لى بأموالها أو التزاماتها العائلية وفى سنى ولايهمنى ماضيها .

أو هذا الإعلان : أنا فى الأربعين دخلى كبير .. لم أتزوج وأريد زوجة فى سنى . ولايهمنى إن كان عندها أولاد ماداموا لن يعيشوا معنا .. وأنا زوج مثالى .. متدين معقول ورياضى وليست عندى سيارة ، وأقيم خارج لندن .

وألوان الإعلانات فى المجلات والصحف تؤكد العزلة والانعزال اللذين يعانيهما أبناء العواصم .

لقد نشرت «لندن تايمز» المحافظة الجادة بحثا طويلا عن هذا الشعور « بالوحشة » فى العاصمة البريطانية .. وذكرت أن الشباب يطلبون نقلهم من مؤسسة إلى مؤسسة أخرى بحثا عن صديقة .. عن فتاة تتكلم معهم .. لا أحد يتكلم مع أحد .. لا أحد يقترب من أحد .. لا أحد يختلط بأحد .. كل الناس فى طوابير .. كل واحد وجهه فى ظهر الذى أمامه .. لا أحد يواجه أحدا .. كلهم « يتظاهرون » أو « يجانبون » أو « يتفادون » أو « يتزحلقون » على بعضهم البعض .. كأنهم قطع من « الظلط » .. أو كأنهم ملايين الإبر الناعمة الفضية التى لاصوت لها .

وكثرة الجمعيات والهيئات والمؤتمرات .. كلها مناسبات لكى يتقارب الناس ليشبعوا شهوة الكلام .. فالإنسان حيوان ناطق .. وهو اليوم فاقد للنطق !.

إن الناس فى حيرة .. إنهم عادوا إلى حياة الكهوف المظلمة .. فكل واحد منهم كهف مظلم يتربص فيه وحش كاسر .. هذا الوحش لايريد إلا أن يتكلم .. إلا أن ينطق .. حتى هذا الكلام أصبح عسيرا فى العواصم الكبرى .

والإنسان حائر بين صمت مؤلم ، وبين نطق أكثر إيلاما .

إن أساطير اليونان تحكى لنا قصة البطل الذى طلب من الآلهة أن تمكنه من زيارة زوجته فى جهنم .. ورقت الآلهة لهذا الزوج الطيب .. لكنهم أنذروه قائلين إن زوجتك ستمشى وراءك وستتحدث إليك .. بشرط ألا تتحدث أنت إليها .. فإذا تحدثت إليها أو نظرت إليها فإن زوجتك ستتحول إلى قطعة من الجليد .

ووافق الزوج .. وذهب إلى الجحيم .. واستمع إلى صوت زوجته وهى تمشى وراءه .. وهو لايستطيع أن ينظر إليها ولا أن يرد عليها .. هى تتكلم وهو لايستطيع أن ينطق .

فإما أن يستمع إلى زوجته ، وإما أن يفقد زوجته .

واختار الصمت .. وترك زوجته تتعذب فى كلامها ، ويتعذب هو فى الاستماع إليها .

الاستماع إلى الصحف والراديو والسينما وموتورات السيارات والمصانع ودوى القنابل والإنسان لايملك إلا الصمت .. والبكاء على الصمت الذى ابتلع عزلته هو والملايين من أبناء المدن !.

إننا وصلنا إلى القمر .. لقد أصبح المريخ قريبا ، ولكن المسافة التى بينك وبين أقرب الناس ماتزال بعيدة .. بعيدة جدا !.

إن الغجر ليسوا فى مكان معين محدد ..

إننا جميعا أبناء غجر !

من يضع الشبكة ؟

الهرب من الحياة جبن والانتحار هرب من الحياة . إذن ، فهذا الشاب الذى ألقى بنفسه من أعلى المبنى المجمع فى ميدان التحرير جبان .. هكذا نقول عن هذا الشاب وعن غيره من الشبان .

ولكن أنا لا أدرى لماذا يسمى الهرب جبنا ؟ من الذى لايهرب فى حياته ؟ من الذى لايغمض عينيه ، فلا يواجه الضياء بعض الوقت من الذى لايضع أصابعه فى أذنيه ، فلا يسمع مايضايقه ، من الذى لاتأخذه سنة من النوم ، فلا يسمع ولا يرى ولا يحس بشىء ؟ أليس هذا كله هربا ؟ .

ثم من الذى لايهرب من دنياه كلها بالمرح بالخمر بالحشيش بالصلاة أو بالزهد أو بالإدمان ؟

إن الإنسان حيوان هارب .

وهذا الشاب شاء أن يهرب من « بوليس الحياة » وآثر أن يلتجئ إلى دولة أجنبيه ، ليس بيننا وبينها اتفاقية لتسليم اللاجئين .

إن الذى قرر الانتحار قد اتخذ هذا القرار بإجماع الأصوات فى جسمه وعقله ! ولكن من الذى أثار الأغلبية ؟ من الذى حرضها على إعلان الحرب بعضها على بعض ؟ لا أحد يعرف فقد تعالت الأصوات ، وضاع صوت العقل .. ولكنه جعل يدق المنصة دقا عاليا . وكان الرأى للأغلبية .

لقد قرر أن يموت .. على مرأى من الناس كلهم ، وعلى مسمع منهم .. لأنه لايريد أن يموت مرتين .. أن يموت ، ولايعلم به أحد . لقد اختار العفن والنعش والجنازة .. لقد نسجهم جميعا من دهشة الناس وفزعهم ورثائهم له .. ومن أقوال الصحف ، والصورة التى تنشر له بين أهله وأصدقائه .

إنه أراد أن يموت وسط الناس .. أن يموت فى الضجيج .. أراد أن يموت ولكنه لم يرد أن يفنى فلا يكون له صدى ولا يكون له أثر .

ولهذا لم نسمع عن إنسان ألقى بنفسه فى النيل ليلا ، ولم نسمع عن أحد قرر الانتحار فى الصحراء ، أو ركب زورقا ودخل به البحر ولم يعد .. ولم نسمع أبدا عن شاب ذهب إلى المقابر وانتحر بين الموتى .

ولكن رأينا كثيراً من يعلن أنه سينتحر .. أو من يهدد بالانتحار .. أو يبعث لرؤساء تحرير الصحف يهددهم بالانتحار فهؤلاء جميعا يريدون أن يموتوا علنا .. أن يعيشوا ولو أياما بعد موتهم . أن يعيشوا على ألسنة الناس وفى آذانهم .

ولم نعرف فى التاريخ كله سوى رجل واحد قرر أن يموت دون أن يعلم به أحد .. ذلك هو الفيلسوف اليونانى « أميتروفليس » الذى عاش منذ ٢٣ قرنا .

لقد قرر هذا الرجل أن يختفى عن عيون الناس ليقال إنه ارتفع إلى السماء . فذهب إلى بركان أثنا ، وألقى بنفسه فى فوهته المحرقة . ولكن لم يلبث البركان أن قذف بحذاء الفيلسوف وعرفه الناس من حذائه . وأدركوا أنه انتحر . أنه لم يرتفع إلى السماء ، وإنما هبط إلى الأرض ، وأن الذى ارتفع إلى السماء هو حذاؤه ! .

وكان فى وسعه أن ينتحر بغير حذاء .. ولكنه كان حريصا على أن يعرف الناس أنه مات !

وقرأت من يقترح وضع شبكة فى داخل المبنى المجمع لتحمى الشبان من قسوة الأرض بعد أن تعبوا من قسوة الحياة وبذلك يسقط الشاب فى الشبكة ، كما يفعل نجوم السينما ، ونجوم السيرك .

ولكن ألم يحدث أن أحدا انتحر قبل إنشاء هذا المبنى ؟ أهذا المبنى وحده هو الذى أتعب حياة الشبان وأغراهم بالموت ؟.

وهل نضع شبكة فى كل البيوت العالية .. هل نضع شبكة على النيل والترع وعلى قضبان السكك الحديدية ، وهل نغطى الأسلحة الحادة . والنارية وبذلك نضمن الحياة لكثير من هؤلاء الهاربين من الحياة ؟.

إن موضوع الشبكة هو نفوس هؤلاء الشبان .. مكانها هو البيت هو المدرسة .. هو حياتهم كلها .. فإذا وضعنا هذه الشبكة فإن الشبان ينطلقون فى حياتهم كما كانت تنطلق السفن الحربية آمنة من الألغام لأنها قد وضعت شبكة مغناطيسية فى أسفلها .. ولكن من الذى يضع الشبكة فى عنق القط ؟ من الذى يضع الأمن والأمل والراحة فى حياة شبان فيهم قلق وفزع كأنهم ولدوا وكبروا وعاشوا فى ظل الغارات الجوية !..

إن الذين يفكرون فى وضع الشبكة وفى صنعها ، أحوج الناس إليها !!

في البن ؟ !

لا أحد حر حرية مطلقة .. لا أحد .. حتى الطاغية نيرون حتى الطاغية كاليجولا ..

بل إن يوليوس قيصر كان يقول لابنه الصغير : يابنى إنك تتحكم فى أمك وأمك تتحكم فى أبيك وأبوك يتحكم فى الرومان .

فهو ليس حرا حرية مطلقة .

وعندما يشعر الإنسان بأنه حر حرية تامة فإنه يحس بالحيرة والمرارة كأنه مقيد تماما .. فأنا الآن حر فى حركتى أستطيع أن أبقى فى هذه الغرفة وأن أتركها وأن أمشى على قدمى وأن أركب سيارتى وأن أذهب إلى مينا هاوس وأن أذهب إلى المقطم وأن أبقى فى بيتى أو مع الآخرين .

ومع ذلك فإننى لا أختار أى مكان وإنما أتجه إلى مكان واحد بحكم العادة أو لأننى لا أريد أن أقوم بتجربة جديدة أو لأننى لا أجد دافعا قويا .. أو لأننى لا أريد أن أفكر فى سبب ذهابى إلى هذا المكان فأذهب إلى مكان واحد بالذات كأننى لا أجد مكانا آخر غيره أو كأننى لا أملك الذهاب إلى أى مكان آخر !.

وهذا المكان الذى أذهب إليه ليس محلا ولا مطعما ولا ملهى ليليا .. إنه مكان نقف فيه أو أمامه أو نقف به .. فلا يوجد به مقعد واحد .. هذا المكان

هو محل « البن البرازيلي » فيه ألتقي بأصدقاء من الصحفيين والمهندسين والأطباء والمحامين والمطربين ونجوم السينما .. وعدد كبير لانعرف إلا وجوههم .

وهناك نقف وندور بعضنا حول بعض ونتزاحم بالأقدام على رقعة صغيرة من الأرض ويستقبلنا هذا المحل الصغير بحرارة غريبة .. حرارة تتصاعد من أفران اختنقت فيها كأنها بواخر انحشرت فى ميناء صغير.. وهناك بخار وموجات لها رذاذ .. هذه الموجات يطير لها النوم من أعيننا والكسل من أجسامنا ، إن هذه الموجات تشبه « المسن » الذى تمر عليه السكاكين فيجعلها حادة لامعة .. إن هذه الموجات تجعل أعصابنا حادة وعيوننا لامعة ..

ونحن نقف فى هذا المحل كل يوم ولنا قصص مشتركة ولغة وموضوعات نضحك لها بمجرد الإشارة إليها .. وفى هذا المحل أشعر بأننى قريب إلى نفسى فأظل منتبها واعيا متحركا .. أظل أرفع قدما وأضع قدما كأننى أشعر أن الأرض تحتى ليست مستوية وكأننى أعمل على تسويتها .. والحقيقة هى : لا الأرض ولا حياتى ولا أفكارى ولادنياى مستوية ولاسوية .

وحتى عندما يقفل هذا المحل أبوابه لأى سبب فإننا نظل واقفين أمامه ولانشعر به ونبقى هكذا كأننا زوارق وقفت فى مدخل الميناء تنتظر الإذن بالدخول .

إن الهنود يستحمون فى الأنهار المقدسة مرة كل عام يغسلون متاعبهم وتراب العام كله ..

وأنا أستحم فى هذا البن كل يوم .

وأحب هذا المحل وأكرهه .. أحبه لأننى أجد فيه أصدقائى وأكرهه لأننى اعتدت عليه وأنا أكره كل شىء تعودته لأننى أشعر كأننى يوليوس قيصر الذى تحكمه زوجته التى يحكمها ابنها الصغير.. وهذا الابن هو العادة .. هو تعودى

على هذه الوجوه وهذه الأبخرة وهذه الرقعة الصغيرة من الأرض ..

وأساطير الإغريق تروى لنا أن البطل « أخيل » قد أمسكت به إحدى الآلهات وغسلته فى النهر .. وأصبح جسمه منيعا لاتنفذ فيه السهام وحار أعداؤه كيف يقتلونه وأخيرا عرفوا نقطة الضعف فيه .. إنه المكان الذى أمسكته منه الآلهة وهى تغسله فى النهر .. إن نقطة الضعف هى كعبه لأن ماء النهر لم يمسه فصوبوا سهامهم إلى كعبه وقتلوه .

والعادة هى نقطة الضعف التى تصيبها السهام كل يوم فأرانى أذهب إلى البن لأملأ صدرى بهواء يغسل كسلى ويوقظ أعصابى .. كأن كل ذرة بن هى مسحراتى فى يده طبلة يقول : يا عباد الله .. قوموا .. الحقوا قطار الصحافة .

كل يوم أذهب إليه .. وكل يوم ألعنه .

ألم أقل لك إن الإنسان ليس حرا حرية مطلقة ؟!

حادث فوق الهرم !

ليس انتحارا ولكنها جريمة قتل ، والفاعل مجهول ، لقد وقف شاب وشابة على صخور الهرم لكي يتخاطف الاثنان قبلة واحدة ياناس ! إن هذا الشاب ليس شاعرا ولافنانا . إنه لم يشأ أن يرى القمر على وجه فتاته . ولم يكن فى نيته أن يقبلها ووراءها أضواء القاهرة كأنها بدلة رقص (بالترتر) تهتز يمينا وشمالا .

أبدا لم يكن شاعرا مع الأسف ، ولكنه إنسان مسكين هارب من قبضة أصحاب الجلاليب البيضاء واللبد الصفراء ، إنه هارب من بوليس الآداب هارب من الذين يهددون الآمنين بالفضيحة .

إن هذه جريمة قتل . إن هذا هو ناقوس الخطر الذى ظل يرن أعواما طويلة دون أن يسمعه أحد . إن هذا الشاب قد جاء يرن الناقوس بحياته وحياة فتاة أخرى . فاختفى صدى الرنين ، وبقى الخطر قائما ، وبقى الحرمان على ماهو عليه ..

وأنا أذكر صحيفة « ميونيخ المصورة » نشرت فى منتصف أبريل الماضى صورة تلميذة صغيرة ، فى الحادية عشرة من عمرها هجمت على أستاذ لها فقبلته بالقوة ، ونشرت الصحيفة هذه القصة على أنها حادث غريب جدا وقد تحمس بعض علماء النفس فى ألمانيا لدراسة حال الفتاة ، لأن موقفها هذا غير عادى . فما الذى دفع فتاة إلى أن تهجم على مدرسها وتقبله بالقوة .

لماذا اتخذت هذا الموقف العدوانى ، وما الذى شغلها عن الشبان فى مثل سنها وجعلها تتجه إلى رجل فى الخمسين ؟ حال التلميذة يحتاج إلى دراسة .. إلى بحث . وبعد أسبوع صدرت مجلة « علم النفس » الألمانية وفيها بحث عن حالة هذه الطالبة .

إنهم لم ينظروا إليها على أنها جريمة ، أو فعل فاضح ، وإنما على أنها حالة نفسية تحتاج إلى دراسة ، إلى علاج . إنهم هكذا يأخذون كل شىء مأخذ الجد والدراسة .

ونحن فى مصر يجب أن ندعو علماء النفس والدراسات الاجتماعية لبحث حال الشبان ، لبحث صور الكبت الرهيبة التى يعانيها الكثيرون منهم . وكيف أن الكبت العاطفى يتخذ صورا عنيفة ، كالغاز المحبوس فى جوف الأرض حين يصدر على هيئة براكين وزلازل تعصف بحياة الشبان وبمستقبلهم . ولكنى مع الأسف لم أر يدا واحدة تمتد ، ولا قلما واحدا يخط حرفا من أجل هذه الظاهرة العميقة التى تلوى كيان مجتمعنا وتهدده من الداخل ..

وليس العلاج هو أن نعلم بوليس الآداب أن يتكلم باللغات الأوربية ولا أن يتعلم القراءة والكتابة .. ولا أن يبحبحها شوية ـ هذا أحسن طبعا ولا بأس .. ولكن العلاج أبعد من ذلك وأعمق . إن مصدر هذا الاضطراب فى حياة الشبان سببه الاضطراب العائلى والتربوى والاقتصادى .. وسببه أيضا الكبت الهائل فى حياتهم العاطفية ..

أما تحسين أخلاق بوليس الآداب فهو كالذى يعالج سقوط الشعر بتصفيفه فقط . ولكن سقوط الشعر يعالج بالمقويات الحيوية فى الدم .. أى يجب أن نعالج الجسم كله أولا ، وبعد ذلك نقوى بصيلات الشعر ونقوى أخلاق الشبان ..

إلا إذا كانت هناك نية لإلقاء كل شبان القاهرة من أعلى الهرم ..

والهرم هو أعظم مقبرة فى المدينة ، ولا أعتقد أنها تتسع لعشرة ملايين من الشبان .

بقعة ..
على الصليب الأبيض

عاشت حالمة ، وماتت نائمة .
عاشت كالعصفور وماتت كالنسور ..
ماتت فى سجن اسمه : القمة !.

الصاروخ الذى أطلقته أمريكا فاتخذ مداره حول رءوس وقلوب كل سكان الأرض فردا فردا ، ثم سقطت دموعا من عيون الناس . الشمس التى هى مصدر الحياة ليست فيها حياة ، والفتاة التى كانت رمزا للجنس ، عاشت وماتت محرومة .. سقطت تحت عجلات النوم ، تحت خمسين قرصا منوما .. كان الناس ينظرون إليها ولايتكلمون ، فلما حاولت أن تتكلم لم ينظر إليها أحد .. ولدت يتيمة .. وحدها .. ودفنت يتيمة ودخلت قبرها وحدها .. وحدنا نولد ، وحدنا نعيش وحدنا ندخل القبر ووحدنا نعرف الحقيقة !.

ليس عن مارلين مونرو وحدها أتكلم .. فلن تكون م.م آخر من يعرف هذه النهاية .. سيعرفها وسيعانيها الكثيرات من اللاتى والذين يعيشون فى النور .... يعرفون السهر ، ويشكون من أن فيه تولد ، وفيه تدفن ، من أجله تموت .. نور يحرق .. نار .. الشهرة والمجد .

إن مارلين مونرو هى أجمل إنسان تعذب فى شهرته ، وبشهرته ومن أجلها .. إنها طفلة صغيرة حتى النهاية .. لقد ولدت من أبوين لاتعرفهما .. أو

تعرف عنها القليل .. كلما سألوها عن أحدهما قالت : مات منذ وقت طويل ..

وتركتها أمها ضائعة بين البيوت .. بين عشرات الأمهات .. وكل واحدة منهن تنكرها .. لقد كانت تمسح البلاط ، وتنام على حافة السرير ، وتصحو فى حالة من الفزع فى الليل .. كانت تشكو دائما من برودة الليل .. كانت تشكو من أن زميلاتها فى المدرسة يسخرون منها .. فلم تر واحدة من زميلاتها أو قريبا من أقاربها يزورها فى المناسبات الدينية ...

ولم تكن جميلة مارلين مونرو ــ وكان اسمها نورما بيكر ــ كانت نحيفة حساسة .. وكانت تبدو أطول من الفتيات .. ولكنها كانت طيبة ، وكانت مرحة .. ولكنها فى أعماقها تعيسة ..

قال أرثر ميللر زوجها الأخير : إن مارلين مونرو تقسم الناس قسمين هما : أناس قادرون على إيذائها .. وأناس قادرون على إيوائها .. وهذه طبيعة الفتاة الخائفة المذعورة .. الفتاة التى تخاف من كل الناس ، ومن كل شىء حولها ، إنها تطلب الأمان والحماية من كل من يقترب منها .

وكانت مارلين مونرو وهى طفلة صغيرة تحلم بأنها تمشى فى الكنيسة عارية تماما .. والناس راكعون عند قدميها .. وكانت تحلم أيضا بأنها تمشى فوق رءوس الناس .. دون أن تؤذى واحدا منهم ..

ويقول فرويد : إن كل الفتيات يحلمن بأنهن يمشين عاريات .. وسبب ذلك أنهن يخفن من أن يكن عاريات .. فسبب هذا العرى ، هو الخوف من العرى ..

ومارلين مونرو كانت تحب أن تتعرى .. لأنها تخاف من الناس ، ولذلك كانت تقابلهم بالسلاح الأبيض . !

وهى تحب العرى ، لأنها كرهت ملابس المدرسة .. ملابس ملجأ الأطفال الذى تربت فيه كطفلة يتيمة مع أن أمها على قيد الحياة !.

وكل حياة مارلين مونرو هى البحث عن أب حنون .. لقد مات أبوها ولم تره .. لم تشعر به .. لم تقل له مرة واحدة ، بابا ، أنا أحبك .. لقد كانت تحلم كثيرا ، بأنها تركع عند قدمى رجل كبير عجوز وتقول له : أحبك يا أبى !

وكانت تصحو من النوم على دموعها ، وعلى صراخ صاحبة البيت ، أو السيدة التى احتضنتها وهى تقول لها : قومى هاتى علبة السجائر لبابا ..

ولم يكن هذا أبوها . وإنما هو صاحب البيت ..

وكانت مارلين مونرو تعتقد أن الزعيم الأمريكى لنكولن هو أبوها .. هو أبو كل الأيتام فى أمريكا .. وكانت تضع صورته إلى جوار سريرها .. وفى حافظة نقودها وفى سيارتها .. وعندما تزوجت الكاتب الكبير أرثر ميللر ، فلأنه يشبه الزعيم لنكولن .. فى طول القامة ونحافة الجسم ، وفى أنه ينظر إليها من فوق ، يحميها بعقله وشهرته .. فهى فى حاجة إلى حماية .. أية حماية .. ولم يدم هذا الزواج .. فهى أرادت الأب ، فلم تجد إلا الزوج ، وأرادت الزوج ، فلم تجد سوى الأب ..

وهربت لتعاود وحدتها من جديد ودخلت الدير .. وخرجت لتدخل الاستوديو تجلس الساعات أمام الرسامين .. ولتعمل فى إحدى شركات الطيران .. ولتقبل أول رجل يقول لها : أحبك وأتزوجك فورا .. ولتتركه بعد شهور ..

ثم انتقلت إلى غابة الوحوش فى مدينة السينما ..

وفى هذه الغابة أناس لهم كروش .. وأنوف طويلة وشعر أسود .. وأصوات خاطفة .. وأوامر حادة .. وفى أيديهم مدافع ومسدسات وقنابل كلها تومض وتبرق .. وجرائم هؤلاء الناس يرتكبونها تحت الأضواء ..

ويسجلونها فى أشرطة سوداء قاطعة كالموسى يصدرونها إلى الخارج .

وأصبحت ـ بسرعة غريبة ـ مارلين مونرو رمزا للجنس .. لجمال المرأة ... صورتها تعلق فى كل مكان .. فى المطاعم والفنادق والسجون .. ولم تعد الزوجات يغضبن من رؤية هذه الصورة فى جيوب الأزواج .. فمارلين مونرو لاتغار منها أية امرأة .. لأنها فوق المنافسة .. ولأنها حقيقة مقررة .. ولأنها كصورة الملكة المرسومة على الجنيه الذهب .. فالناس ينسون الملكة ، ويذكرون الذهب ..

ولكن أحدا لايعرف كيف انطلقت مارلين مونرو .. بهذه السرعة .. كيف ملأت كل مكان .. كيف دفعت ثمن الشهرة والمجد ..

بالقيود .. بالعذاب .. بالعرق .. بالهوان .. إن مارلين مونرو ماتت مختنقة .. فقد حبسوها فى خزانة من ذهب .. وجعلوا طريقها مصنوعا من البلاتين ومرشوشا بالماس .. ولكنه طريق خانق .. ضيق ليس فيه هواء .. كل الذين يتنفسون فى حياتها هم جماعة من الوحوش .. من تجار لحوم البشر .. لهم أسماء مهذبة هى : المنتج والمخرج والمصور ومدير الدعاية ..

تأكل بحساب .. وتشرب بحساب .. وهى لاتذوق الخمر ولاتدخن .. فقد تعلمت فى ملجأ الأيتام أن تقسم كل صباح : ألا أشرب الخمر وألا أذكر اسم الرب عند المعصية .. وظلت طول حياتها تحس أن الخمر والسجاير معصية .. وكان لابد أن يجىء إليها ثلاثة أو أربعة ليقوموا بتدليكها .. ولابد أن تشرب العصير البارد كل يوم .. وأن تدخل الحمام الساخن ساعات وساعات .. وألا تتحدث إلى إنسان إلا بإذن من مدير الدعاية ، وألا تنزل إلى الشارع ليلتقط لها أى إنسان أية صورة ..

وكانت لاتستطيع أن تمشى فى الشارع .. ولا أن تجلس مع الناس .. إنها تمشى وتتحرك وتأكل وتشرب وتنام وتتطهر بحساب .. وهناك حبوب

للأكل .. وحبوب للشراب .. وحبوب للنوم .. وحبوب للسهر .. وحبوب للسرور .. وحبوب للتفكير .. وحبوب للإثارة .. وحبوب كلها ملونة .. كلها جافة فى زجاجات شفافة باردة جامدة .. تماما كحياتها .. حبوب .. حبوب !

إن فرانكشتين هذا الإنسان المخيف الضخم .. بطل القصة المشهورة بهذا الاسم ، كان يتعذب لأن الناس يخافون من بشاعة وجهة .. مع أنه ليس مسئولا عن شكله ــ تماما كمارلين مونرو ــ وكانوا يهربون منه .. يفتحون أفواههم ويصرخون عند رؤيته ــ تماما كمارلين مونرو ــ وكان هذا الإنسان المخيف المفزع يتمنى أن يرى الابتسامة الصافية على وجوه الناس .. يتمنى أن يجد إنسانا يعطيه بعض الدفء .. القليل من الثقة .. والرغبة فى صداقته دون أن ينظر إلى وجهه .. إن هذا الإنسان المخيف فرانكشتين رأى طفلا على صدر أمه .. وما كاد الطفل يبتسم له حتى تطلعت الأم إلى وجه فرانكشتين وألقت بطفلها على الأرض وهربت ..

إن مارلين مونرو كانت تخيف الناس .. وكانت تحلم برؤية الوجوه الهادئة الطيبة ، وبالكلام الرزين .. والأمان .. والراحة ولكنها لم تجد إلا أناسا .. لهم أنياب وأظافر .. يصرخون عند رؤيتها ..

فعاشت هاربة من هوليود .. هاربة من الناس .. لاحياة لها بغير وحوش هوليود .. ولا حياة لوحوش هوليود بغير الناس .

وزاد أرقها وقلقها .. وعاودها الخوف القديم .. والأحلام المفزعة ..

فهى مرعوبة مع الناس ، ومرعوبة من الناس ، ومرعوبة من وحدتها .. من نفسها والفرصة الوحيدة التى تحس بها بالأمان هى عندما تلقى بنفسها فى أحضان البانيو الدافئ المعطر .. إنها تمضى ساعات وساعات .. وتنسى كل مواعيدها .. وتملأ البانيو ثم تفرغه .. وتفرغ فيه زجاجات من العطر .. إن مارلين مونرو تروى لموريس زولتوف الذى ألف كتابا عن حياتها فى ٤٠٠

صفحة كيف أنها أمضت خمس ساعات فى الحمام الساخن ونسيت كل شىء فى الدنيا ..

ولما سألها عن السبب قالت : ليست مارلين مونرو التى تستحم وإنما نورما بيكر تلك الفتاة اليتيمة . التى لم يكن ينتظرها أحد ولا يريدها أحد .. إنها متعتى أن أبقى هكذا والناس ينتظروننى ويحسبون غيابى بالساعات والشيكات !

وتحكى له أيضا أنها فى كثير من الأحيان تحس وهى جالسة إلى المائدة أن كل هذا الطعام الفخم الذى أمامها لاتستطيع أن تذوقه ، فالطبيب يمنعها والمخرج يبحلق لها .. والمنتج يسعل فى منديله . وكلهم يشيرون إليها ألا تأكل ، حتى لاتمرض ، وحتى لايتعطل تصوير الفيلم .. ولكنها تشعر بأن نورما بيكر المسكينة كانت محرومة من هذا الطعام ..

وتمد يدها ، وتأكل وتشرب فى صحة نورما بيكر .. !

وعندما حاولت أن أقابل مارلين مونرو فى هوليود سألونى عن الذى أريده منها .. والذى أريده منها معروف .. سؤال منى وجواب منها .. أو سؤال منى وليس من الضرورى أن تجيب .. ولكن يكفى أن أراها .. أن أتحقق من أن لون بشرتها ذلك اللبن المخلوط بالنبيذ .. أن لون عينيها قطعة من السماء فوق جزر هاواى .. أن أسنانها من العاج .. أن ابتسامتها من إخراجها هى ، وأنها هى التى تكتب سيناريو شفتيها ونهديها .. وأن دلالها ليس من تلقين أحد ..

وعندما طلبت أن أصورها أيضا .. قيل لى إن تصويرها أصعب جدا من رؤيتها .. التفكير فى رؤيتها أصعب جدا من تصويرها .. وأنه من الأفضل أن أكتب الأسئلة ، وهم يبعثون لى الأجوبة ومعها كل الصور .. وقبلة خاصة من مارلين مونرو .. وسيلاحظ مدير أعمالها أن تكون القبلة هى أول قبلة لها يوم ١٧ من يناير سنة ١٩٦٠ .. وكان حديثنا يوم ١٧ من ديسمبر سنة ١٩٥٩ !

والذى تفعله مارلين مونرو فى الحمام الدافئ المعطر ، تفعله أمام المرآة وهى تسوى شعرها ، على عشرين فورمة .. وهى تختار قمصانها .. وأحذيتها .. وجواربها وفساتينها .. وهى لاتضع الحلقان فى أذنها .. فقد كانت تحلم بأن رجلا طويلا كان يمسك الحلق ويلفه حول رقبتها ويخنقها .

وتمضى الساعات بين « لطيم » و « عديد » المنتج ، ولكن مارلين مونرو مشغولة بنفسها ..

وفى فيلمها الأخير الذى لم يتم تصويره والذى أخذت فيه ١٢ لقطة أى حوالى سبع دقائق ونصف دقيقة .. قرر المنتج العدول عن التصوير نهائيا .. بعد أن خسرت الشركة ثلاثة أرباع مليون دولار بسبب حمامات ومرايا مارلين مونرو .. ولكن مارلين مونرو قررت أن تعوض الشركة عن هذه الخسارة فظهرت عارية تماما والتقطت لها الصورة النادرة .

وتنازلت الشركة عن طلب التعويض .. وعادت مارلين مونرو .. إلى فراشها تتقلب من الأرق ..

ولا يدق جرس التليفون .. فكل الناس يخافون إزعاجها .. وكل الناس يخافون منها ويخافون عليها .. وهى تخاف من الناس .. وتخاف من إغضابهم ، وتخاف على مجدها وشهرتها ..

خوف تعيش فيه ، وخوف تعيش منه .. تماما كأنها أقبح امرأة فى العالم .. كأنها أكبر مجرم فى أمريكا ..

ومضت مارلين مونرو فى وحدتها إلى القمة ..

وكل سكان القمم مساكين .. يعيشون فى وحدة وهم بعيدون عن الناس .. ويتمنون لو يعيشون بين الناس .. ولكنهم يخافون على مقاعدهم فى

القمة .. وعلى هالات القمة .. ولذلك يفضلون القمة ، مع أنها مكان ضيق . وكل القمم ضيقة باردة ..

وكل سكان القمم يموتون من البرودة العالية ..

وإذا نزلوا إلى الناس ، فإنهم يسقطون .. ينتحرون .. ولذلك فمارلين مونرو لن تكون آخر من يعيش فوق القمة .. وتخاف أن تموت فوقها .. فهى تريد القمة وتلعنها .. وهى تعيش فيها وتتمسك بها وتشكو منها ..

لقد ماتت أحلى موتة .. ماتت كما يقول الفيلسوف سارتر كموت الذباب فى العسل .. فالذباب يحب العسل ، ويريد أن يهرب منه .. ولكنه يموت فى نعش وقبر من عسل .. ماتت كما عاشت .. كما ولدت : عارية وحيدة .

إن رجلا فى التاريخ لم يرتفع كما ارتفع جاجارين .. إنه كان يتحرك على ارتفاع مئات الكيلو مترات ، وبسرعة لم يعرفها إنسان . لكن جاجارين كان مقيدا .. كان مربوطا بالحبال والسلاسل والأسلاك ، كانت أنفاسه محسوبة ، وحبات عرقه معدودة ، ودقات قلبه مفضوحة لكل الناس .. وكان يتنفس فى صندوق ضيق من الحديد .. مع أن الهواء حوله كان لانهائيا ، لقد كان مخنوقا فى سجن مليء بالعيون الحمراء والخضراء .. وكان محاصرا بأصوات صارخة .. وصفارات مدوية .. وكان وحيدا ..

وكذلك مارلين مونرو .. وكل مارلين مونرو .. وكل جاجارين فى العلم والأدب والفن والسياسة ..

بالقيود يرتفعون .. فإذا ارتفعوا تمسكوا بالقمة ، وشكوا منها ، وبكوا فوقها وحدهم وتمنوا لو ماتوا هناك .. فوق القمم العالية الباردة الموحشة .

إن مارلين مونرو أو نورما بيكر عندما كانت صغيرة فى الملجأ اشتركت فى لعبة يقوم بها الأطفال كل صباح .. لقد كان الأطفال يرتدون الملابس

السوداء وتحتها الملابس البيضاء .. ويقفون على شكل صليب .. فإذا دق الجرس خلع الأطفال ملابسهم السوداء ، ليتكون منها صليب أبيض .

ودق الجرس ، ولكن نورما بيكر كانت تنظر إلى السماء الصافية ، وراء عصفور صغير .. ولم تسمع الجرس .. وخلع الأطفال ملابسهم .. وكانت هى البقعة السوداء فى الصليب الأبيض .. !

وجاء النوم ومسح البقعة السوداء ! ..

وجاء الموت ومسح النوم !

أشوفك عسكرى !

تنبأ لى أحد أقاربى ، وأنا تلميذ صغير أننى سأكون من رجال المرور .. وأن والدى لا بد أن يحقق لى هذه النبوءة فقد لاحظ قريبى أننى أحب الوقوف إلى جوار عساكر المرور وألتقط أرقام السيارات .. وأقول مثلا : ٣٣ بحيرة .. أو ٨٧ دقهلية .. أو ٩٠ اسكندرية !

ولا أعرف كيف أن هذه الملحوظة قد شغلت أسرتنا الصغيرة ، وأنهم بدأوا يناقشونها فعلا .. كيف أكون أحد عساكر المرور .. أو أحد كونستبلات المرور وبعضهم بلغت به الجرأة درجة أن تنبأ لى بأننى سأكون أحد ضباط المرور .. ولم أفهم وأنا صغير سر هذه الترقية السريعة من عسكرى إلى كونستابل إلى ضباط مرور ، وربما كان السبب هو أننى ظللت جالسا طول الوقت فى أدب أو فى حالة استسلام .. ولا بد أن قريبى قد رق لحالى .. وأنه كافأنى على أخلاق الطيبة بهذه الترقية الاستثنائية .. خصوصا عندما قارن بين أخلاق أولاده وأخلاق .. فأولاده الصغار كل يوم يحملون له عددا من المشاكل لا نهاية لها .. فهم يتشاجرون مع العساكر .. ولولا أنه صديق شخصى لضابط النقطة لكانت كارثة .. ولذلك فهو يرى أننى الطفل المثالى .. المؤدب الذى يخجل من النظر إلى وجوه الناس .. والذى لا يحشر نفسه فى مجالس الستات .. يكفى أن تدخل أية سيدة بيتنا لكى أخفى رأسى بين أقدام الناس ، وأخرج وقد انتقل اللون الأحمر الصناعى من شفاه السيدات إلى لون أحمر طبيعى فى وجهى .

ولم أفهم فى ذلك الوقت لماذا اختاروا لى هذه المهنة .. لماذا إختاروا أن أكون من رجال المرور .. هل لأنى أهتم بالسيارات . وبالنظر إلى ماركاتها .. لماذا لم يختاروا لى وظيفة ضابط بحرى مثلا مع أننى أهتم بالمراكب . وأهتم بالنظر إلى المراكبية .. ولم أجد تفسيرا لدهشتى من حياة المراكبية ومن العبارات التى يقولونها وهم يسحبون المراكب الشراعية إلى الشاطئ .. ومع أننى قد اشتركت كثيرا فى شد الحبال معهم .. وفى إحدى المرات تمزقت ملابسى .. وعدلت عن هذه الهواية بعد أن ضربتنى أمى ضربا مؤلما .

وقد لاحظت فى ذلك الوقت أن هناك أطفالا كثيرين يهتمون بالسيارة وبانطلاقها وبالصوت الذى تحدثه عندما تقف وعندما تبدأ فى السير وبأشكالها وألوانها ..

وعرفت بعد ذلك أن كل الذين لا يملكون سيارات هم أكثر الناس اهتماما بها وبالتحدث عنها وبالمقارنة بين ألوانها وأشكالها .. ثم حفظ أسماء الذين يملكونها .. ثم بالسخرية من العبارات المكتوبة على جوانب السيارات .

وكل ما فهمته فى ذلك الوقت هو أن وقوفى إلى جوار أكشاك المرور ومراقبة السيارات هو الذى جعل قريبى هذا يحرص على تحقيق هذه النبوءة ، فأكون أحد رجال المرور .

ولكن قريبى هذا قد لاحظ شيئا هاما بالنسبة لى . ولكن تفسيره هو الذى كان خاطئا .. فأنا لا أزال أحب السيارات والقطارات والطائرات .. لا لأننى لا أملك سيارة . ولم يكن من آمالى أن أملك سيارة .

ولكن انطلاق السيارة .. حركة السيارة .. سرعتها .. المجهول الذى تجىء منه ، والمجهول الذى تذهب إليه .. صوت الموتور .. وكأنه عقل يفكر ويفكر فى صعوبة .. كل ذلك جعلنى أحبها .

ولا يزال صوت القطار يثيرنى ويصيبنى بشىء من الخدر .. نوع من النشوة .
ولا أذكر كم كنت سعيدا عندما عرفت أن الموسيقار الروسى « بورودين » كان يذهب إلى محطة السكة الحديد ليسمع صوت القطار ويسجل القطارات الخارجة والقادمة من محطة موسكو .. وكيف أنه كان يعرف أسماء السائقين .. وكيف أنه كان يعرف الركاب .. وكيف أن عقله كان يغلى .. وأفكاره تنطلق من رأسه ، كما ينطلق الشرر من فرن القطار ..

كنت سعيدا لأن هذا بالضبط ما أشعر به ..

إن شكل القطار وهو جالس فوق عجلاته .. وقد استند على الحديد والصلب والبخار يتصاعد من مدخنته فى كبرياء .. إنه لمنظر رائع فعلا .. كأنه رجل حكيم يفكر على مهل .. رجل فيلسوف مظهره لا يدل على حقيقته .. إن مظهره هادئ ولكن النار والشرر فى أعماقه ..

وهذا الحكيم له خطة .. له برنامج .. له طريق مدروس .. له شريط حديد يمشى عليه .. والطريق له أول وله آخر .. وله مواعيد محددة .. إنه رجل يعرف أين يذهب ومتى يذهب وكيف يذهب ولماذا يذهب .. ويعرف بالضبط معناه ورسالته فى الحياة .. وأنه مفيد لكل الناس .. وأنه لا يفرق بين الغنى والفقير .. وبين المريض والسليم .. وبين الرجل والمرأة والحيوان .. كلهم ينقلهم إلى نفس المكان وبنفس السرعة .. كل الناس أولاده أو أحفاده .. كلهم يمشون وراءه .. كلهم ينامون فى داخله .. ولا يغضب لمن يلعنه ، ولا يسعد بمن يصلى من أجله .. والقطار يعلم أن أحدا لن يذكره بخير ، إذا جاء فى موعده .. ولو ظل يجىء فى موعده ألف سنة .. ولكن عندما يتأخر ولو مرة واحدة لأى سبب مهما كان هذا السبب فإن الناس يثورون عليه ، ويلعنونه ويترحمون على أيام العربات الكارو التى تجرها الحمير .. ثم يترحمون على الأيام التى كان الناس لا يحتاجون

فيها إلى حمار أو قطار .. أيام كان الناس يركبون المراكب الصغيرة فى الأنهار والبحار.. ثم يحلمون بعصر الطائرات التى يركبها عدد قليل من الناس.. وتنطلق فوق رءوس الناس .. فى السماء بلا ضوضاء ولا دخان ولا موقف فى كل محطة لسبب أو لغير سبب ..

ومنظر الناس على رصيف المحطة يسعدنى .. كل واحد فى يده حقيبة .. كل واحد يقف فى انتباه أو يمشى فى قلق .. كل الناس مهتمون بشىء واحد ، هذا الشىء هو القطار التى سيجىء ويقضى على كل هذا القلق وعلى هذا الفزع .. إن القطار وحده هو الذى يريح هؤلاء الناس من همومهم .. إنه يسلبهم التركيز ، ثم يعطيهم السرحان .. يعطيهم الرغبة فى النوم .. ثم يجعلهم ينامون .. إنه يريحهم من أن يكونوا مهتمين مهمومين..

والقطار يشبه الزمن .. يشبه العمر.. فكلنا نعيش فى وقت واحد .. ولا أحد يعرف متى تجىء المحطة التالية .. متى ينزل .. ولا أين ينزل .. بعد أن ينزل من القطار.. يمضى القطار بالناس .. لا يتوقف لأن واحدا قد نزل .. مهما كان هذا الواحد طيبا أو شريرا .. شابا أو عجوزا .. سواء ركب القطار لأول مرة أو للمرة العشرين ..

ولكن شعورى بالنسبة للسيارات كان أعمق ..

فكنت أرى السيارات أكثر ارستقراطية .. فالذين يركبونها عددهم قليل جدا .. على عكس القطار.. يركبه الألوف .. وأحيانا كنت أرى شخصا واحدا يركب السيارة .. وينطلق بها دون أن يقف عند أكشاك المرور .. دون أن ينظر إلى عسكرى المرور .. وأحيانا كنت أراه ينظر إلى الناحية الأخرى .. ولكن الذى كان يحيرنى جدا ولا أجد له تفسيرا أبدا هو أننى رأيت سيدة تقود سيارة وحدها .. فى ذلك اليوم أصابنى السرحان ولم أنم طول الليل . وكنت أحلم بأننى

أجلس فى المقعد الخلفى من هذه السيارة .. وأحلم بأننى وقعت تحت عجلاتها .. وأن هذه السيدة توقفت فجأة ، وحملتنى من تحت العجلات ووضعتنى إلى جوارها .. وكنت أرتجف وأنا أحلم بأنها وضعتنى على صدرها ، وأننى وأنا نائم على صدرها أبكى وأنظر إلى الأمام .. ثم أمد يدى إلى عجلة القيادة وأقود السيارة .. وأنا خائف من أن تكتشف هذه السيدة أننى لم أصب بشىء.. وأن وقوعى تحت عجلات السيارة كان بقصد إيقافها . وإثارة انتباهها فقط ..

وكنت أشعر بأن القطار شعبى جدا ، وأن السيارة ارستقراطية .

وعرفت فيما بعد وأنا أقلب فى جوانب نفسى عن الأسباب الحقيقية التى جعلتنى أهتم بهذه السيارات والقطارات . إن سر هذا الاهتمام يرجع إلى حالتى النفسية ، التى هى صورة لحالتى الاجتماعية ..

فنى ذلك الوقت ، وانا فى السادسة من عمرى ، كنت تلميذا فى أحد « الكتاتيب » .. وكنت ألاحظ أن بيتنا مكهرب فأمى دائمة البكاء وأبى كان دائم السكوت .. ولاحظت أن أمى تربط العفش ليلا فإذا طلع النهار عادت فحلت الحبال والخيوط . ووضعت الساعة على الحائط ، ثم وضعت السرير فى مكانه .. ولكنها كانت لا تخرج الأطباق والسكاكين من الصندوق الخشبى الملتصق بالحائط كأنه نعش ..

وكان جو البيت حزينا كئيبا . ولم يكن أحد يشرح لى فى هذه السن : لماذا نحن دون كل الناس فى حزن دائم ومسافرون باستمرار ، لماذا كل الناس لهم بيوت ولهم أرض ونحن لا بيت لنا ولا أرض ولا يزورنا أحد من الناس .. كل الناس أناديهم بعمى وخالتى . مع أن أحدا منهم لا يمت لى بصلة ، لا هو قريب لأبى ولا هو قريب لأمى . لماذا يفسر كل هؤلاء الزوار نظراتى على أننى أريد منهم قرشا أو لقمة عيش أو قرصة فى خدى أو لمسة على شعرى ، لماذا كل سيدة

تزورنا وقت الغذاء أو وقت العشاء تجلس معنا بعض الوقت ثم تعتذر على الزيارة ، ولا تمضى دقائق حتى تبعث أحد أولادها بشيء ترفضه أمى على الفور ، وفى مرة حاولت أن أمنع أمى فضربتنى . مع أننى لا أعرف ما الذى تبعث به هذه السيدة وكل سيدة أخرى .. وفى مرة أخرى استدرجتنى هذه السيدة إلى بيتها ، وعرفت أن الذى تبعث به إلى بيتنا هو قطعة لحم أو طبق ملوخية أو بعض الفاكهة ، ولم أفهم فى ذلك الوقت العلاقة بين زيارتها لنا وبين هذا الطعام الذى تبعث به ، ولم أعرف الصلة بين دموعى وبين ما يعطيه الناس لى .

ولكن شعورى فى ذلك الوقت هو أننى معلق فى الهواء .. معلق بين الأرض والسماء .. إننى لا أرى هذا الخيط الذى أتعلق فيه .. ولا أعرف لماذا أشعر بهذا الخيط حول رقبتى ، ولماذا حول لسانى .. ولماذا يلتف هذا الخيط حول العفش القليل فى بيتنا ولماذا هو يخنقنا كلنا . يخنق أمى بالدموع . ويخنق الكلام على لسان أبى .. وفى ذلك الوقت شعرت شعورا عميقا أننا عاجزون عن الحركة .. عاجزون عن البقاء .. عاجزون عن السير .. عاجزون عن الحياة .. مع أن كل الناس أحياء .. كل الناس يضحكون والفرق بيننا وبين كل الناس أننى أستطيع أن أجدهم فى أى وقت .. وأن أتحدث إليهم فى أى وقت .. وأن أطفالهم يأكلون طول الوقت .. كنت أندهش جدا للطعام الذى لا يختفى أبدا من أيدى الأطفال دون أن تضربهم أمهاتهم .. وكنت أرى الأطفال يلعبون فى الطين ثم ينزعون ملابسهم ولا أحد يضربهم عندما يعودون إلى البيت ، بل إننى ألقيت الطين مرة على طفل صغير خرج من بيته بجلباب أبيض جدا ، لم أستطع أن أفتح عينى فيه كأنه قرص الشمس .. ولم يبك الطفل .. وعندما ذهبت معه إلى البيت وقفت بعيدا استعدادا للهرب إذا شكانى إلى أمه .. ولم يشكنى إلى أمه ، ولا أمه ضربته .

وكل شيء كان يؤكد لى ويغوص فى أعماق ، أننى شيء آخر .. وأننى مختلف عن بقية الأطفال .. وأننى فى حالة أسوأ وأننا جميعا فى مستوى أقل من كل الناس ..

ولاحظت أن الفارق الوحيد بينى وبين الأطفال الآخرين هو أننى إذا ذهبت إلى بيوتهم وجدت كل شيء فى مكانه .. السرير فى مكانه ، والزير فى مكانه .. والوابور فى مكانه .. وكنت أذهب إلى بيوت الأطفال، لكى أفتش عن أماكن الأشياء .. فأجدها فى نفس المكان ..

وأذكر أننى مرة جلست مع أبى وكان فى غرفته أناس كثيرون . وسمعنى أحد الحاضرين وأنا أقول : الزير وراء الباب .. والطبلية فى وسط الأوضة .. والسرير لونه أحمر ، وتحت السرير توجد سلة فيها بيض .. وإلى جوار السلة توجد صفيحة فيها سمنة ..

وقال الرجل وهو يداعبنى : أنت تنفع عسكرى ، وقال واحد آخر وهو يضحك : أو ينفع حرامى ..

ولاحظت أن والدى لم تعجبه هذه النكتة .. وحزنت وبكيت .. وتذكرت القروش التى كنت آخذها من الناس .. وتذكرت أننى لم أكن آخذها وإنما هم الذين يعطونها لى .. وتذكرت القماشة السوداء التى كانت تلف فيها جارتنا الطعام الذى تبعث به إلينا .. وشعرت بالقرف والاحتقار لنفسى .. وفكرت فى الانتحار .. ولم أكن أعرف كلمة الانتحار هذه ولا سمعتها ..

وشغلتنى هذه الفكرة .. وقررت أن أرمى نفسى فى النيل .. وقررت أن أختنق نفسى بنفسى .. وحاولت وضغطت على عنقى .. وشعرت بألم شديد وعدلت عن هذه المحاولة .. وقررت أن أهرب ..

وفى كل مرة أحاول الهرب .. كنت أقف على الطريق الزراعى طول النهار .. فإذا جاء الليل كنت أخاف من الظلام .. وفى إحدى المرات استوقفت سيارة .. ووقفت .. وقبل أن أنطق بكلمة أعطانى السائق علبة من الصفيح وطلب منى أن أملأها ماء من النيل .. وملأت العلبة وأعطيته العلبة ووقفت إلى جواره أتفرج على موتور السيارة وهو ساخن يغلى . وأعطانى الرجل قطعة من حلاوة المولد . ثم انطلقت السيارة ووضعت الحلوى فى فمى دون تفكير ، ثم بصقتها .. كأننى أبصق كل شىء أعطاه الناس لى .

وكنت أشعر شعورا عميقا ، شعورا لا أعرف التعبير عنه ، أن السيارة هى أعظم شىء فى الدنيا .. فعن طريقها يهرب الإنسان من الناس .. يهرب الإنسان من نظرات الناس ومن أيدى الناس .. يهرب الإنسان من المقارنة المستمرة بينه وبينهم .. بين بيوتهم التى يملكونها وبيتنا الذى لا نملكه ، بين ملابسهم التى مهما اتسخت فلن يضربهم أحد وبين ملابسى التى لا أستطيع أن ألبسها طول الوقت ، بين أعمامهم وأخوالهم الحقيقيين وبين الأعمام والأخوال والخالات الذين لا أعرفهم ولا تربطنى بهم إلا صلة واحدة هى أنهم لا يكادون يروننى حتى يضعوا أيديهم فى جيوبهم .. لماذا .

السيارة هى الوسيلة الوحيدة للخلاص من الألم .. من العذاب الذى أحس به ولا أعرف كيف أعبر عنه .. ولا أعرف كيف ألقنه لأحد من الناس .. ولذلك كنت أقف فى طريق السيارات وأقف إلى جوار عسكرى المرور .. وأقول بملء فمى شيئا آخر غير الذى أشعر به .. كنت أقول : سيارة ملاكى غربية .. سيارة أجرة دقهلية .. نقل عموم القطر ..

هذا ما أقوله ، ولكن الذى أريده هو شىء آخر ..

وتعودت بعد ذلك أن أقف على رصيف السكة الحديد .. وأنظر إلى الناس

بمرارة .. أو بحسرة صادرة من أعماق شعورى بأنى عاجز عن أن أكون مثلهم .. عاجز عن السفر .. عاجز عن الحركة ، عاجز عن معرفة هدفهم ، عاجز عن أن أكون من رجال لا يضعون أيديهم فى جيوبهم . أو سيدات لا تلتف الأقمشة السوداء حول أيديهم ..

وأشكر الله أن أمى رفضت بإصرار غير مفهوم أن أكون من رجال المرور .. وربما كان السبب هو أن لها قريبا من رجال المرور وأنه يضرب زوجته .. وأنه يضرب أمه أيضا .

وأشكر الله أيضا أن قريبى هذا لم يعرف أننى من أشد الناس حبا للقطارات ومحطة السكك الحديدية وإلا لكان قد تنبأ لى بأن أكون بائعا للبيض والسميط .

الإنسان حيوان ممل

صرخة ملل ! ؟

بماذا تصف الطفل الذى ينحنى على الأرض فجأة ويلتقط شيئا يخفيه فى جيبه ، ثم يتجه إليك برىء اليدين وإن كان البريق فى عينيه ، والاهتمام فى وجهه ، والحرص فى أصابعه ، يفضح سعادته بالكنز الذى عثر عليه ، ولو بحثت أنت عن مصدر هذه السعادة لوجدتها ظلطة ملونة !

الوصف الوحيد لهذه الحالة : أن الطفل لا يعرف الملل ! !

ولم يكن هذا الطفل فى حاجة إلى أن يخفى عنك هذه الظلطة لأنه هو لا يعرف قيمة انعدام الملل ، ولأنك أنت لا يمكن أن تراها ولو رأيتها فلن تجد فيها أى معنى ولا أى وزن .. لأنك أنت تعرف الملل . ولأن الملل مرض يصيب الكبار ، ولا يعرفه الصغار الذين حين يجدون ظلطة ، يحسون كأنهم اكتشفوا « حجر رشيد » المكتوب بكل اللغات .. ويصبح هذا الحجر وبسرعة ، مصدر الصوت والضوء فى حياتهم .. فكل شىء عند الأطفال له وزن ، له قيمة ، له فائدة .. كل شىء مثلهم طفل ، مليان حياة وحماسا .. كل شىء يتحدث إليهم ، ويشغلهم وينشغل بهم .. إنهم لا يعرفون الملل !

ولكن الكبار لا يرون الظلط .. ولو رأوه لداسوه .. كما يدوسون كل المتع الصغيرة ، واللذات العابرة .. لأن عيونهم عاجزة عن رؤيته ، آذانهم قاصرة عن سماعه .. وحياتهم مليئة بالثقوب ، مثل شبكة واسعة الخيوط ، فكل شىء

تلتقطه لكى يسقط منها ، كل شىء مثل كل شىء . لا وزن له ولا قيمة ولا فائدة .. كل شىء كان قريبا ثم أصبح بعيدا .. كل « حجر رشيد » أصبح ظلطة .. مجرد قطعة من الحجر تعترض طريقهم .. حتى هذا الطريق ، لم يعد هؤلاء الكبار يعرفون له معنى أو طعما .. إنهم يعرفون الملل ؟ .

والذى يختار الزواج أو الحياة الزوجية كنموذج للملل الذى يحميه القانون . قد اختار مثلا يعرفه كل الناس ..

وإن كان الزواج ليس هو العلاقة الوحيدة التى تنفرد بالملل ، فهناك علاقات كثيرة مملة .. ولكن الزواج هو أعمق هذه العلاقات ، وأكثرها تنوعا وأكثرها دلالة على أن الأزواج قد كبروا .. قد نضجوا .

ومن النضج والكبر فى السن يولد الملل ..

والكلام عن العلاقات الزوجية ـ كنموذج ـ يبين لنا أسباب الملل فى بقية العلاقات الإنسانية الأخرى ، وهى كثيرة ومتعددة ..

فقبل الزواج يكون كل شىء مبالغا فيه .. إحساسات الزوجين مرتفعة الحرارة ، نظرة الزوجين إلى الدنيا وردية ، الصعوبات التى تعترض طريقهما ليست إلا أكواما من القش تطير من أول نفخة ، أو نفختين ، وأن الزوج نفسه قادر على أن يحل كل مشكلة ، وأن يذيب الحديد والجليد .. وأن الحب صانع المعجزات وأن المرأة هى الحب ، ولذلك فالزوجة هى مصنع المعجزات .

كل هذا قبل الزواج ، وكل هذه المبالغات معناها سوء تقدير للحقيقة .. أى إعطاء الواقع ألوانا وصفات لا وجود لها .. فتصبح الزوجة ـ والزوج أيضا ـ كمحارب نزل بمظلة ومعه خريطة وتعليمات تقول له : ستجد عند قدميك عددا كبيرا من الجنود ، كلهم فى خدمتك وكلهم يعرفون الطريق إلى استحكامات العدو ، يكفى أن يروك ليقوموا لك بكل شىء .. ويهبط الجندى .

ولا يجد أحدا . بل ربما يسقط فى الماء ، أو يسقط فى قلب معسكرات العدو ..

إن الأزواج يتصورون أن وثيقة الزواج هى شيك على بياض يصرف من أى بنك ، فى أى وقت ، أو أنها خطاب توصية لحل كل مشكلة ، أو أنها كلمة « سر الليل » يدخلون بها أى معسكر من معسكرات الحياة ..

وهنا يشعر الأزواج بما يشعر به الجندى الذى سقط من المظلة ، وارتطم بالصخور ، أو قابلته النيران .. بل بشىء آخر أقسى من الصخر .. لقد اصطدم بالواقع المر .. لقد اكتشف أن العملات التى فى جيبه كلها زائفة ..

هذه الصدمة تصيبه بخيبة الأمل لأنه وجد شيئا آخر غير الذى كان يتوقعه .. وخيبة الأمل تصيبه بالفتور .. والفتور يجعله يسىء تقدير كل شىء .. يبالغ فى تفاهة أى شىء .. وبذلك يجد الأزواج أنفسهم محاصرين بين نوعين من المبالغة .. مبالغة فى قيمة كل شىء قبل الزواج .. ومبالغة فى تفاهة كل شىء بعد الزواج !

والمبالغة هى البداية الطبيعية إلى الملل .. لأن المبالغة تجعل كل شىء يفقد قيمته الحقيقية .. فيصاب الأزواج بخيبة الأمل التى يتولد عنها القرف .. والقرف هو الاسم « الحركى » لشخصية خطيرة اسمها : الملل !

وبعد هذه الصدمة يكتشف كلا الزوجين ، أنهما بلا مزايا خاصة .. وأنهما مثل كل الناس .. وأن الحياة الزوجية كأية حياة أخرى .. وأنه لا جديد تحت شمس الحب .

وشىء آخر يكتشفه الأزواج : أن حياتهم متكررة .. كل شىء فيها ثابت لا يتغير .. نفس الوجه ، نفس العبارات ، نفس القعدة . نفس النومة .. بل إن كلا منهما يعرف مقدما ما سيقوله الآخر .. خلاص .. كل واحد منهما حفظ الآخر ، ويستطيع أن يعرف ما سيقوله وما سيفعله دون أن يقترب منه ، ودون

أن يراه .. كل واحد منهما حفظ الآخر على الغايب .. وهم أيضا مصابون فى كل مشاعرهم بخيبة الأمل !

ولكن لماذا يتحمل الأزواج كل أعباء القرف والملل بسبب التكرار ، مع أن فى حياتنا العادية علاقات كثيرة جدا متكررة ، ولا نملها ولا نصدم فيها ، ولاتصيبنا بخيبة الأمل .. فنحن نأكل ونشرب وننام كل يوم .. ونحن نذهب إلى العمل ، ونجلس على نفس المكتب ونلتقى بنفس الوجوه ونعالج نفس المشاكل ، ونكرر نفس الشكوى ، وآمالنا محدودة ، فهى مكررة .. ومع هذا التكرار المستمر لا نشكو من العمل ولا نقرف من الاستمرار فيه ، فلماذا الزواج وحده هو الذى انفرد بالملل لأن كل شىء فيه يتكرر بانتظام ؟

والجواب على ذلك هو المبالغة أيضا فى أهمية وخطورة الزواج والمعجزات التى ستتحقق فيه .

ونحن نمل الشىء الذى يتكرر .. ونمل أيضا الشىء الذى يتغير ..

فالشىء الذى يتكرر باستمرار ، شىء لا يتغير .. إنه حالة ثابتة الوقوع ..

ولكن التغير المستمر يضايقنا أيضا .. ويجعلنا نمل لأن التغير المستمر أصبح عادة ثابتة .. وهذه العادة الثابتة هى أننا فى تغير دائم ..

فالرجل الذى يبيع فى دكان ، يشكو من الحبسة ومن الأرض الضيقة التى يتحرك فيها ، وأنه لا يبرح هذا المكان منذ عشرات السنين .

والطيار والبحار كل منهما يشكو من أنه تعب من اللف والدوران حول الأرض .. من قارة إلى قارة .. وأنه زهق من التغيير المستمر ومن الاهتزاز المستمر ، للهواء تحته أو الماء حواليه .. فقد أصبح التغيير شيئا ثابتا فى حياته .. لقد أصبح منتهى أمل كل منهما أن يستقر .. أن تثبت الأرض تحت قدميه !

إن قصة «الدكتور جيكل ومستر هايد» التى تروى لنا مشكلة أحد العلماء الذى كان يتناول دواء ، فيتحول إلى شخص آخر .. ثم بعد أن ينتهى مفعول الدواء يعود إلى حالته الأولى .. إلى شخصيته الأولى .. إن هذه القصة هى محاولة للقضاء على الملل الذى كان يعانيه أحد العلماء ــ ويعانيه الإنسان العادى أيضا ــ ولكن هذا العالم الكبير ، مل حياته .. مل هذا التغيير المستمر من شخص إلى شخص .. ولو كان هذا العالم قادرا على أن يتحول كل يوم إلى شخص آخر .. لكانت النتيجة أن يمل التغير المستمر ..

وفى هذه القصة رأينا هذا العالم الكبير أصبح يتحول بلا دواء .. وبلا مجهود إلى الشخصية الأخرى .. ورأينا أنه كان يتعذب من هذا التغير لأنه تعب من التغير ، ويريد أن يستقر : أن يثبت على شخصية واحدة .. لقد عرف الملل !

وشهر زاد بطلة ألف ليلة وليلة ، كانت تروى لزوجها الملك شهر يار ، حكاية مثيرة غريبة كل ليلة .. حكاية مليئة بالخرافات والمعجزات .. ومع ذلك ، ورغم هذا التغير المستمر كانت هى التى تتثاءب قبل الملك .. وكان الديك يؤذن لطلوع الفجر ، كأنه كان متواطئا معها .. وكأنه يريد أن يضيف سببا آخر فلكيا إلى السبب النفسى والحقيقى وهو الملل ! .

إذن .. فعدم التغيير يبعث على الملل .. والتغير المستمر يبعث على الملل .

والزوج الذى يواجه فى حياته عدم التغير يشكو من الملل .. والأعزب الذى يواجه فى حياته تغيرا مستمرا ، يشكو من الملل .

فما الذى يجعلنا ــ حقيقة ــ نمل الدنيا كلها ؟ .

إننا فى الحقيقة لا نمل شيئا ، وإنما نحن نمل أنفسنا .. فنحن نحيط أنفسنا بما

يعجبنا فقط .. بما يرضى أذواقنا فقط .. فيصبح كل ما حولنا مرايا لنا .. صورا لنا .. معرضا « مستمرا » للوحات حياتنا ..

وكيف لا تمل أنت حياتك إذا كان كل من حولك يشبهك .. وإذا كنت لا تسمع إلا صداك ، ولا ترى إلا ظلالك ، ولا تشم إلا عرقك ، ولا تأكل إلا لحمك ولا تشرب إلا دمك .. ولا تشكو إلا من نفسك .

لابد أن تعرف الملل .

وهذا بالضبط ما يحدث لكل من يهرب من نفسه إلى شلة من الناس .. من المعارف .. من الأصدقاء .. إنه لاجئ إليهم وهو ككل لاجئ ، يدخل بشروط المجتمع الجديد .. ويتشكل بهم ، ويعتاد عليهم .. ويصبح مشابها لهم ..

والتشابه مع الآخرين ، هو بداية الملل !

إن أى إنسان لا يستطيع أن يكون وحده .. ولكنه فى نفس الوقت لا يستطيع أن يطيق الآخرين .. فهو هارب من نفسه ، وهو هارب من الآخرين .. وهو هارب إليهم أيضا !

ولذلك فالهرب ليس حلا للملل .. هربك من نفسك ، ليس حلا ، وهربك من غيرك ، هو أيضا هرب .. وتبقى المشكلة قائمة .

لقد جرب آلهة الإغريق طريق « التسلل » .. طريق الهرب ..

لقد كان آلهة الإغريق القادرون على كل شيء ، يملون حياتهم فوق الجبال ، كانوا يملون عشرة الآلهة .. كانوا يملون الحياة المقدسة .

ولذلك كانوا يتشكلون فى جلود البشر ، ويدخلون جلود الحيوانات .. ثم يزهقون من الحيوانات .. ويتحولون إلى جبال وأنهار ، ويتحدون مع البشر ضد

الآلهة .. ضد أنفسهم .. ثم يشكون من الحياة التى ليست بها صعوبات ولا مشاكل .. ويبكون للبشر .. إن أحد الآلهة كان يتمنى أن يكون إنسانا لأنه تعب من حياة بلا صعوبات حياة بلا مقاومة .. حتى الآلهة قد زهقوا من التغيير الذى لا نهاية له .. لقد كانوا يحسدون البشر .. مع إنهم هم الذين يخلقونهم .. كانوا يحسدون الإنسان على أنه يعلم أنه ضعيف . وأنه لا بد أن يموت ، وأنه مع ذلك يرفض أن يكون ضعيفا ، وأنه ينشد الخلود .. أنهم الأغنياء الذين يحسدون الفقراء على أنهم ينامون على الأرصفة نوما عميقا ، فى حين أنهم لا يرغبون فى النوم فوق الفراش الوثير .. إنهم القادرون الذين يحسدون الضعفاء .. حتى الآلهة عرفوا الملل ! .

ولكن لا بد من الخروج من دائرة الملل ..

وإذا كان « السرحان » يجعلنا غير قادرين على التركيز ، غير قادرين على أن نحصر كل ما حولنا بأعيننا أو بآذاننا أو بأيدينا ، ونصبح نحن كأننا فى غيبوبة ، أو كأننا على حافة الوجود والعدم ، فإن التركيز والاهتمام وحماس الأطفال هو القادر وحده على تثبيت الدنيا حولنا ، وصبغها فى ألوان الظلط ونقل اللمعان إلى أعيننا ، والسعادة إلى وجوهنا .

والغريب فى أمر الشعور بالملل ، أنه لا يصيبنا وحدنا .. وإنما يصيب الدنيا من حولنا .. فكأن العالم كله سرحان .. الناس قد سرحوا فلم يعودوا يروننا أو يسمعوننا أو يهتمون بنا .. ولم نعد نساوى عندهم شيئا .. وكأن الكرة الأرضية هى الأخرى قد « سرحت » فلم تعد تطبق قوانين الجاذبية علينا ، فلم يعد لنا وزن . أو كأن الشمس أيضا قد نسيت أن تضىء لنا .. أو كأنها أرسلت شعاعاتها إلى كوكب آخر .. كل شىء لا يدرى بنا ، ولا صلة له بنا ، نحن غائبون والدنيا كلها حاضرة .. أو كلنا غائبون عن هذه الدنيا !

الحياة هى الملل !

عندما تضيق وتنفخ ، فليس معنى ذلك أنك مللت وإنما معناه أنك فى حالة من « الزهق » . « والزهق » ليس هو الملل ، وإنما هو إحدى المحطات الاختيارية فى الطريق الطويل العريض الذى اسمه : الملل .

فالذى يمل لا يزهق . وإنما الملل هو أن تزهق من الزهق .. هو أن تنفخ ، لأنك مللت النفخ ، ومللت التأوه .. ومللت اليأس ، ومللت الأمل فى الركود والجمود والبلادة التى فى داخلك ، وفى خارجك .

وأنا شخصيا أكتب كثيرا عن الملل ، فعنى ذلك أنى لم أمل بعد . لأن الذى يمل هو الذى لا يتكلم أيضا ولا يكتب . ولا يجد ما يقوله عن الملل !

وأحسن نموذج للملل هو فيلم « الليل » .. للمخرج العظيم أنطونيونى .. والفيلم رغم روعة إخراجه وتصويره وتمثيله ، لا يهمنى كثيرا ، وإنما الذى يهمنى كثيرا جدا هو القصة .

فكل شىء فى القصة وفى أبطال القصة يؤكد معنى الملل : « أناس فى حالة ملل ، أو ملل على هيئة أناس » ..

وقصة الفيلم ليست فيها حوادث .. فالملل أيضا معناه ألا تكون هناك حوادث ، وإنما يحاول الناس أن تكون لهم حوادث ولكنهم لا يستطيعون ..

فقد ملوا .. ملوا أن يصنعوا الحوادث كل ليلة ، ملوا الهرب من الملل .. لقد ملوا الملل نفسه .

ففى بداية الفيلم مناظر وأحداث مملة . عمارات تبنى وجدران طويلة ناعمة لعمارة واحدة .

وهناك رجل وزوجته فى الطريق إلى أحد المستشفيات . وجه الرجل لم يتغير من أول الفيلم لآخره .. والزوجة وجهها جامد ، ولكن كل شىء يبدو فى وجهها ، وفى عينيها .. كل شىء طعمه مر .. نظراتها ممرورة ، بشرتها صفراء ممرورة ، عيناها فيهما ألم وقرف ويأس .. أما الزوج فهو فى حالة غريبة من فقدان النطق .. إنه لا يتكلم وإذا تكلم فهو لا يقول شيئا . لم يعد عنده ما يقوله .. وإذا وجده فإنه لا يجد الدافع لكى يقوله .. وإذا وجد الدافع ، كان الدافع الوحيد هو ألا يقول شيئا ..

والاثنان يزوران رجلا مريضا ..

والمريض فى فراشه . وهو يتمدد على الفراش سعيد بحقن المورفين .. سعيد بالضوضاء التى تدخل من النافذة .. سعيد لأنه فى اجازة إجبارية .. فالمرض هو الاجازة الوحيدة التى يغتصبها الجسم منا ليستريح .. وهو سعيد لأن المريض هو الإنسان المستريح .. فهو لا يفكر فى أين يذهب هذا المساء ، ولا يفكر فى طعامه ، ولا يفكر فى عمله .

والمريض هو وحده القادر على أن يرى الناس بوضوح ، لأنه بعيد عنهم .

وهذا المريض سعيد بصوت آلات البناء ، وبصوت الطائرات النفاثة والصواريخ .

ويبدو أن هذا المريض هو الآخر أديب ..

فهذا الزائر أديب أيضا . وقد صدر له كتاب جديد فى المكتبات .. ولكن لا تبدو عليه السعادة .

وتخرج الزوجة فى حالة من التأثر الشديد .. وبعدها يخرج الزوج .. وتعترضه إحدى المريضات وتتعلق به بصورة شهوانية عنيفة .. وتنهال عليها الممرضات ضربا .

ويروى الزوج هذه الحادثة لزوجته .. ولا تهتم الزوجة بهذه الحادثة . وإنما تقول : هذه الفتاة سعيدة ، فليس لديها شعور بالمسئولية !

فالمسئولية عبء ثقيل .. تحمله هذه الزوجة كل يوم .. وكل يوم يثقل العبء عليها .. ويسحقها ، وتصبح هى نفسها عبئا .. مجرد عبء .. مجرد « شيلة » .. لا يقوى على حملها أحد .. ولا هى قادرة على أن تحمل نفسها .. لا أحد قادر على أن يحمل نفسه .. فكل إنسان يحاول أن يجد من يرتمى عليه .. من يريحه من نفسه .

وتنتهى الزيارة .. وتبدأ مشكلة كل يوم : أين نسهر هذا المساء ؟ ..

أما الأديب فعنده حفلة أقيمت فى نادى القصة بروما بمناسبة ظهور قصته التى عنوانها : « المشى أثناء النوم » أو « الذين يمشون وهم نيام » .. وتضيع الزوجة فى زحام الذين يحتفلون بزوجها .. وفى هذه الاحتفال الكبير ، لا تتغير ملامح الزوج .. نفس الوجه القرفان الجامد .. وجه الرجل المرغم على الحياة ، المرغم على الصمت ، لأنه لا يجد ما يقوله ، ولا يجد الرغبة فى أن يقول ، أو فى أن يسكت .

وتتسلل الزوجة إلى خارج الحفلة .

وتعود إلى شوارع روما .. الشوارع خالية من الناس .. والسيارات تسد الشوارع .. والنشاط الوحيد الذى يمارسه أبناء العاصمة هو أن يتحركوا بين

السيارات وأن يدافعوا عن أنفسهم ضد سائق السيارات .. وأن يشعروا بالخوف منها ، ويشعروا بالراحة عندما يعبرون الشارع من رصيف إلى رصيف .. فالمشى فى الشوارع هو الفرصة الوحيدة لإثارة الحماس ، وإحياء الغرائز الميتة ، غريزة الدفاع عن النفس والخوف والحياة والموت والاعتداء والكلام .

وفى عدم اكتراث ، وفى فتور شديد ، تتحرك الزوجة إلى حيث يلهو الشبان بالصواريخ .. يطلقونها ويتفرجون عليها وهى تحترق فى طريقها إلى السماء .. ثم تنتقل الزوجة إلى مكان آخر يتضارب فيه الشبان .. إثنان من الشبان ينزعان ملابسهما ويتصارعان .. ويهجم واحد منهما على الآخر ويلقيه على الأرض ويضربه ويضربه ويكاد يقتله .. وزملاؤه من الشبان فى بنطلوناتهم الضيقة .. يقفون يتفرجون ينتظرون النهاية .. أى نهاية .. فهذه النهاية تريحهم من هذا الانتظار السخيف .. فإذا مات واحد منهم ، هزوا أكتافهم ومضوا لافتعال خناقة أخرى .

ولم تكد زوجة الأديب ترى هذا المنظر حتى ثارت .. واندهش الشبان لثورتها .. وتوقفت المعركة .. ولم يتكلم أحد .. ولم يسألها أحد من هى ؟ .. ولم يتساءل أحد عن سبب توقف المعركة .. لا أحد يسأل .. لا أحد يتكلم .. لا أحد يمد يده .. أو يمد رجله .. أو يمد نظره .. فلا شىء يمتد .. فكل الناس كأنهم بلا أطراف .. بلا أيد تمتد ، بلا عيون ترى ، بلا أرجل تمشى .. وإنما هم يزحفون .. أو يتدحرجون .. كأنهم كور .. والناس فعلا كالكور ناعمون متشابهون .. إنهم بلا أطراف .

وتمر الزوجة على بيت قديم .. بيت له ذكريات .. وهناك تجد طفلة صغيرة تبكى .. طفلة صغيرة حلوة مليئة بالحياة وتبكى !

ولكنها أحسن حالا من الزوجة والزوج ومن كل الشبان ! إنها تبكى ، ولها دموع .. ولبكائها صوت .. إنها لم تكبر بعد ، إنها لم تعرف الملل .. لم تعرف

العين الجافة ، واللسان المتحجر . والحياة الميتة .

وفى البيت يكتشف الزوج الذى نام إلى جوار النافذة أن زوجته لم تعد .. ولا يحاول أن يعرف السبب .. ولكن مجرد عادة أن يراها ، وأن يمشى وراءها ، وأن يناديها ، وأن يتجاهلها وينام .. مجرد عادة .

وتطلبه زوجته فى التليفون وتدعوه إلى الفرجة على الصواريخ .

ويذهب الزوج فى سيارته ، وهناك يجد زوجته فى الأماكن القديمة التى كانا يترددان عليها أيام الخطوبة .. وتشير الزوجة إلى قضبان السكك الحديدية فى أسى ويتنبه إلى ما ترمى إليه الزوجة ويقول : فى تلك الأيام كنا نستخدمها .. وكنا نلعب عليها !

ويعودان إلى البيت .. الزوجة تدخل الحمام ، وتلقى بنفسها فى البانيو .. إن الماء وحده هو الذى يطفئ ما بها .. هو وحده الذى يغسل عنها العرق .. يغسل مصدر القرف .. فهى قرفانة كأنها تشم عرق قدميها .. وأقدام كل الناس .. وهى قد ملت رائحة العرق .. وتخرج من الحمام وتنتظر القبلة من زوجها ، تتوقع اللمسة .. ولكن الزوج غارق فى ملله .. غارق فى نفسه .. كأنه سجين فى ملابسه .. وليست ملابسه إلا مللا مصنوعا من القماش !

ويقترح الزوج أن يذهب الاثنان إلى بيت أحد الأثرياء .. وتعترض الزوجة .. واعتراضها ، ككل شىء بلا حماس .. فالزوجة قد ذهبت إلى هذا البيت مع زوجها مرات كثيرة ، وليس هناك تغيير فى الناس أو فى كلام الناس .. إنه ملل فخم .. ولكنه ملل .. فهناك ملل فقير وهناك ملل غنى .. فالملل الفقير هو أن تنظر إلى ورقة مالية واحدة كل يوم ، طول العمر .. أما الملل الغنى ، فهو أن تنظر إلى مليون ورقة مالية كل يوم ، طول حياتك ..

ثم يذهبان إلى أحد الكباريهات .. وتجىء الراقصة الزنجية وتتلوى .. وتنزع

ملابسها .. وترقص .. ويفتعل الزوج السرور والزوجة تؤكد له أنه يمثل السرور ،أنه يفتعل السرور ، أنه يفتعل الارتياح ، وتضحك الزوجة لأول مرة .. وتقول له : إن لديها فكرة .. ويطلب منها الزوج أن تطلعه على فكرتها .. ولكن الزوج غير متمسك بهذا الطلب .. فلا أحد يتمسك بأحد ، ولا أحد يتمسك بشيء .. لأن الناس كلهم .. كلهم بلا أطراف .

وخرجا معا ليذهبا إلى بيت الرجل الغنى ..

إلى حيث يريد الزوج ولاتريد الزوجة.. أو إلى حيث لا يريد الزوج أيضا.

فهناك عشرات من الأغنياء من النساء والرجال يلعبون .. أو يقطعون الليل .. أو يهربون من الملل .. كل واحد قرفان .. الكلام قرف .. الوجوه كاذبة .. أو لا هي كاذبة ولا هى صادقة .. محايدة .. أناس لا يعرفون ماذا يفعلون .. إنه قصر كالمستشفى وكل من فيه مجنون .. أو كالمجنون .

الموسيقى لا تشفيهم .. الخمر لا ترويهم ، اللعب لا يشبعهم ، النوم .. القراءة .. الفلوس .. المغامرات .. الجرى .. أى شىء لا يحقق أى شىء .

الناس يحتفلون بأحد الخيول .. ويشربون ويلقون بأنفسهم فى حمام السباحة بملابسهم .. ومن غير ملابس .. ثم يخرجون ليناموا .. كما ينام المتسولون على الأرصفة .. ينامون كأنهم فقراء ، بلا مأوى .. ينامون عراة ، كأنهم لا يملكون شراء الملابس .

وإحدى الفتيات الجميلات تقرأ فى حزن وأسى قصة «الذين يمشون وهم نيام» . ويراها الأديب ويتحدث إليها ويداعبها ويلاعبها ويقبلها .. ولكنها لا تكترث له ، ولا تحس به .. ولا تريده فلديها هى الأخرى من القصص والقبلات ما يقرفها .. وهى الأخرى تحاول أن تخرج من الملل بالكتابة والتأليف ، ولكنها لا تجد القوة على أن تمضى فى هذا الطريق .. فالملل طريق يبتلع كل الطرق .. فالملل يبتلع كل شىء ، وكل إنسان ، وكل محاولة ، وكل

رغبة وكل أمل وكل يأس .. إنه الأفعى الضخمة الناعمة التي تبتلعنا كل يوم ، وتلقينا من فمها كل يوم ، كل ليلة .. كل لحظة .

وفى حديقة القصر نرى قطة صغيرة تقف فى ذهول أمام أحد التماثيل الملقاة على الأرض .. وهذه القطة تشبه زوجة الأديب التي وقفت تتأمله من بعيد .. ولكنه كأى تمثال لا يدرى بها ..

وفى هذا القصر ، نجد زوجة الأديب تروح وتجىء .. ولا تتكلم ولا تشترك فى أى لهو .. ولا فى أى نشاط .. وكل ما تفعله هو أن تتفرج على زوجها ، وهو ينتقل من قارئة معجبة إلى قارئة عابثة .

ولكنها امرأة .. تريد الكلمة الحلوة ، تريد اللفتة العابرة .. تريد أن تشعر بوجودها .. تريد أن يحدثها عن نفسها .. عن جسمها ، خصوصا عن جسمها ، عن أحب شىء لديها .. فجسمها هو حبيبها الذى يمنحها القوة لكى تسعد الرجل الذى تحبه .

وزوجها مشغول عنها .. أو بعيد عنها .. وفى غياب الزوج .. فى هذه الحفلة ، وفى هذه الحياة كلها .. وجدت الزوجة من يحدثها عن نفسها من يقول لها : أنت ملكة .. أنت جميلة .. أنت بالدنيا .. أنت الدنيا ..

وفى نهاية القصة تعترف الزوجة بأن الأديب المريض فى المستشفى كان يحبها .. كان يعبدها .. كان يعلمها القراءة .. كان يعلمها الصبر على غياب الزوج .. كان يقول لها : أنت .. ومليون مرة أنت .

كان يحدثها عن ذكائها ، وهى تعترف بأنها ليست ذكية كان يحدثها عن جمالها .

فهذا الأديب المريض على عكس الزوج الذى يقول دائما : أنا .. أنا ..

ويعترف الزوج أنه لم يعط زوجته شيئا .. وأنه نسى أن الذى نعطيه للزوجة يعود إلينا .

ولكن الزوجة تصارحه بأن الفكرة التى طرأت على رأسها فى الكباريه هى أنها تريد أن تموت .. لأنها لم تعد تحب زوجها .. أى لم تعد قادرة على أن تعطيه .. فحياة المرأة فى أن تعطى كل شىء للرجل الذى تحبه .. وهى كلما أعطته فإنها تزيد وتكبر وتعيش .. ولكنها لاتستطيع أن تعطى ، إذن فهى لا تستطيع أن تعيش .. ولكنها لا تعرف كيف تموت .

وعلى ذكر الموت تقول الزوجة لزوجها : إن الأديب المريض قد مات فالرجل الذى كان يعطيها قد مات .. إنه لن يعطى بعد اليوم .. وهى لا تستطيع أن تعطى بعد اليوم ، ولذلك تتمنى أن تموت .

ولم يتأثر الزوج بوفاة الأديب المريض .. إن الزوج غارق فى ملله .. فى قرفه .. فلا شىء يهزه .. ولا شىء يثيره .. لا الحياة ولا الموت .. ولا الكلام ولا الصمت .. ولا الزوجة ولا الزواج .. ولا الأدب .. إنه يعلن أنه لن يكتب بعد اليوم شيئا .. وأن مشكلته : هى أن عنده ما يقوله .. عنده الفكرة .. ولكنه لا يعرف كيف يكتبها ..

فكلنا أحياء ، ولكننا لا نعرف كيف نعيش .. لقد أعطينا الحياة ، ولكن كيف نعيشها ؟ .. إن أصحاب الملايين لا يعرفون ماذا يصنعون .. إنهم قادرون ، ولكنهم ملوا هذه القدرة .. ملوا كلمة : نعم .. التى يرددها الناس بمجرد أن يأمروهم ..نعم .. من كل فم .. من كل رجل وكل امرأة .. إن السماء قالت لهم : نعم .. كلمة واحدة من أفواه كل الناس .. نظرة واحدة فى عيون الناس .. ملل .. ملل .. ملل ..

إن أحد أصحاب الملايين يريد أن يثير حماسة عمال المصانع .. فقد لاحظ

فيهم بلادة شديدة .. ويطلب من الأديب أن يتولى إدارة تنشيط وإثارة الحماس ..

وهو لا يعرف أن الأديب فى حاجة إلى من يشعل النار فيه ..

ثم يقترح صاحب المصنع أن يؤلف الأديب كتابا عن المصنع وأصحاب المصنع .. ويغريه بالمال ...

والتقاء الأديب بالمليونير هو التقاء على نفس المستوى.. إنه لقاء الملل والمال .. هذا غنى بالكلام وهذا غنى بالفلوس وكلاهما فى حالة ملل .. وكلاهما فى حاجة إلى الآخر..

ولكن الرجل الغنى أقدر على أن يمد يده .. وعلى أن يجعل الأيدى تمتد له ..

ويمد الرجل الغنى يده .. ولكن لا تمتد له يد الأديب ..

فلا يلتقيان .. كأنهما مقطوعا الأيدى .. وكأن المسافة بينهما ملايين الأميال ..

فكل الناس متباعدون .. رغم أنهم يأكلون معا ويعملون معا .. إنهم معا .. ولكن كل واحد فى نفسه .. فى حاله .. فى قرفه .. فى ملله ..

إنهم معا .. ولكن لا تربطهم إلا صلة واحدة : إنهم ليسوا على صلة بأحد ..

والنهاية كأنها بداية الفيلم ..

فالزوجة تعترف لزوجها بحب الأديب المريض لها .. وتعترف بأنها لا تستطيع أن تكون لزوجها .. لأنها لم تعد تحبه .. ولم تعد تستطيع أن تعطيه شيئا .. ثم تمد يدها إلى حقيبتها وتخرج ورقة وتقرأ فيها سطورا جميلة .. ويسألها زوجها : ومن

الذى كتب هذا الكلام ؟ فتقول له : أنت !

ولكن الزوج نسى ، كما نسى أشياء كثيرة أخرى ..

ويحاول أن يعانقها .. فترفض .. أن يقبلها فترفض .. إن الزوج فى نهاية الفيلم يغتصب زوجته .. وتدور الكاميرا .. وتدور السماء ويطلع الفجر .. وما يزال الناس نائمين فى القصر.. وهناك فتاة تبكى على أحد المقاعد .. كأنها تعترف أمام قسيس . هذا القسيس اسمه الملل .. فالملل إله معبود يصلى له الناس فى المقاهى والكباريهات والنوادى والسجون وميادين القتال ..

فالناس يملون حياتهم العادية ، فيهزونها بعنف .. يهزونها باللذة العنيفة ، أو بالإثارة ، أو بالرياضة ، أو بالجريمة ، أو بالحرب ..

إن الأعمال العنيفة ليست إلا صلوات فى معبد الملل ...

هذه حياتنا : ملل فى ملل .. أناس يمشون وهم نائمون .. يمشون دون أن يدروا ، وينامون دون أن يدروا ، ويقتلون أنفسهم دون أن يدروا .. إنهم ذائخون .. نيام .. نيام .. عراة كأبناء نيام نيام ، حيوانات كأبناء نيام نيام .. يأكلون بعضهم البعض كأبنام نيام نيام ..

ولكن كيف نخرج من الملل ؟ كيف نتغلب عليه ؟ .

إن حوادث الفيلم تؤكد لنا أنه لا أمل .. أو أن الأمل يجىء فى آخر القصة .. بعد فوات الأوان .. وأننا لو وجدنا هذا الأمل ، فإننا نحتاج إلى قوة لكى نمسك به ، وهل يترك الملل لأحد قوة ؟ لا قوة لإنسان ملول .. أو « مملول » إذا صح هذا التعبير .. ولا حياة مع الملل ..

ومع ذلك فالقصة – وهى أروع قصص الموسم وأقلها كلاما – ترى أن الخلاص من الملل هو : الحب ..

أن يحب الزوج زوجته .. وأن يحب بعد ذلك كل شىء .. وأن يكون حبه

بسيطا ..مجرد أن يحب .. وأن يحب بلا عقد ..

والذى يدفعنا إلى الملل هو العنف .. العنف الذى يرهقنا والإرهاق هو أحد تذاكر الدخول إلى دنيا الملل .. ولذلك لابد أن يكون الحب بسيطا لا يرهقنا .. بلا عقد ، ولا عنف !

فالحب البسيط هو المفتاح الصغير لهذا العالم المعقد ، الملفوف فى كيس ناعم اسمه : الملل !

لقد رأيت بطل القصة يعتدى على زوجته بالحب والمرح !

إنه يلجأ إلى العنف لكى يسترد حبه البسيط !

ولكن كيف يعيش الحب البسيط فى ظل الزواج المعقد ؟ ..

فلا شىء يقتل الحب إلا الزواج .. ولا شىء يقتل الزواج إلا التعود .. والتعود هو الأب الشرعى للملل !

فالزواج قاتل للحب ، والتعود قاتل للزواج ، والملل قاتل للجميع !

والقصة نجحت فى عرض الملل ، والكاميرا هى الأخرى كانت كالممثلين بطيئة الحركة .. وكانت حركتها جميلة ، وكانت هى الأخرى تتسكع فى الشوارع والبيوت وفوق السيارات .. كانت مملة .. وهذا ما يريده المخرج !

كل شىء ممل.. حتى خروج الناس أثناء عرض الفيلم ، الواحد وراء الآخر : كان مملا ، كانوا يتحركون فى بلادة وصمت ، كأنهم يمثلون فى نفس الفيلم .. لقد كان التصوير الجميل مملا ، والإخراج الجميل مملا ، والسيناريو الجميل مملا ، والتمثيل الجميل مملا مملا .. وهذا ما أراده المخرج والممثل والمؤلف !

إن انصراف الناس عن الفيلم هو أعظم تحية قدموها للمخرج ..

لقد شعرت أصابعى بالقرف من المقعد الذى أجلس عليه .. وشعرت يدى بالقرف من أصابعى .. وشعرت ملابسى بالقرف منى .. وعندما نهضت من مقعدى شعرت أننى لم أقم وإنما مقعدى هو الذى لفظنى .. أو أن السينما هى التى بصقتنى إلى الشارع الذى كان يشبه لسانا أسود طويلا ، لم أكد اقترب منه حتى رمانى فى سيارة .. والسيارة لفظتنى أمام بيت .. والبيت لم يشعر بى وأنا أصعد سلالمه .. فقد مل هو الآخر منى .. ومن صوتى ومن حذائى ومن مفتاحى .. ملل .. ملل ..

حتى كلامى هذا ممل .. وهذا ما لم أرده .. أو ما أردته !

في دوائـر...

لا يكاد القطار يتحرك ، وتتكرر أصوات العجلات دقيقة وراء دقيقة ، حتى يحس المسافر بأنه لابد أن ينام .

.. وينام فعلا ..

عندما يسند الفلاح ظهره إلى جدار الساقية ، وتدور تروسها ويدوخ الثور الذى يجرها ، وتكرر أناتها ونواحها ، فإنه يمدد رجليه ، ويحس أنه لا بد أن ينام .. وينام .

وسائق السيارة فى الطريق الصحراوى .. كل شىء أمام عينيه متشابه .. لون الرمل .. والشريط الأسود الذى تزحف عليه السيارة ، وأصوات العجلات كل ذلك يجعله يخشى أن يروح فى النوم .. ولذلك يتحايل على أصدقائه حتى يسافر معه واحد منهم .. يتحدث إليه حتى لا ينام .. وكثير من حوادث الطريق الصحراوى سببها أن بعض السائقين ، ناموا .. فكل شىء يدعو إلى النوم ..

ولكن ما هذا الذى يدعو إلى النوم ..

إن تشابه الألوان وتشابه الأصوات .. وتشابه الاهتزازات للجسم .. هذا التشابه يجعلنا نشعر بالملل .. وهذا الشعور بالملل هو نوع من « التمييع » لكل حواسنا .. فتصبح العين وكأنها لا ترى ، والأذن وكأنها لا تسمع ، ونفقد سيطرتنا على حواسنا .

والنوم هو الوسيلة الوحيدة للهرب من هذا الملل .. فالنوم ينقذنا من شعورنا بأن كل شيء أمامنا لا طعم له .. فالعين لا تطيق أن ترى ، وإنها لا تكاد تمتص الألوان حتى تردها ، والأذن لا تكاد الأصوات تلمسها حتى تعيدها الى مكانها .. كل شيء قرفان تماما كالمعدة المريضة ، لا يدخلها الطعام حتى ترجعه .. حتى ترده .. حتى تلقيه إلى الخارج .. إنها لا تريد .. إنها قرفانة .. والنوم هو المنقذ الوحيد من الملل ..

ولكن النوم نوع من الهرب .. النوم إطفاء لكل مشاعرنا ، للعين فلا ترى ، وللأذن فلا تسمع ، وإعفاء للجهاز العصبي من ممارسة كل سلطاته ..

وكل الإحساسات المتشابهة المتكررة مملة ..

الحركة المستمرة على ظهر الباخرة ، تجعل البحار يتمنى لو ينصب مظلة ويجلس على الشاطىء الجامد بلا حركة ولا أمواج ..

الفلاح الذى ينهض من الأرض ليعمل فى الأرض ، ثم ليجلس فوق المصطبة يتمنى لو أن هذه المصطبة تحركت وأصبحت قاطرة أو طائرة .. إنه لا يعرف غيرها فكيف يتمنى شيئا لا يعرفه .. إنه يكره الحياة الرتيبة.. إنه يكره أن يفعل نفس الشيء كل يوم ..

إن كل إنسان يتنهد وينفخ ويلعن عمله وبيته وحياته هو إنسان يعيش فى دوامة من الملل .. إنه يريد أن يهرب من الدوامة ..

والنوم لا يمكن أن يكون إلا حلا مؤقتا .. ولا يمكن أن يكون حلا صحيحا لأزمة الملل ..

ونحن نهرب من الملل .. بالتغيير .. بالخروج عن الدوامة بالقفز من المصطبة إلى الباخرة .. ومن الباخرة إلى المصطبة .

وفى العصر الذى ينادى فيه كل الناس بالسلام والتعايش والأخوة والحب ،

يحرص فيه الناس على الإثارة .. على القصة المثيرة والفيلم المفزع ، وقراءة الجرائم ، والاستعداد للحروب ، وإطلاق الصواريخ ، والتسابق فى الدوران حول الأرض وحول القمر ..

فنحن نبحث عن الشىء المثير ، هربا من الشىء المائع ، من الشىء الذى لا صوت له ولا لون .. هربا من الملل .. .

حتى الدعوة إلى السلام والتعايش والمحبة أصبحت مملة .. ولذلك فنحن ندعو للسلام بعنف ، وندعو للتعايش بالسلاح ، وندعو للمحبة بكل قسوة ..

انظر إلى وجه حكام أمريكا وروسيا ، وإلى أسلحة كل منهما .. وحدثنى عن السلام وعن الحب ..

أين الحب فى الصواريخ عابرة القارات ؟ ..

أين السلام فى القنابل النووية ؟ ..

لابد من التغيير والتبديل فى الدعوة إلى السلام وإلى المحبة حتى لا يمل الناس .. حتى لا يتثاءب الناس ، حتى لا ينام الناس ، حتى لا يهرب الناس من الهتافات المملة ، والنداءات المتكررة ، ويتواروا فى مخابئ بعيدة .. مخابئ ملونة هى الحانات والمواخير !

فالإدمان للخمر والمخدرات هو نوع من الهرب ، هو إكراه للمشاعر على أن تنام بالقوة .. فرارا من الحياة المملة ...

فنحن جميعا نهرب من كل ماهو « يومى » .. من الشىء الذى يحدث « كل يوم » .. يوميا .. فكل ماهو يومى هو روتين .. هو رتيب .. هو صحراوى .. هو صوت عجلات القطار ونواح الساقية ..

ماذا تفعل الزوجة فى البيت ؟ ..

محبوسة فى أربعة جدران .. تنهض من النوم .. تعد الطعام .. تساعد أطفالها على ارتداء ملابسهم .. يخرج الأطفال وتبقى هى فى البيت .. وتظل تعمل .. وتستقبل نفس الوحدة .. وتردد نفس الكلام .. حياة مملة .. مقرفة ..

ولكنها لا بد أن تحرص على هذا العش بأى ثمن .. بأن تضغط على أعصابها .. بأن تضحى .. ولكن إلى متى ؟ إلى أية درجة ؟ .

الزوجة تحاول التبديل والتغيير ..

ولكن الزوج قرفان هو الآخر .. وهذا القرف يجعله متحمسا لأى تغيير أو تبديل .

وتكون الخناقات العائلية .. هذه الخناقات ضرورة .. كانفجار عجلات السيارة فى طريق الصحراء .. كالهبوط الاضطرارى للطائرة .. كخروج القطار عن الشريط .. إنه حادث مؤلم .. ولكن هذا الحادث هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على الملل .. هو التغيير الذى لابد منه .. إنه رغم قسوته أرحم من الملل .. أرحم من الحياة التى تشبه الموت ..

ثم حرص الزوجة على أن يكون لها أولاد ..

فهى بالغريزة أم ، ولكن الملل يحتم عليها أن تأتى بشىء جديد .. بنغمة أخرى جديدة ، باهتمام جديد ، بمشكلة جديدة ، تؤدى إلى تغيير وتبديل فى هذه الحياة اليومية ..

فإذا أتت الزوجة بطفل ثان وثالث .. أصبح الإتيان بالأطفال شيئا مملا فتتوقف عن هذه الحركة المملة ، عن هذه المشاكل المتشابهة .. وتعود مرة أخرى إلى حياتها العادية .. بعد أن اتسعت دائرة حياتها .. اتسعت وتشابهت .. وأصبحت مملة ولكن على شكل أوسع ..

فنحن نخاف من الملل .. ونهرب منه بالتغيير .. ثم نعتاد على التغيير ونمله ..

نحن كالتلميذ الذى يهرب من المدرسة ، فيتسلق سور المدرسة .. ويخرج إلى مجال أوسع .. أمامه كل شىء .. يستطيع أن يذهب إلى السينما .. إلى الحديقة .. أن يمشى فى الشارع .. ومع ذلك نراه يدور حول المدرسة .. ويمل هذا الدوران .. ثم إذا هو يتسلق السور ليعود إلى المدرسة .. فلا يكاد يراه أحد المدرسين .. حتى يهرب مرة أخرى .. ويدور حول المدرسة ..

فنحن نتحرك فى دوائر .. كل يوم .. نفس الشىء .. نفس العمل .. نفس المشاكل .. ونمل هذا كله .. ثم نخرج عليه .. ونعود إليه وهكذا ..

ومن ملل إلى ملل أكبر .. فنحن لا نستطيع أن نخرج من جلودنا ، ولا أن نخرج من علاقاتنا ، ولا من هذا العالم .. فنحن نغير اهتماماتنا التى تشبه الملابس التى نرتديها .. ونجعلها ضيقة ونجعلها واسعة .. ونلونها ونجددها .. ولكن نرتدى الملابس دائما .. نرتديها ونلعنها .. وندافع عنها ونهرب منها .

إن نوح عليه السلام عندما قال لابنه : يا بنى ، اركب معنا .. وقال له الابن : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ..

لابد أن هذا الابن كان يشكو الملل .. يشكو الحياة المتشابهة مع أبيه .. وقد لا يجد الابن جبلا يحميه من الماء ، ولكنه فضل الموت الذى يختاره ، على الملل الذى يقتله ..

الحـريـة والسـرعة
والـمـلل !

ألف ليلة وليلة تحكى لنا عن الصياد الذى مد يده إلى الشبكة فوجد بها زجاجة مقفلة ، ولما فتحها خرج منها عفريت .. واعترف العفريت بأنه كان محبوسا فى قاع البحر ، من ألوف السنين .

وفى العصر الحديث وقف ثلاثة من الصيادين ووجد كل واحد منهم زجاجة .. وفتحها فخرجت منها قوة هائلة .. قوى كانت محبوسة أيضا ..

الصياد الأول هو كارل ماركس .. فتح زجاجة رجل الشارع الذى يقدر عدده بالملايين فى كل مكان .. خرج الرجل الصغير يطالب بتعديل فى أسعار دموعه وعرقه .. يطالب بنصيبه فى الحياة وفى الحرية .

إنه صغير ، ولكن لأن عدده بالملايين ، أصبح قوة قاهرة ..

والصياد الثانى هو سيجموند فرويد . إنه راح يفتش فى الزجاجة .. ثم فتحها ، فانطلقت حيوانات مخيفة .. على أشكال ذئاب ونمور وأفاع .. كلها خرجت من عفريت اسمه اللاشعور .. أو العقل الباطن .. أو الغرائز .. أو من غريزة واحدة اسمها الغريزة الجنسية .. فإذا كان عفريت ماركس يطالب بالخبز فإن عفريت فرويد يطالب بالجنس .

والصياد الثالث اسمه اينشتين .. دار حول الزجاجة .. ثم كسرها .. وسجلت الزجاجة أول انفجار ذرى فى التاريخ .. لقد خرج من الزجاجة

عفريت ضيئل جدا ، لا تراه العين ، أى عين .. ولكن فى هذا الشىء الصغير الضيئل تنام أعظم قوة فى العالم ، قوة متوحشة مجنونة .. تبيد الخبز ، وتحطم الجنس ..

ونحن نريد أن يتحول الوحش ، هذا النمر إلى قط ، هذا السيد الظالم ، إلى إنسان طيب مطيع .. هذه الجماهير إلى قوى عاقلة ، هذه الغرائز إلى طاقات سامية .. والزجاجات ما تزال مفتوحة .. والمفاوضات بيننا وبين هذه العفاريت دائرة .. لا أمل فى أن تدخل هذه العفاريت إلى زجاجاتها ، لنرمى بها فى أعماق البحر .. ولكننا بالعقل نحاول أن نروض القوى الجبارة ..

وبين عقلنا وهذه القوى الهائلة ، تهتز حياتنا وسعادتنا .

وهذه هى أول ملامح العصر الذى نعيش فيه : إن الشىء الصغير ، أصبح كبيرا قويا ..

وإنه يطالب بحقوقه ، وأكثر من حقوقه ، يطالب بتعويض كامل عما فاته من حقوق .. يطالب بحريته التى حرم منها ألوف السنين ..

وسبب تعاسة هذا الصغير القوى هو حيرته بين ما يريد وبين ما يستطيع ، بين أحلامه وبين الواقع ، بين «اللى فى نفسه» وبين «اللى فى جيبه» ! .

وفى مواجهة هذه الانفجارات العنيفة ، ظهرت اتجاهات فردية أخرى تحاول أن توقف هذه الزلازل .. ففى مواجهة الجماهير والذرة والوحوش الجنسية ظهرت مذاهب فكرية تنادى بقيمة الفرد .. وأنه هو الأساس فى كل مجتمع .. فلا مجتمع بغير أفراد .. وأن الفرد هو الحقيقة الأولى ، وأما الجماهير فتجىء فى الدرجة الثانية .. وأن الفرد حقيقة له رأى وله موقف وله يدان ورجلان وأنه ملموس .. أما الجماهير فهى قوة معنوية غير محدودة ، غير ملموسة .

ولكن القوى الجماهيرية اكتسحت وطغت وسادت .. وبقيت الاتجاهات

الفردية مجرد أصداء على جوانب البحر الكبير..

فهذه النزعات التى تستوقف زحف الجماهير و «تفرمل» القوى الزاحفة التى كل صفاتها أنها قوية وكبيرة العدد وأنها جائعة ـ هى ولا شك من معالم هذا العصر..

ومن علامات هذا العصر.. السرعة .. فكل شىء قريب ..الراديو جعل الدنيا بين يديك.. والتليفزيون جعلها أمام عينيك . والصحف وكل وسائل الاعلام .. والطائرات .. حتى اللغة أصبحت سريعة .. حتى الملابس أصبحت بسيطة مختصرة تؤدى الغرض فى أقصر وقت . وبأقل قماش وأقل تكاليف.. والطعام أصبح سريعا .. السندوتش فى دقيقة يمكن إعداده ، وفى دقيقتين يمكنك أن تتناوله وأنت تجرى وراء الأوتوبيس .

ولم يعد عند الناس وقت لكى يقرأوا ولكى يأكلوا ولكى يناموا .. فكل شىء يبدأ وينتهى بسرعة ..

والسرعة خلقت التسرع .. فكل إنسان يتعجل الوصول إلى النتيجة .. إلى النجاح .. يطالب بحقوقه ويحرص عليها وينسى واجباته .. ويطالب بسرعة ويريد أن ينجح بسرعة ، وأن يصل بسرعة وبأقل مجهود وأقل عرق وأقل دموع .. فقد زاد ثمن العرق والدموع .. وهو لذلك لا يعرض من دموعه وعرقه الكثير ، حتى لا يهبط ثمنها فى مهرجانات الأجور ! .

وهذه السرعة جعلت أبناء هذا العصر فى حالة «سلبية» تامة .

فأنت تنتظر السيارة والقاطرة والطائرة .. وأنت تسترخى أمام الراديو والتليفزيون وتسمع وتتفرج .. وأمام الصحيفة وتستسلم .. كلها تصب المعلومات .. والأفكار والمخاوف فى رأسك وفى قلبك وأنت لا تملك أية مقاومة .. إنها ترهقك .. إنها تكرهك على الأكل .. على نوع معين من الأكل

والشرب والخوف والطمأنينة .. النوع الذى يعجبها .. أما أنت فليس عندك وقت ولا قدرة على الاختيار .. وكل قدراتك هى أن تفتح يدك وفمك وتبلع بلا مقاومة ! .

وفى هذا العصر فقد الانسان «استطعامه» لأى شىء .. إنه يأكل ولا يتذوق ، إنه يستلقى ولا ينام ، إنه يشتهى ولا يحب .

فنحن فى عصر الجنس ولسنا فى عصر الحب .. فالحب حالة نادرة .. وقصص الحب فى عصرنا معروفة ومحددة .. والناس يستقبلونها بدهشة ، وبحماسة حنينهم إلى الحياة البدائية أيام كان الإنسان يمشى عاريا ، وقد أطلق شعره وأظافره وغرائزه وراح يأكل اللحوم البشرية .. فقصص الحب والعشق أشياء غريبة نتتبعها فى دهشة ..

ولم يعد هناك بيت ، وإنما هناك منزل .. البيت الذى له جو وفيه حرارة وحنان ، اختفى .. وراح البيت يزدحم بالمكتب الكبير ، والراديو والتليفزيون ورفوف الاسطوانات والحلل والعيال ..

والأسرة أيضا .. هناك بيت الزوجية أو بيت العزوبية .. أما الأسرة بالمعنى القديم فلم يعد لها وجود .. فالعائلة تحطمت وتمزقت .. كانت مرتبطة بالأرض .. الأرض تمزقت .. وكل فرد من أفراد الأسرة راح يعيش وحده فى عمارة كبيرة بها عشرات الشقق .. كل واحدة منها منفصلة عن الأخرى .. ولا أحد من سكان أى عمارة يعرف جيرانه .. حتى إن كلمة «الجار» لم يعد لها معنى .. ولا الصداقة لها معنى .. وإنما هناك الزمالة فى العمل وفى البيت وفى النقابة .

هذه العلاقات لم يعد لها طعم ، ولا لون ولا رائحة ! .

الصداقة والأخوة وتذوق الطعام والأبوة والحب .. كل هذه كلمات كان لها

معنى قديم .. أما اليوم فقد تحولت إلى أرقام أرقام شقق ، أرقام بطاقات .. أرقام سيارات ..

وأجهزة الإعلام هذه .: الراديو والتليفزيون والصحافة والمسرح .. كل همها أن تمسكك حتى لا تهرب .. أن «تشدك» ـ وهذا هو التعبير الذى يستخدمه المشتغلون بهذه الأجهزة ـ أن تشدك حتى لا تهرب .. حتى لا تترك الراديو أو الصحيفة .. وحتى لا تفكر فى أى شىء آخر .. وانما تبقى هكذا فى حالة استسلام تام ..

وإذا كان التاريخ هو تاريخ للحرية فمن الواضح أن الشعوب زاد نصيبها من الحرية .. كلها استقلت أو تعمل على استقلالها .. لتنفرد بأرضها وناسها وثروتها وترسم مستقبلها ..

ولكن هذه الشعوب لم تحقق حريتها إلا بأن اقتطعت الكثير من الحريات الشخصية .

فالحريات العامة زادت والحريات الشخصية نقصت ..

فالأمم كالصواريخ .. بقوة انطلقت وتحررت من جاذبية الأرض ورفعت الأفراد إلى السماء ولكن معظم هؤلاء الأفراد يتحركون فى كبسولة ضيقة وصغيرة .. ولا يمكن أن تحرر الشعوب بغير قيود وبغير حواجز .. فالدولة تمتص حريات الأفراد لكى تعيش .

وهذا الصراع بين الحريات العامة والحريات الشخصية هو من علامة هذا العصر .

وعلى الرغم من أن الإنسان الصغير الذى خرج من الزجاجة قوى جبار كاسح فإنه يخاف من وحدته .. وهو لذلك ينظم نفسه على شكل هيئات ونقابات ..وكان من المفهوم أن تكون هناك نقابات ترعى مصالح العمال

والأجراء فى المجتمعات الرأسمالية لتقف فى وجه أصحاب رءوس الأموال تجار العرق والدموع بتراب الفلوس .. ولكن هذه النقابات موجودة وبكثرة فى كل المجتمعات الشيوعية والاشتراكية .. فهى تنظم نفسها بحماسة كأنها أمام عدو ، أمام مستغل ، أمام ظالم لا يرحمها .. مع أنه لايوجد هذا الاستغلال ولا هذا الظلم .. فهذه النقابات هى التى تمثل الملايين التى تملك والتى تحكم ..

ولكن هناك خوف .. هناك فزع عند كل أبناء هذا العصر .. فلا أمان للغد ولا أمان لما يجىء بعد الغد . فالحرمان الطويل أنساهم طعم اللقمة . وطعم الراحة .. جعلهم يبتلعون اللقمة بدلا من أن يمضغوها .. إنهم يخافون أن يخطفها أحد .. إن هذه الجماهير تنام بعين مفتوحة وعين مقفلة ..

إنها قوى مخيفة وخائفة فى نفس الوقت ! .

ورغم هذه الكثرة الهائلة القوية .. ورغم هذه الاحتشادات والمنظمات ، والمؤسسات والنقابات ، والنوادى والمعسكرات ، فإن شعور الناس بالعزلة والوحشة قد زاد ، فى القرن العشرين أكثر من أى قرن مضى ..

فالناس يجلسون معا ويعملون معا .. ولكن كل واحد منهم فى حاله .. كل واحد منهم زجاجة مقفلة فى داخلها عفريت خائف .

فالراديو ينقل إليك الدنيا ، والصحف أيضا .. ولكن ينقلها لك وأنت فى بيتك وحدك ، ولا تشعر بمن حولك من زوجتك وأولادك وأخوتك .. أنت وحدك منعزل .. أنت معزول عن العالم .. عن أقرب الناس إليك .. هذه العزلة هى التى تدفع الناس إلى أن يشتركوا فى كثير من الأعمال الجماعية .. ومع ذلك عندما يشتركون فإن خوفهم يتبدد قليلا ، ولكنهم يظلون وحدهم .. منعزلين تماما ولذلك فهؤلاء المنعزلون ـ كل الناس منعزلون ـ يلوذون بالهيئات .. بالمنظمات .. بالمؤسسات ، حتى يهربوا من عزلتهم .. حتى يهربوا من مواجهتهم لأنفسهم .

ومن علامات هذا العصر : الإيمان الغريب بالمؤسسة وبالمنظمة وبالهيئة وبالنقابة .. الإيمان بهذه الأشكال المعنوية ثم الإيمان بإله آخر اسمه : النظام .. الترتيب .. الدقة ..

فالناس يؤمنون بكل هذه الكلمات .. فالفرد يجرى من بيته إلى الشارع إلى الأوتوبيس إلى المشى بين « العلامات البيضاء » فى انتظار « علامة المرور الخضراء » على « الجانب الأيمن » من الشارع ليقف فى « الطابور » أمام الساعة ويخرج القلم من جيبه ويمضى ويصعد الأسانسير فى طابور وينطلق إلى الدور السادس أو العاشر ، ويفتح باب الغرفة رقم كذا ويسحب مقعدا ويجلس إلى مكتبه القريب من النافذة ويتصفح الدوسيه ويقلب فى الأوراق حتى الساعة الثانية ويهبط هذا الطريق الطويل إلى بيته وينام ويصحو ، ويعود ، وينام ، ويصحو ويقرأ عن الدرجات والعلاوات والكادر .. إلى مالا نهاية ..

كل شىء بترتيب وبخطوط وبعلامات وبساعات .. لابد من النظام .. ولا خروج : على النظام فى المؤسسة أو فى المصنع .. ومن أجل النظام يجب أن يبقى كل شىء وأن يبقى هذا ويخرج ذلك .. يجب أن يمشى كل إنسان فى الطابور ، فى الصف ، فى دوره .. حتى تحول الإنسان إلى آلة إلى مسمار ألووظ فى آلة كبيرة هائلة اسمها : النظام ..

وهذه الحياة المنظمة أو المنتظمة أو المرتبة أو الرتيبة هى التى أصابت الإنسان بمرض هذا العصر : الملل .. القرف .. الدوخة .. الغيثان ..

ولم يحدث فى عصر من العصور أن شعر الإنسان بالملل .. وبأن اليوم كغد وأن الغد كبعد الغد ، وأنه لا طعم لشىء ولا لذة لشىء ولا أمل فى شىء ، ولا يأس من شىء .. لم يحدث شىء من هذا قبل القرن العشرين .. إن عدد القصص والأفلام والمسرحيات التى تنبع من الملل والقرف والغيثان لا نهاية لها .

يكفى أن تقرأ ما يكتبه سارتر فى فرنسا ، ومورافيا فى إيطاليا ، وويلسون فى

انجلترا وكيرواك فى أمريكا .. كل ما يقولون : قرف .. ملل .. عبث .. لا طعم لشىء . ولا معنى لشىء ، ولا وزن لشىء .. فالحرية هى منطقة انعدام الوزن الذى يطير بها وفيها كل خفيف وثقيل بنفس الدرجة ..

ولابد من عمل شىء لإنقاذ الإنسانية التى تطلب الحرية . وتحرص عليها فإذا أخذتها فإنها لا تدرى ما الذى تفعله بهذه الحرية ..

حتى أصبح شعار الناس فى القرن العشرين ، فى أوربا وأمريكا أنا قرفان .. إذن أنا موجود . وأصبح الميت وحده هو الذى لا يمل ولا يقرف ولا يشعر بدوار الأرض أو دوار الناس ..

إن أول عبارة قالها رائد الفضاء السوفيتى الثالث : إن الدنيا حر ودوشة على الأرض .. وكان رد خرشوف : إن السبب هو الناس !

فالناس هم الدوشة وهم الحرارة ، وهم نفس الوجوه ، ونفس الأصوات ..

وأصابعك كأنها شفاه ممطوطة وفى حالة قرف فكل شىء رطب وكل شىء يحاول أن يلتصق بها ولا يتركها .. وعينك تقرف من الوجوه الشاحبة الباهتة الكالحة ، وجوه كل يوم .. نفس الوجوه فى بيتك ، فى عملك ، فى شارعك .. واذنك تقرف وتبصق من فمك .. نفس الكلام .. نفس الأصوات .. كل شىء يتكرر .. الأمل الوحيد هو أن تفقد حاسة من حواسك أو كل حواسك لكى تستريح .. حتى عقلك القادر على التغيير والتبديل هو الآخر غارق فى الملل .. نفس الأفكار نفس القضايا ، نفس المشاكل .. أما قلبك فدقاته روتينية : كدقات الساعة فى أحد الميادين .. ولا تغيير فى دقات قلبك إلا بالمرض وإلا بالأرق وإلا .. بالإدمان .. وإلا بفقدان القلب نفسه !

والنتيجة : هى شقاء أبناء هذا العصر..

لم تسعدهم الحرية ، ولم تسعدهم السرعة ، ولم يسعدهم العالم الذى بين أيديهم .. إنهم يريدون أن يهربوا من أرضهم من جلدهم .. من مصيرهم إنهم يهربون بالنوم .. بالخمر .. بالانتحار .. بالجنس .. بالفناء فى الهيئات ، بالسفر إلى الكواكب الأخرى ..

وكل شىء نفهمه بعنف .. نأكله بعنف .. وننام بالقوة ونحب بإسراف .. ونكره بمرارة ..

ولا راحة لأبناء هذا العصر إلا بالمعجزة .. معجزة العلم أو معجزة الدين .. والناس يؤمنون بالعلم والعلماء .. يؤمنون بالآلة الحديثة .. بالطائرات بالصاروخ وأنبياء هذا العصر هم العلماء، ومعابدهم هى المعامل وكتبهم المقدسة هى الأرقام .. ولم يعد أحد يؤمن بالكلمة .. بالعبارة .. بالشعر .. بالفن .. بالذوق .. بالخيال وإنما .. بالأرقام . ووضوح الأرقام . وبساطة الأرقام ..

ولكن العلم الذى نؤمن به هو أيضا مصدر شقائنا .. ماذا فعلت الآلات لنا . السيارات والطيارات والتليفزيون . إنها عزلتنا حبستنا .. سلبتنا الإرادة ونور العين وراحة البال .. ماذا فعل الطب لنا .. إنه عاجز عن علاج أبسط الأمراض .. ماذا فعلت الأسلحة لنا ، إنها جعلتنا فى حالة استعداد للقتال .. فى انتظار الدمار ..

إن العلماء أنبياء هذا العصر ، لا يعرفون الناس ، ولا يدرى بهم الناس .. إنهم يعيشون فى صوامع من زجاج : وحديد ونار .. وقد أداروا ظهورهم للمادة .. للزجاجة المقفلة التى خرج منها العفريت القوى المخيف وهم يحاولون أن يعلموه الأدب ، يحاولون أن يدخلوه فى جلد القط والأرنب ..

لم يبق إلا الدين .. ولكن رجال الدين ليست لهم كلمة مسموعة فى عصر العلم .. إنهم ينادون بالسلام الذى افتقده الناس ، والحب الذى لم يعرفوه وينادون بأن يشعر الجار بالجار ، والأخ بالأخ وبالابن وبالزوجة .. إن رجال

الدين يحاولون أن يردوا للناس إنسانيتهم ، التى ضاعت فى المكتب والاوتوبيس وأمام الراديو والتليفزيون وفى الجرى بين العلامات ، والجمود أمام الساعة والانعدام أمام الدوسيهات .

ولكن الناس لم يعد عندهم وقت للتفكير فى شىء أو فى أحد .. وهم هاربون من أنفسهم .. وصوت رجال الدين يجىء من الداخل من داخلنا من أنفسنا .. ونحن هاربون من أنفسنا .. ولذلك فنحن لا نسمع صوت رجال الدين .. إنه يضيع فى زحام الآلات والأقدام والأيدى والمقاعد التى نخاف عليها ونخاف منها .

وفى لحظة مرضنا ، فقط فى لحظات المرض نشعر بوحدتنا ، بإنسانيتنا ويجىء لنا من تحت الغطاء الثقيل والجلد الثقيل صوت مكتوم يذكرنا بأن الحياة ليست جريا ولا هربا وإنما هى أن نتوقف وأن نتأمل . وأن نتذوق ، وأن نستطعم وأن نفتح أيدينا .. وأن نضمها وأن نعانق أنفسنا .. نعانق إنسانيتنا .. حقيقتنا .. فنحن أعظم ما فى الكون !

فقط عندما نمرض .. فقط ونحن على فراش الموت .. فقط فى لحظات اليأس الكبرى نهبط إلى أعماقنا .. هناك فى الأعماق نجد الزجاجة المقفلة .. ونلمح فى داخلها القوة الحبيسة التى نخاف منها .. والتى نهرب منها .. إلى ما هو أسوأ وأقسى منها !

وننتظر المعجزة .. مع أننا المعجزة .. وأننا أصدق وأعظم حقيقة .. ولكى تشعر بهذه اللحظة الباهرة ، ولكى تدرك عمق المأساة التى يعانيها أبناء القرن العشرين ..

يكفى أن تفكر فى نفسك دقيقة واحدة .. ساعة واحدة كل يوم .. كل أسبوع !

إنك لن تستطيع .. لقد حاولت قبلك ، وخرجت بهذه الخريطة لشقائي .. وشقاء الناس !

حالة انعدام الوزن

الدين يقول لك يجب أن تعف حواسك عن كل شيء ليس لك ..

والتصوف يقول يجب أن تتعفف حواسك عن كل شيء لك . بل يجب أن تعطل حواسك . عينك لا ترى . أذنك لا تسمع . أنت من أولك لآخرك ألا تكون . يجب أن تحارب نفسك فى داخل جسمك .. فجسمك هذا لا قيمة له ، لامعنى له .. يجب أن تخلعه ، تماما كما يخلع الثعبان جلده ، وكما يغير العصفور ريشه .

إن جسمك ليس إلا قنطرة .. ليس إلا وسيلة من وسائل الانتقال إلى العالم الآخر .. جسمك هو سفينة فضاء تسافر بها إلى العالم الذى كله نور وروح .. لتجد نفسك أمام الله وجها لوجه ..

الدين يريدك أن تعيش بجسمك وبعقلك وبقلبك ..

ورجال التصوف يريدونك أن تعيش بغير هؤلاء .. أن تعيش وكأنك قد أغلقت حواسك كلها عن الدنيا .. ونظرت إلى داخلك ، واستمعت إلى أعماقك ، ولمست بأصابعك جوهر الكون .. كل هذا وأنت منطو على نفسك ، منحن على نفسك ، متكور .. مستدير كأنك كوكب يدور فى الفضاء ، وليس إنسانا محدودا بين الناس ، يمشى فى شوارعهم ، ويخبط فى أكتافهم ، ويتعثر فى أقدامهم ، ويزاحمهم على لقمة العيش ..

ولذلك يختار هؤلاء المتصوفون قمم الجبال .. ويقيمون هناك فى صومعة أو فى دير أو فى معبد ..

والجبال تعزلهم عن بقية الوديان .. والصومعة تعزلهم عن بقية الجبال .. والعزلة تجعلهم لا يشعرون حتى بالصومعة .

فكأنهم فى قمة العزلة .. فى حالة تشبه النوم المستمر ولكنه نوم واع .. نوم الحس ويقظة الروح .

إنها حالة تشبه الموت .. موت الجسد وحياة الروح ..

هذه الحالة هى التى يسميها البوذيون (النرفانا) ..

أى الحالة التى يكون فيها الإنسان صافيا كأنه حى ، منعدم الشعور كأنه ميت ..

وكان أمل هؤلاء البوذيين ـ ولا يزال ـ أن يحقق الإنسان هذه السعادة الروحية .. أن يكون الإنسان حيا ، وأن يكون ميتا .. أن يكون له روح وأن يكون له جسم لا يشعر به .. لا يحس به ثقيلا ..

فأنت عندما تمشى ، تحمل جسمك على قدميك ، وأنت عندما تجلس ، تحمل جسمك على ساقيك .. وأنت عندما تنام توزع (ثقل) جسمك على كل جسمك ..

فأنت دائما تحمل نفسك .. وأنت دائما ثقيل على نفسك .. ولكن (النرفانا) هى انعدام الوزن .. هى هذا السرور الذى تمناه المتصوفون ولم يحققوه .. هى هذه الحالة التى ملأوا بها كتبهم ولكنهم لم يبلغوها ..

هى هذه الحالة التى أحس بها كل رواد الفضاء ولم يعرفوا كيف يصفونها .. المتصوفون وصفوها ، ولم يبلغوها .

والفضائيون بلغوها ، ولم يصفوها .

جاجارين وصف حالة انعدام الوزن بأنها تشبه النشوة التى يحس بها شارب الخمر ، ولكن بلا تعب ..

ووصفها أيضا بأنها مثل دغدغة بأصابع من حرير ..

ورائد الفضاء الأمريكى شبرد وصفها بأنها تشبه حالة انعدام التعب .. تماما كأنك طفل صغير بلا ذاكرة .. أى طفل نسى كل شىء ، ولكنه يشعر بأنه سعيد ..

وقال كوبر الأمريكى : تماما كأى نافذة انفتحت فجأة ودخل هواء منعش و .. وهذا الهواء لم يدخل أنفى فقط .. وإنما تسلل إلى كل جسمى .. فأنا فى غاية الانتعاش ..

وقالت فالنتينا : إنها أسعد لحظات حياتى عندما دخلت منطقة انعدام الوزن .. أصبحت سعيدة .. لا أعرف كيف .. ولكنى شعرت بارتياح لا نظير له فى حياتى ، وتمنيت أن أبقى هكذا إلى الأبد !

هذا بالضبط ما قاله المتصوفون عن حالة انعدام الوزن .. وزن الجسم ومتاعب الجسم وشهوات الجسم ..

ولذلك كانت صوامعهم تشبه سفن الفضاء ..

وقد اختاروا لهذه الصوامع مدارا ثابتا فوق الجبال ..

وقال الصوفية إن هذه الحالة تشبه الولادة الجديدة .. وهو نفس المعنى الذى استخدمه رواد الفضاء .. إنهم شعروا كأنهم ولدوا من جديد .

ولا أحد يعرف كيف يصف الولادة أو الموت .

فنحن لا نعرف كيف كانت إحساساتنا عندما ولدنا ، ولا نعرف كيف نكون عندما نموت ..

ولكن حالة انعدام الوزن .. هى حالة الولادة والموت .. وموت الجسم وولادة شعور مشرق .. شعور باهر .. إنها حالة ولادة صوفية ، وموت مادى ..

والابتسامة التى تراها على وجه الميت .. هى ابتسامة الذى كان مدينا ، ثم دفع الحساب . أى لم يعد مدينا لأحد ..

إنها ابتسامة الانسان عندما دخل منطقة انعدام الوزن ..عندما دخل عالما آخر لا وزن فيه .. لا أجساد فيه .. وكل ما هو مادى له وزن .. وكل ما ليس ماديا عديم الوزن .. والعالم الذى تنتقل إليه بالموت ، هو عالم انعدام الوزن ..

والفرق بين كل الناس ورواد الفضاء .. أنهم يشعرون بحالة انعدام الوزن ساعات طويلة .. ومع ذلك فهم أحياء .. وبعد ذلك يعودون إلى الأرض.. والإنسان لا يحس بها إلا لحظة واحدة يشرق فيها وجهه ، وتترك هذه الحالة بريقا على شفتيه ، ولمعانا فى عينيه .. وهنا يدرك أهل الفقيد أنه عندما رأى رحمة الله ابتسم .. وأنه فى طريقه إلى الجنة .. ولكن الفقيد مفقود إلى الأبد .. إنه لن يعود ! ..

ورجال الفضاء عندما يعودون إلى الأرض ، لا يعرفون كيف يصفون لنا هذه الحالة النادرة الغالية التى يحلم بها كل المتصوفين الذين ربطوا أنفسهم فى قمم العزلة فى سفن الفضاء التى جنحت إلى أعالى الجبال .

فرواد الفضاء ليست صناعتهم الكلام ، ولا وصف هذه المشاعر وليس عندهم وقت للتأمل .. وإنما هم مشغولون بقراءة العدادات ، وتسجيل البيانات والجداول ودرجات الحرارة والضغط ، والأشعة الكونية ، فصناعتهم الأرقام والطيران والهبوط ، وتحمل مجالات مغناطيسية عنيفة ..

فتجاربهم تكتيكية وليست صوفية ..

ولذلك فعندما مروا بحالة انعدام الوزن أحسوا كأن أصابع تدغدغهم ، كأن زجاجات من الشمبانيا تملأ أفواههم ، كأن نسيما سحريا أنعشهم ، وجدد شبابهم ، وأصبحوا يطيرون فى داخل سفينة الفضاء مع أقلامهم وأوراقهم كأنهم بلا أجسام ، وكأن أجسامهم بلا أوزان .. أوكأنهم أرواح انتقلت إلينا صورهم من العالم الآخر .. فهم سعداء بهذه النكتة الكونية الجديدة ، نكتة أن يطير الإنسان والورق والقلم ..

فلما عادوا إلينا لم يقولوا شيئا كأنهم موتى ، وكأنهم لم يعودوا .

ولكى تعرف شعورهم بالضبط ، يجب أن تعود إلى الكتب التى ألفها البوذيون من آلاف السنين .

فليس صحيحا إذن ما يقال : إن فاقد الشىء لا يعطيه .. وإنما فاقد الشىء هو الذى يعطيه .. وإن المتصوفين الذين لم يمروا بتجربة انعدام الوزن ، هم وحدهم القادرون على أن يعطوك صورة كاملة له ..

وليس انعدام الوزن مستحيل التحقيق ..

وإنما هو سهل ، فإما أن تكون أحد رواد الفضاء ، وإما أن تكون متصوفا . هذا إذا اردت ساعات طويلة من انعدام الوزن .. أما إذا كنت تريد لحظة واحدة تشعر فيها بانعدام الوزن ، فهذه هى نهاية كل حى !

ومع ذلك ففى حياتنا العادية لحظات ينعدم فيها الوزن ونكون سعداء ..

فنحن نقول عادة : إننى طرت من الفرح !

ومعنى ذلك أنك من شدة الفرح ارتفعت برأسك إلى فوق .. ومسست منطقة انعدام الوزن .. ولذلك فأنت سعيد !

الكرة كما يراها
متفرج جديد

مع التليفزيون ، بدأت أهتم بكرة القدم ، وأتابع مبارياتها . وأحرص على قراءة كل ما يكتبه النقاد . فكرة القدم عالم غريب . وأسلوب التعبير عن هذا العالم ، غريب أيضا .. ولكنى ، فى هذه المرحلة ، ما أزال « ذواقة » أتفرج على أى لعب ، وعلى أى ناد ، وأتحمس للعبة الجيدة ، ولا أهتم كثيراً باسم اللاعب ، أو النادى الذى ينتسب إليه .. ولذلك فأنا لم « أتعصب » بعد لناد دون ناد آخر .. لأن التعصب ضد الرياضة ، فالروح الرياضية هى التى تجعلك تقبل النصر أو الهزيمة ، على أنها حالة مؤقتة .. تماما كالكرة ، مرة فى رجلك ، ومرة فى رجل غيرك .. ومرة يكسب ناديك ، ومرة يكسب ناد آخر . فالرياضى إنسان متسامح ..

والمتعصب هو الذى يرى أن ناديه هو أحسن الأندية ، وأن لاعبيه هم سادة اللاعبين ولاعبى الأندية الأخرى هم ولا حاجة .. والتعصب هو نوع من عمى الألوان ، وعمى الأذواق ، وعمى الأندية ، وعمى الكور !

ومازلت أعتقد أن الذواقة ـ أى الذى يستطعم الأكل الجيد ، هو صاحب المعدة القوية ، والذوق السليم . أما الذى لايستطعم إلا نوعا خاصا من الطعام ، ونوعا معينا من اللاعبين ، ونادياً بالذات ، فهو المتعصب !

غير أن التعصب فى كرة القدم لا ضرر منه .. إنه تعصب أبيض ، كما

تتعصب للترزى الذى يعجبك ، والكبابجى الذى تأكل عنده ، والسجائر التى تدخنها ، والكافتيريا التى تسهر فيها ، والحى الذى تقيم به ، ولأم كلثوم أو لعبد الوهاب أو العقاد أو طه حسين ، أو فاتن حمامة أو ماجدة ..

والمتعصب للأهلى أو للزمالك ــ وهذا ما لاحظته أخيرا ــ ليس متعصبا مائة فى المائة ــ فهو أحيانا يعجب بلاعبى الأندية الأخرى ، ويتمنى لو كانوا فى النادى الذى يتعصب له . فكأنه تعصب بلا تعصب .. وإنما هو تعصب العاشق الولهان لمحبوبته . ولو أنك أتيت بعاشق ومعشوقته ووضعت الإثنين بين ألف رجل وامرأة ، فإنه لن يرى سواها ولن تلفته إلا كلماتها وحركاتها ، وكأن الدنيا قد خلت من كل الناس .. إلا هو وهى ..

وحاولت أن أعرف سر تعصب المتفرجين لأحد الأندية . فلم أجد سببا واضحا ، فلا يوجد سبب واضح يجعلك تستريح إلى فندق سميراميس أكثر من هيلتون أو لفندق شبرد أكثر من كليوباترا ، أو للبلمونت أكثر من الوينجز ، أو لفول التابعى أكثر من فول الحاج محمود ..

قال لى أهلاوى متعصب إن له أقارب من النادى الأهلى . وهذا هو السبب . وقال لى زملكاوى متعصب : إن النادى الأهلى يرتبط فى ذهنه ، بأنه نادى الباشوات . وقال لى ترساناوى متعصب إن الترسانة هى نادى العمال . وهذا يكفى .

وكلها أسباب غير واضحة . وغير مقنعة . ولكن كل ما يتعلق بالذوق والمزاج الشخصى ، غير واضح أيضا . لأن الذوق خليط هائل من أفكار وذكريات ومشاعر غير محددة .

وربما كان سر تعصب المتفرجين هو أنهم اختاروا النادى الذى يعجبهم ، بكامل حريتهم . وهم بهذه الحماسة الشديدة للنادى ، إنما يتحمسون لحريتهم فى

الاختيار ، يتحمسون لذوقهم لمزاجهم .. يتحمسون لأنفسهم .

ولذلك لا ضرر من هذا التعصب لأى ناد ، لأنه لا ضرر أبدا من التعصب لرأيى ، لنفسى .. فالتعصب فى الكرة هو المرحلة التالية ، التى سأدخل فيها ، باعتبارى حديث العهد بهذه اللعبة الشعبية الأولى ، فى مصر وفى العالم كله .

والكرة علم وفن .. علم له قوانين وقواعد وكتب . وهى فن على أرض الملعب .. والكرة ككل فن ، تعتمد على استعداد اللاعب وذكائه وقدرته على التصرف . واللاعب يتصرف دائما فى حدود القانون ، وهو يتحايل على القانون بصورة مكشوفة ، فاللعب كله على المكشوف أمام مئات الألوف من الناس ..

وعلى الرغم من أن كرة القدم لعب فى لعب . فإنها ليست عبثا لأن العبث لا قوانين له . والكرة لعب ، ولذلك لها قوانين . والبراعة فى الكرة ، كالبراعة فى أى فن آخر .. وهى ليست فى أن تدوس على القانون ، ولكن فى أن تمشى إلى جواره .. ليست فى أن تلعب خارج العلامات البيضاء ، ولكن فى نطاقها ..

وكرة القدم تشبه التمثيل على المسرح .. فهناك جمهور .. وهناك تجاوب بين الجمهور والممثلين . وهذا الجمهور هو الذى يمد اللاعبين بالقوة والحرارة والاستمرار .

وكرة القدم كالتمثيل : أكذوبة .. فنحن نعلم أن الممثل يظهر على المسرح ويبكى ويصرخ ويضحك ويقتل ويموت وكل هذا كذب ونحن نقبل منه هذا الكذب ونتزاحم على باب المسرح لنرى كيف يصدق الممثل فى كذبه .. والكرة أيضا فيها هذا التمثيل ، فيها الكذب الذى يعجبنا .. فنحن نرى ٢٢ لاعبا يستميتون على كرة واحدة .. ويتخانقون عليها . وكان من الممكن أن نحل هذا الاشكال بأن نوزع على كل واحد منهم كرة . وبذلك تنفض كل هذه (اللمة) فى الملاعب وأمام التليفزيون وإلى جوار الراديو .. فالجرى وراء الكرة ليس إلا

تمثيلا .. فهم لا يريدون الكرة . والدليل على ذلك أن الواحد منهم يجرى وراء الكرة ويرمى نفسه عليها ، ولكنه مع ذلك لا يمسكها بيديه ويهرب من الملعب ، بل إنه يرفسها برجله لواحد آخر .. وهذا الآخر يرفسها لواحد ثالث .. وهكذا إنهم يمثلون التنافس على الكرة .. يمثلون علينا ، فهم يكذبون علينا ، ولكننا معجبون بهذا الكذب .. ولو حاول واحد منهم أن يمسك الكرة بيده لاندهشنا ، ولو حاول أن يمسكها ويهرب بها ، لاعتقد المتفرجون أنه مجنون ، مع أنه فى هذه الحالة يكون صادقا مائة فى المائة لأنه لا يمثل لأنه لا يكذب .. ولكن نريده أن يكذب وأن يندمج فى التمثيل ، ونحن وراءه نصفق ونصرخ معجبين ببراعته فى الضحك علينا !

وعلى الرغم من أن كرة القدم لعبة جماعية .. فإن الأهداف فيها شخصية .. فالفريق من أوله لآخره يلعب .. ولكن عندما تستقر الكرة فى المرمى ، فإن هذه الاصابة تنسبها إلى لاعب واحد .. مع أن هذا اللاعب ، ليس هو الوحيد الذى انفرد بالكرة ، واحتفظ بها ، واجتاز بها الملعب من أوله لآخره .. وإنما هذا اللاعب يشبه عقارب الساعة التى تدلنا على الزمن .. وهذه العقارب هى التى نراها فقط ، مع أن هناك تروسا كثيرة جدا ، هى التى تحركها ، وتدفعها من دقيقة إلى دقيقة .. ونحن لا نذكر هذه التروس فليست هذه التروس هى التى تسجل الزمن !

وربما كان هذا هو السبب فى حرص اللاعبين على أن ينفردوا هم بتسديد الأهداف .. وربما كان هذا هو السبب أيضا أن يثوروا داخل الملعب على (جماعية) اللعبة .. لأنه يحدث كثيرا جدا ، أن يقوم لاعب بتمرير كرة إلى لاعب آخر .. وتجىء هذه (التمريرة) مقشرة ــ كما يقول النقاد ــ وبذلك يسهل على اللاعب الآخر أن يهز بها شبكة المرمى .. مسجلا هدفا لفريقه .. فمن هو الذى سجل الهدف فى الحقيقة .. اللاعب صاحب الإصابة ، أو الذى استخلصها له من أرجل اللاعبين المنافسين !

ومعنى ذلك أن كرة القدم ليست جماعية مائة فى المائة ، كما أن إصابة الشبكة ، ليست شخصية مائة فى المائة !

شيء غريب يعرفه لاعب الكرة أكثر من غيره ، وهو أن حياته قصيرة .. وأنه مختلف عن الممثل الذى يستطيع أن يظهر مدى حياته على المسرح أو على الشاشة .. فالممثل الشاب سيظهر رجلا كبيرا ، ويظهر أبا عنده أولاده ويظهر شيخا (عجوزا) ، ويظهر سليما ومريضا ، غنيا وفقيرا .. بل من الممكن أن يتم تصويره وهو ميت .. أما لاعب كرة القدم فحياته قصيرة ، لأن حياته مرتبطة بسنه ، والسن معناها لياقته البدنية ، ومرونة عضلاته ، ومدى ما يحققه من نجاح فى المباريات .. فهو كالراقصة ، التى تعتمد على ليونة جسمها .. وهى لذلك تحرص على الرقص وهى صغيرة ، قبل أن تتصلب رجلاها ، ويترهل بطنها . ويذبل صدرها ، وتتجعد عيناها ، ويجف شعرها ، وتصرخ العروق الزرقاء فى سيقانها ..

قال لى لاعب ممتاز فى أحد الأندية أنه يدرس الصحافة الآن ، لكى يكون ناقدا رياضيا فى المستقبل .. أى بعد أن تنتهى المدة المخصصة للاعب الكرة .. فهو سيتحول من لاعب إلى متفرج ، إلى ناقد للاعبين والمتفرجين .. أى من لاعب محكوم عليه ، إلى متفرج يحكم على اللاعبين ، وعلى النقاد المحترفين ، وعلى الجمهور ، الذى هو ملايين النقاد الهواة !

وهذا أمل معقول وطبيعى لكل لاعب كرة ..

لاعب كرة القدم أتعس من الممثل على المسرح . لأن الممثل يؤدى دورا واحدا محفوظا ، من الممكن أن يكرره كل ليلة ، ولمدة شهر .. وفى انجلترا يؤدى دوره الواحد لمدة سنة وأكثر .. أما لاعب الكرة ، فهو لا يستطيع أن يستعيد حركاته ، وحركات اللاعبين كلهم .. وهو يؤدى دوره دون ملقن . ودون مؤلف ، ودون مخرج ..

ثم إن جمهور الكرة أقسى من جمهور المسرح ..

فجمهور الكرة جاء ينبسط .. جاء يتحمس .. يصفق ويصرخ ويرى اللاعبين الذين تعصب لهم ، وتحدى أصدقاءه وجيرانه من أجلهم . يريد أن يرى نفسه فى اللاعبين الذين اختارهم .. فالجمهور قد استعد نفسيا لهذه المباراة .. تماما كالصائم الذى جاع طول النهار وانتظر مدفع الإفطار .. ومدفع الإفطار هو صفارة الحكم .. وعندما يبدأ اللعب ، يريد الصائم أن يملأ معدته ، ويعدل مزاجه .. فإذا كان الأكل مسلوقا ، لا يساوى الانتظار الطويل ، والعطش والجوع ، فإن الجمهور يثور .. ويشعر أنه صام ثم أفطر على بصلة .. والبصلة هنا هى اللعب الهزيل !

وجمهور المسرح أرحم ، وعندما يثور ويضرب الممثلين ، فإنه يستخدم البيض والطماطم ، وليس الزجاجات الفارغة والطوب والحجارة والكراسى ، وعندما يضرب جمهور المسرح ممثليه ، فهو يضرب المؤلف والمخرج فى أشخاص الممثلين ، ولكن جمهور الكرة يضرب اللاعبين شخصيا !

ولاعب الكرة لا يعرف كيف يمشى وإنما هو يعرف كيف يجرى .. وإذا نظرت إلى اللاعبين فى الملعب وجدتهم يمشون وكأنهم يحملون قطعا من الحديد فى أقدامهم . وسبب ذلك أن أحذيتهم ثقيلة ومشدودة .. وحتى عندما ينزعونها فإنهم يمشون كما لو كانت الأحذية الحديدية قد اختفت تحت الجلد ..

لقد رأيت (بيليه) ساحر البرازيل .. ولم أصدق عينى عندما رأيته يزحف على الأرض ، ويمشى منفرج القدمين ، كأنه بطة أو أوزة ... ولكن عندما رأيته فى الملعب لم أجد إلا رشاقة الثعلب والذى يرى نجوى فؤاد وهى تمشى يخيل إليه أنها ستقع من طولها ، فهى تعرف كيف ترقص ولكنها لا تعرف كيف تمشى .. والذى يلاحظ الطائرة عندما تهبط إلى الأرض ، يجدها تهتز وتتخبط لأنها لا تعرف كيف تمشى على الأرض ، وإنما تعرف كيف تطير فقط ..

وكذلك الممثلون لا يعرفون كيف يتكلمون ، وإنما فقط كيف تكون الكلمات ضخمة .. والحروف فخمة .. لأن من المفروض أن يسمعهم الجمهور .. فهم مطالبون بأن تصل أصواتهم إلى كل الصالة ، والمقاعد فى أعلى المسرح .. وكذلك لاعبو كرة القدم، من المفروض أن يغطوا الملعب ، وأن يتابعوا الكرة فى كل مكان .. فهم مدربون على الجرى أما المشى فهم أحرار فيه !

وكرة القدم عندنا بين نظريتين . نظرية من يلعب ليعيش ، ومن يعيش ليلعب .. والنظرية الأولى هى نظرية الاحتراف فى الكرة . والنظرية الثانية هى نظرية الهواية فى الكرة . ولا تزال كرة القدم عندنا هواية ، لعبة مزاج .. ولكنها فى أوربا وأمريكا لعبة احتراف .. شغلانه .. وظيفة مريحة .. يقوم بها شاب يبيع مجهوده ، يبيع براعته ، وتجاربه ..

ويقال إن الذى يلعب ليعيش هو الذى يشعر بأنه لابد أن يلعب ، ولابد أن يكون فى غاية اللياقة البدنية .. لأنه يأكل من قدمه ، كما يعيش المطرب من حنجرته ، والكاتب من قلمه ، والرسام من فرشاته ..

أما الذى يعيش ليلعب .. فاللعب عنده لذة .. متعة شخصية .. رياضية يقوم بها بمزاجه ، بكامل حريته .. فهو ليس موظفا ، ولا هو مرغم على أن يلعب ، كأى موظف ، وإنما هو فنان حر ..

ولكن أنجح الفنانين هم الذين احترفوا الفن كالهواة ، والذين هووا فى اصرار المحترفين ؟

وربما كان الحكم هو الشخص الوحيد الذى يحترمه الجمهور ، ويحنى له رأسه ، رغم ضيقه منه فى كثير من الأحيان .. رغم أن الجمهور يكره أن يكون محايدا مثل الحكم ..

فالحكم يمثل القانون على الأرض .. أو بين العلامات البيضاء .. ومفروض

أن هذا الحكم موجود وغير موجود . فإذا أصابته الكرة ، وانحرفت بعد ذلك إلى أية جهة ، فلا حساب عليه .. لأنه مفروض أنه شبح .. إنه ظل .. إنه غير موجود .. والجمهور لايعجبه أن يكون كالحكم . موجودا وغير موجود .. لاينحاز إلى فريق دون فريق .. غير متعصب لأحد من الناديين المتنافسين .. ولذلك فمن النادر أن نجد متفرجا يتخذ موقف الحكم ، يجرى بعينيه مع اللاعبين ولا يتفرج عليهم ، ولا يتحمس لأحد الفريقين .. ولم يسلم الحكام من تهمة التحيز لأحد الأندية ـ لكنه غير طبيعى أبدا أن يميل الحكم إلى أحد الناديين ، وفى المباريات الدولية يأتون بحكام من بلاد غير مشتركة فى المباراة !

وفى مباريات كرة القدم كما فى المعارك المتفق عليها ، يوجد رجال الإسعاف ورجال البوليس .

ومعنى ذلك أننا نعرف مقدما أنها معركة ، وأنه من المنتظر أن يصاب أحد المتعاركين .. وأن يسقط على الأرض ، مكسور القدمين أو الذراعين ..

أما رجال البوليس فوضعهم غريب .. إنهم يقفون لحماية اللاعبين ضد الجمهور الذى يحبهم ويتعصب لهم ، ويحلم برؤيتهم ويسعد ويشقى بهم !

هذا الجمهور جاء يتفرج . جاء يتسلى .. جاء يضيع وقته بفلوسه .. ولا بد للاعبين أن يبسطوا الجمهور . فإذا سقط لاعب ، فإن الجمهور يتأثر لحظة ، وإذا توقف اللعب ، فإن الجمهور يتأثر لحظات . لأن وقف اللعب ، تبديد للذة المتفرج .. تماما كما ينقطع الماء وأنت تحت الدش أو كما ينقطع التيار الكهربائى وأنت أمام التليفزيون تتفرج على مباراة كرة القدم ..

ولذلك أنا أعتقد أن ثورة الجمهور على الحكام سببها الحقيقى أنهم يوقفون اللعب مدة طويلة ، فيفسدون بذلك متعة الجمهور !

وفى إسبانيا عندما يتفرج الناس على مصارعة الثيران ، ينسون دماء الثور

المسكين ، ولا يذكرون إلا براعة المصارعين ..

وفى أندونيسيا ، يرون الديوك وهى تمزق بعضها البعض بالسكاكين المربوطة فى أرجلها ، وينسون مذابح الديوك . ولا يذكرون إلا براعة أصحابها الذين دربوها ..

وفى كرة القدم ينسى الجمهور أن أحد اللاعبين قد سقط يتلوى ، وأن الدم ينزف من قدميه .. ولا يذكر الجمهور إلا أن اللعب يجب أن يستمر .. أما اللاعب الذى سقط ، فيجب أن يخرج حتى لا يكون مشوها لمنظر الملعب ، معطلا للعب .. أو على الأصح مفسدا لمتعة المتفرجين .

ونحن عندما نرى الجمهور ينشال وينهبد .. ونرى بعض المتفرجين يصرخون ويرقصون وبعضهم يلطم خديه .. نندهش لهذا الذى يفعله أناس عقلاء .. ولو ذهبت إلى أى واحد منهم فى عمله ، فى مكتبه أو فى دكانه ، وحاولت أن تذكره بأنك رأيته وهو يرقص لغضب منك .. ومع ذلك فهو يذهب إلى المباراة ويرقص .. لأنه ينسى نفسه لأنه وهو بين الناس لا يفكر بعقله فقط وإنما بعقل آخر أكبر من عقله ، عقل الناس ، عقل الجماهير ، هذا العقل الجماهيرى ، هو الذى يجعله يرقص ويلطم دون وعى منه .. والحقيقة أنه بدون وعى واضح .. وإن كان هو فى الواقع يرقص لأن القضية التى وقف وراءها ، وهى انتصار النادى الذى يتعصب له .. فهو يرقص إعجابا بذوقه . وإعجابا بنفسه .. وإن كان الذى يبدو لنا ، هو أنه يرقص لغيره !

وفى هذا الجو الغريب الذى يعيش فيه المتفرجون على مباريات كرة القدم وهم يصرخون أمام التليفزيون فى اللاعبين ، وهم يتوهمون أن اللاعبين قد استمعوا إليهم ، وعملوا بنصائحهم ينسون همومهم عندما يفرحون ويغضبون لهذه المنافسة التمثيلية ، لهذه المعركة الكاذبة بين ٢٢ لاعبا على كرة ..

إن هؤلاء اللاعبين يدلكون أعصاب المتفرجين ، ويدوسون بأحذيتهم

الغليظة هموهم ، ويسددون الكرة إلى شباك متاعبهم ..

... إن المرحلة التالية ، لمتفرج جديد مثلى ، أن يبحث له عن أحد الأندية ليعجب به جدا ، يموت فيه .. ليتعصب له . ولكن لماذا لا يكون إعجابا فقط ؟

والجواب هو : أن لاعب الكرة يجب أن يكون أسبور ، أما المتفرج فيجب أن يكون متعصبا .. ولذلك فليس من التعصب أن أبحث عن أحد الأندية .. لأن التعصب هو أن أجد نفسى قد اخترت ناديا ، بكامل حريتى .. فإذا تعصبت لهذا النادى فمعنى ذلك أن أفقد حريتى ..

ولكنى فى هذه الحالة أكون قد فقدت حريتى بمحض حريتى أيضا !

بدايـــة العبث

لماذا تشرق الشمس
من الغرب ؟

مدرس فرنسي ضرب طالبا صغيرا بالشلوت فسقط على الأرض فى دوامة من الكسوف والدموع وضحكات زملائه الصغار، وعندما نهض عاد إلى بيته ليرسم صورة مضحكة لهذا المدرس جعل عنوانها «المجرم» . وفى اليوم التالى كتب مسرحية يظهر فيها هذا المدرس فى شكل حيوان متوحش يمتص دماء الناس ، ثم يصبح ملكا يقتل كل يوم ألف مواطن ، ثم يهرب فى النهاية إلى أحد الكهوف ، وفى أحلامه يرى أشباح ضحاياه ويصرخ ثم يطلب من الموتى أن يقيدوه ويعلن : أنا الذى أملك الحريات كلها .. أريد أن أكون عبدا لكل الناس .

وعندما ظهرت هذه المسرحية رآها كبار الأدباء فى فرنسا سنة ١٨٨٨ ، ورآها الجمهور فى فزع ورعب .. ولقد أحس الناس أن المسرح ليس إلا مرآة لأعماق الناس .. وكل الأعماق مخيفة موحشة .. إنها تضم تاريخ الإنسان من أيام الغابة حتى يومنا هذا .. فقد رأى الناس فى هذه المسرحية شيئا أكثر وأكبر وأعمق ، من حقد تلميذ صغير على أستاذه ، لقد رأوا كل أحقاد الإنسانية وكل نفاقها ، وكل تناقضها .. يكفى أن الناس يطلبون الحرية ، فإذا أعطيت لهم طالبوا بالقيود . وكان المؤلف الشاب الشاذ أيضا : هو الفريد جارى .

وسأحاول أن ألقى بعض الضوء على هذا المسرح الجديد دون دخول فى التفاصيل ، ودون تعرض للمذاهب الأدبية والفلسفية المتداخلة مع مسرح

اللامعقول .. والتى تغذيه وفى نفس الوقت تعارضه .. إلا بالقدر السريع ..

سؤال : على أى أساس اعتبرت هذه المسرحية بداية لمسرح اللامعقول ؟

جواب : هذه المسرحية هى بداية الثورة الفنية على العلوم الطبيعية التى أساسها القوانين التى تضع كل شىء فى داخل قالب .. فى داخل إطار .. فإذا كان الفنان يرسم التفاحة وهى على الشجرة ، فإن عالم النبات يقطعها ويمزقها ويرسم خلاياها .. هذا يرسمها وهى حية ، وهذا يرسمها بعد أن تموت .. بعد أن تموت التفاحة وصاحب التفاحة وكل الناس .. فالعلم ضد الإنسانية ، ضد الفن .. ولا فن بغير حرية .. ولذلك فالعلم ضد الحرية .

سؤال : هل هذا الاتجاه الجديد فى المسرح ، أقصد مسرح اللامعقول ، غير واقعى .. هل هو اتجاه خيالى خرافى ما دام ينكر قوانين العلم ؟.

جواب : قبل الإجابة عن هذا السؤال يجب أن نتفق على معنى الواقعية .. فالواقعية ضد الواقع . بمعنى أن الواقعية ـ كأى مذهب ـ لها قواعد وأصول . يعنى أنها علم . وما دامت الواقعية علما من العلوم فهى ضد الفن . لأن الواقعية تحاول أن تضع الواقع فى قوالب وإطارات تحطم الواقع وتشوهه .. فالذى ينقل شجرة كبيرة فى صندوق صغير لايستطيع ذلك دون أن يحطم فروع الشجرة ، ودون أن ينقلها من تربتها .. إن «كل» الشجرة قد انتقلت إلى الصندوق .. ولكن هل يمكن أن تكون هذه الشجرة هى التى رأيناها فى الطبيعة .. هل هى نفس النبات الحى النابض ؟ هى شىء آخر .. إنها (طرد) شجرة .. هى « رفات » شجرة .. وكذلك الذى يكتب عن الإنسان كتابة واقعية ، إنه يكتب عن الإنسان ، ويشرح الإنسان .. وكل شىء «عن» الإنسان وليس الإنسان نفسه .

والفرق بين «الواقع» والمذهب الواقعى ـ إذا صح هذا التشبيه ـ كالفرق

بين «الفول الأخضر» فى الحقل ، والفول المدمس فى العلب .. فالواقع هو هذا النبات الأخضر ، والواقعية هى «تعليب» هذا النبات .. أى وضعه فى علبة .. فى قالب .. فى قانون .

ولذلك فالواقع الحقيقى ، هو واقع الأحلام .. واقع الخيال .. حيث يكون كل شىء منطلقا حرا بلا قيود وأكثر واقعية من الواقع نفسه .. فالخرافات والأساطير كلّ شىء فيها كبير جدا ، أو صغير جدا . لا توجد نسب .. لا توجد قوانين العقل العادية .. فالأساطير التى تتحدث عن الرجل الذى يرفع الجبل ثم يلقيه فى المحيط ، والبطل الذى يخوض المياه ويفلق الأرض نصفين .. هذا هو الواقع الحقيقى ، لأنه قد تحرر من القوانين .. من قوانين العقل الصارمة .. لأنه لا توجد به أية نسب .

ثم إن الواقع نفسه متغير .. فكل زمن له واقع خاص به .. ولذلك فكل المدارس الفنية مؤقتة .. أو انتقالية أو «مرحلية» ..

وتشارك فى هذا الشعور بالواقع العالمى الأليم مدارس أدبية وفلسفية أخرى مثل : السيريالية والوجودية !

سؤال : إذن هناك علاقة بين اللامعقول والسريالية أو فوق الواقعية ؟ .

جواب : ليس للسيريالية أثر واضح فى المسرح الأوربى المعاصر . وإن كان للسريالية أثرها الواضح جدا فى الرسم والنحت والشعر . بل إن بعض فنانى اللامعقول قد بدأوا ينظمون الشعر متأثرين بالسريالية ، ولكن عندما كبروا أنكروا مذهب «فوق الواقعية» و «تحت الواقعية» و «فوق الواقعية الجديدة» .. ولكن عندما يهاجم الفنان مذهبا من المذاهب ويلح فى هذا الهجوم ، فلأنه متأثر به .. ولأنه يريد أن يخلع نفسه من جاذبيته .. فالسريالية تعتمد على الحب والأحلام .. والسريالية قد أطلقت ميولا عنيفة فى النفس الإنسانية .. ولكن عيب السريالية ـ من وجهة نظر اللامعقول ـ أنها انبهرت بهذا العالم الجديد

الذى اكتشفته .. ثم أصابها هذا الانبهار بالعمى والصمم .. تماما كالذى فتح عينيه فى قرص الشمس .. وأصابه الضوء الشديد بالعجز عن الرؤية .. فى حين أن الفنان اللامعقول يرى أنه يجب أن يستسلم لمشاعره التلقائية .. فكل عمل فنى يقوم به هو مغامرة فى دنيا جديدة .. هو ارتياد لعالم غريب تنكشف فيه حقائق قوية .. ولكن الفنان يجب أن يتناول كل مشاعره التلقائية بالتوضيح .. يجب أن يضع السدود فى مواجهة المياه التلقائية ، وأن يركب التوربينات العقلية لتوليد الكهرباء التى تضىء سبل المعرفة ، فالفنان يجب أن يستسلم للتلقائية ، ولكن يجب ألا يغرق فيها .. يجب أن يستسلم للموج بشرط أن يظل رأسه على سطح الماء .. أما السرياليون فقد فتحوا عيون المياه ، ولم يقيموا الحواجز .. لقد غرقوا ..

سؤال : إذن من المؤكد أن للامعقول عاقة بالوجودية ، لأن الوجودية أيضا تتحدث عن الموت والعدم وعن تفاهة الوجود ؟

جواب : ربما كان هذا هو رأى الوجوديين . ولكن ليس رأى أدباء اللامعقول . فالوجودية قد أعطت اللامعقول بعض المعانى الأساسية .. مثلا : إن الإنسان قد اكتشف بوضوح شديد أن حياته غامضة .. تماما كما نقول إن الإنسان قد رأى بوضوح تام بقعا سوداء فى قرص الشمس .. وقد اكتشف أيضا أن حياته هذه لا معنى لها ولا قيمة .. وأنه معلق بين السماء والأرض .. لا هو فوق ولا هو تحت . وكل شىء يهدده : الموت والحرب والكوارث والأمراض والأحقاد .. وأن الإنسان لكى ينقذ نفسه من هذا الضياع فإنه يلجأ إلى « فكرة » إلى « مذهب » . ولكن هذا المذهب يقيده يجعله شيئا .. يجعله مسمار فى ماكينة .. ويحشره بين ملايين من الأشياء وبين الناس ، وهذا يصيبه بالدوار .. ولما كان الإنسان يعيش بحكم العادة ، ولما كانت العادة قادرة على « تمويت » وتجميد أى شىء ، فإن هذه العادة قادرة على عزله عن الناس . وما دام قد

انعزل عن الناس ، فإن اللغة وهى وسيلة الاتصال بينه وبين الناس ، هى الأخرى ، تنقطع .. وتتمزق .. وبذلك تتم عزلته .

ولكن أدباء اللامعقول يرون أن الوجودية مذهب يائس متشائم جدا .. وأنه يرفض مشكلة الإنسان ولا يعالجها .. وأن أعظم الوجوديين يكتفى بأن يعلق فى عنق كل إنسان ورقة مكتوبا فيها عبارة واحدة : هذا الكائن مولود لكى يموت .. ويجب أن يموت .

ولكن أدباء اللامعقول يرون أن هناك مسرحية واحدة فى كل الأدب الوجدى هى اللامعقولة وهى مسرحية «جلسة سرية» للفيلسوف سارتر .. أما بقية مسرحياته وقصصه فهى لا تساوى وزنها ورقا ..

ومن المؤكد أن مشكلة «الاتصال» بالغير .. أو مشكلة «اللغة» هى من المشاكل الأساسية فى مسرح اللامعقول .. واللغة إما أنها هى سبب العزلة بين الناس ، وإما أن العزلة بين الناس هى التى جعلت اللغة مشكلة .. فاللغة هى وسيلتنا إلى نقل المعانى . ولكن أدباء اللامعقول يرون أننا وسيلة اللغة إلى نقل المعانى . ولذلك رأينا مسرحيات لامعقولة ينطلق فيها الممثل يتكلم .. وكأن عليه «عفريتا» وهذا العفريت هو الذى يتكلم .. والذين شاهدوا مسرحية «الكراسى» فى القاهرة يشعرون أن الممثل كان يتكلم ، وكان الكلام يخرج منه تلقائيا .. ولذلك اقترح بعض النقاد على المؤلف أن يأتى بجهاز تسجيل بدلا من الممثلين .. وكان رد المؤلف : أن هذا بالضبط هو الذى أريد أن أعمله .

ولو أن واحدا قرر أن يناقش معانى الألفاظ العادية المتداولة ، أو أنه حاول أن يعرف معانيها من جديد ، أو أنه التفت إلى ما يقوله للناس وما يقوله الناس له ، كل يوم ، لأدرك بوضوح أننا جميعا نتكلم بلغات مختلفة .. وأننا نسأل بحكم العادة ، وأن هذه العادة قد قضت على الدهشة ، التى هى العلم والمعرفة .. وأن اللغة أصبحت ليلا ليس له فجر .

سؤال : هل مشكلة اللغة سببها أن أدباء اللامعقول فى فرنسا ، كلهم من الأجانب ، وأن اللغة الفرنسية هى إحدى مشاكلهم ؟

جواب : يبدو هذا وجيها ومعقولا ، ولكن ليس هذا هو السبب الحقيقى . فنحن نعرف الثمانية الكبار فى أدب اللامعقول : يونسكو من (رومانيا) وبيكت (ايرلندى) وأداموف (روسى) وأرابال (أسبانى) وجلدرود (بلجيكى) وبوتسانى (إيطالى) وتارديبه (سويسرى) وشحاده (لبنانى) ـ وتوفيق الحكيم من مصر ... ولكن اللغة ليست مشكلة هذا الأديب المصرى .. وهؤلاء الأدباء الكبار يمكن اعتبارهم فرنسيين وأساتذة فى اللغة وفى الفن .. فهم ليسوا غرباء فى فرنسا . ولكن المشكلة هى مشكلة الغربة والغرابة والاستغراب فى العالم كله .. وإحساس الإنسان بأنه وحده .. بأنه يلقى مصيره وحده .. بأن كل شىء يحيط به ويتهدده .. وأن الإنسان جزيرة محاطة بالموت والدمار من كل ناحية .. وأن الناس ليسوا إلا أفرادا غرقى .. ولا يمكن أن يوصف الناس الغرقى فى بحر واحد ، انهم مجتمع ، لمجرد أنهم ضحية بحر واحد .. ولكن هذا البحر ، وهذا الشعور بالضياع ، قد فرق بينهم .. قد باعد بينهم .. فليس بينهم كلام .. فليست بينهم لغة .. وأصبحت اللغة عاجزة عن أن تبوح بشىء .. لا هى قادرة على حمل نفسها من إنسان إلى إنسان ، ولا الإنسان قادر على أن يحملها منه إلى غيره .. ولذلك وجدنا فى بعض المسرحيات اللامعقولة ، أناسا يطلقون مجرد أصوات .. وبعد ذلك يفضلون الصمت .. فالصمت معناه : إننى لا أعرف ماذا أقول ، وحتى إذا قلت ، فكأننى لم أقل شيئا .. كأننى أطلقت أصواتا ولم أطلق معنى من المعانى .. ومعنى الصمت أيضا أننى أتكلم لغة ، أية لغة ، ولكن أحدا لا يفهمها ، فكأننى لم أتكلم ، وكأننى لم أقل شيئا .. وكأننى مجنون وسط أناس عقلاء ، أو كأننى عاقل وسط أناس مجانين .. لا صلة بيننا ..

سؤال : هل من أجل هذا سميت هذه المدرسة فى المسرح باللامعقول ؟

جواب : كلمة « لامعقول » ترجمة غير دقيقة لكلمة فرنسية معناها « العبث » أو « الشذوذ » أو « النشاز » .. وانتشرت كلمة اللامعقول لأنها أقرب إلى مايتبادر إلى عقل المتفرج أو القارئ لهذا النوع من المسرحيات .. واللامعقول ـ فى هذه الحالة ـ يصبح شيئا يتنافى مع العقل . والحقيقة أنها لا تتنافى مع العقل ، وإنما هى شىء غير مألوف فقط .. شىء لايمكن أن يوصف بأنه عادى .. فاللامعقول هنا معناه ، أنه يتنافى مع التقاليد المألوفة فى المسرح .. لأن كل مسرحيات اللامعقول ليست مسرحيات بالمعنى المألوف . ولكنها جميعها معقولة ومفهومة .. والغرض منها واضح . فهى « لا مسرحيات » وهى معقولة .. وعلى ذلك فالتسمية المناسبة هى « اللامسرح المعقول » .

ولكن الترجمة السليمة هى أن نسمى هذا الاتجاه « بمسرح العبث » .. والعبث هنا ليس ضد اللعب .. لأن اللعب له قوانين وقواعد . فكرة القدم لعب ، ولكن لها قواعد . والشطرنج لعب ولكن له نظريات . فالعبث إذن ليس هو اللعب .. وإنما العبث معناه الشعور بأنه لا معنى لقوانين اللعب ، أو قوانين الطبيعة .. وأنه لا قيمة لأى شىء ، ولا ضرورة لأى شىء . وأن وجود الإنسان ليس ضروريا وأنه من الممكن ألا يكون .. وأن كل شىء جائز . وأن الحياة فى حقيقتها تافهة ، وأننا نحن الذين نجعل للحياة قيمة . ولكن الحياة نفسها لا قيمة لها . فنحن الذين صنعنا الورق من لب الخشب ، ونحن الذين سطرنا الورق ، وكتبنا عليه .. ولكن كان الممكن ألا يوجد شجر ولا كاتب ولا قارئ هذه السطور ..

وهذا بالضبط هو جوهر الفلسفة العبثية عند سارتر وكامى ويونسكو وبيكت وغيرهم ..

فكلمة اللامعقول ـ مثل كلمة اللامركزية ـ فاللامركزية ليس معناها أنه لا يوجد مركز .. وإنما معناه أنه لا يوجد مركز واحد لكل الإدارة . وإنما توجد مراكز كثيرة . واللامعقول قريب من هذا المعنى . فلا يوجد قانون واحد لكل شيء ، وإنما توجد قوانين مختلفة .. قوانين متضاربة متناقضة . وطبعا فى هذه الحالة لا يمكن تسميتها بالقوانين . وإنما كل إنسان له قوانينه الخاصة . وكل كائن له مبرر وجوده الخاص . ولا توجد « طبيعة إنسانية » واحدة ، وإنما توجد صفات متغيرة لأى إنسان .. وهذه « الطبيعة الإنسانية » تتغير بتغير الأعمال التى تقوم بها .. فالإنسان هو مايؤديه من عمل ..

هو يكتب .. إذن هو كاتب . هو يسرق .. إذن هو لص .. وإذا كان الكاتب واللص إنسانا واحدا فهو الذى اختار هذا العمل ، هذا الموقف . فأنا اخترت ما أعمل ، إذن أنا أساوى ما أعمله .. وإذا اختلفت أعمالى اختلفت صفاتى. أيضا .

وكان الشاعر بودلير يقول : إن وثيقة حقوق الإنسان قد أغفلت حقين من حقوق الإنسان هما : حق الإنسان فى أن يتناقض مع نفسه ، وحقه فى أن يهرب .

سؤال : ما هى الأسباب التى دفعت هؤلاء الأدباء إلى أن يختاروا هذا الاتجاه الغريب فى المسرح ؟

جواب : أسباب كثيرة غريبة عنا ولم نشعر بها . ولا يبدو أننا سنشعر بها ونحن فى مستهل نهضتنا الاجتماعية والاقتصادية . فنى بداية هذا القرن ارتفعت الصرخات فى أوربا كلها . ارتفعت تنادى بإفلاس الإنسانية .. وإن الإنسان أصبح عاجزا عن تحقيق إنسانيته .. فالإنسان يقتل الإنسان ، والإنسان يتحول بالعلم والاختراع ، إلى قاتل مستنير ، إلى وحش مثقف ... فبدلا من أن يقتل لسبب معروف ، فإنه يقتل الألوف من الناس لأسباب لا يعرفها .. إنه

يتحمس ، ويفقد إنسانيته وحريته ، وحياته لأسباب غير معروفة مقنعة .. وإن الإنسان نبهى أنه سيموت ... ولابد أن يموت فما الذى يدفعه إلى أن يتعجل نهايته ..

وجاءت الحرب الأولى واشتعلت أوربا وأحرقت آمالها وأحلامها .. وجاءت الحرب الثانية .. وجاءت الحرب الباردة والخوف من الحرب الرابعة الحامية .. وولد الأدباء بين الحربين .. وكل شىء حولهم ينهار ويتحطم .. لقد انزرعوا فى الموت ، وهم اليوم يحصدون الموت ويتطلعون إلى الضياع .. وليست مسرحيات اللامعقول إلا صورة من صور الضياع الإنسانى .. ضياع المعنى ، وضياع اللفظ ، وضياع الإنسان بين الإنسان .

سؤال : إذا كانت هذه المدرسة الأدبية ، تعبر عن الواقع الحضارى الحزين فى أوربا ، فلماذا نحرص على عرضها فى مصر ، وما دامت هذه المدرسة الأدبية هى تصريح بدفن الروح الأوربية ، فلماذا نشيع هذا «الفقيد» فى مصر : هذا البلد الناهض ؟

جواب : إن المعرفة والعلم بهذه المدرسة هما وحدهما اللذان يقضيان على خوفنا منها .. لقد كان الحيوان المفترس الذى يشبه أبا الهول يقطع الطريق على الناس أيام الإغريق . كان يخيفهم وكان يعتدى عليهم ، إلى أن أظهر له شاب . وهذا الشاب عرف سره ، فلما عرف سره مات هذا الوحش .. فالمعرفة بأسرار هذه المدرسة ، هى التى تقضى على خوفنا منها .. فهذه المدرسة ، وكل مدرسة فى الأدب أو فى الفن أو الفلسفة . يجب أن نعرفها ، يجب أن نستفيد منها .. وهذه المدرسة لا تزال موضع دهشة الناس فى أوربا ، ولا يزال رواد مسارح العبث فى العالم كله ، قليلين .. ثم إن الخوف على الناس ، لدرجة أننا لا نعرض عليهم الاتجاهات الجديدة أو التجارب الطليعية فى المسرح ، معناه أننا لا نثق بالناس .. وأننا نتصور أنهم أطفال صغار لا يعرفون ما يضرهم وما ينفعهم .. ثم

أن مسرح العبث رواده من القلائل جدا .. ومن المتخصصين بدرجة ما ...

ولأننا نولد ، ولأننا ننمو ، ولأننا نكبر ، ولأننا نبنى ، وننهض .. ولأننا فى شبابنا الحضارى فلا يضايقنا ولا يخيفنا كل أمراض الشيخوخة .. بل إن هذه الأمراض تصبح عبثا .. فلو قلت لشاب أن يتوقف عن الانفعال لأن هذا الحماس قد يصيبه بمرض السكر ، فإنه لن يتوقف .. ولو قلت لطفل صغير ، إن ركوبه للبسكليت قد يصيبه بالبروستاتا ، فستصبح هذه الكلمة ، وأنت أيضا ، شيئا يبعث على الضحك ..

سؤال : ولكن أليس تكرار الكتابة عن مسرح العبث ، والدفاع عنه بما فيه من يأس ومرارة يدفع الناس إلى اليأس أيضا وحينئذ يصبح هذا الاتجاه الأدبى ضارا للشاب المتفتح ؟

جواب : يجوز ، لولا أن هذا الاتجاه الأدبى لا يزال فى أضيق نطاق ولا يزال الذين يهتمون به من القلائل جدا ومعظم هؤلاء القلائل لم يستوعبه بما فيه الكفاية ، حتى مسرحية توفيق الحكيم وهو فنان مصرى صميم ، لم يفهمها الكثيرون . وقد اختلفنا فى تفسيرها باعتبارها مرحلة من مراحل الأدب ، ومن مراحل تطور الحكيم نفسه .. وثم أن مسرح العبث ليس متشائما كالوجودية ، وليس متفائلا كالسيريالية . ولكن مسرح العبث يؤمن بأن الإنسان سيبقى وأنه سيتفوق على ضعفه فى النهاية ..

وفى سنة ١٩٤٢ ظهرت فى أمريكا مسرحية «نفدنا بجلدنا» للكاتب ثورنتون وايلدر . وهى تروى تاريخ الإنسان كله من أيام آدم وحواء . بل قبل ذلك بملايين السنين . فقد ظهر آدم وأولاده على المسرح . وظهر نوح وأولاده على المسرح واجتاحت المسرحية نيران وطوفان وحروب ، ولكن بقى الإنسان كما هو يتفرج فى السينما ، يلعب بإبرة التريكو والمؤلف يريد أن يقول إن الإنسان ، رغم

المصائب ، سيبقى وسيظل قادرا على أن يروى ذكرياته وسينفد بجلده .. وفى داخل جلده هذا سيولد من جديد ويقاوم كل عوامل الفناء من جديد فكل شىء يفنى ، ويبقى الإنسان .

ومسرحية «فى انتظار جودو» لصمويل بيكت تدل على أن الإنسان ينتظر شيئا ، قوة ، معجزة تغير له حياته .. وأنه فى هذا الانتظار ورغم هذا الانتظار ، وبسبب هذا الانتظار ، لم يفقد الأمل .. بل إنه ما يزال يضحك أو يبعث على الضحك .

فالإنسان قد أطفأ الأنوار حواليه . ثم اضاء فى داخله شمعة صغيرة هى الأمل فى أن تضاء الأنوار من جديد فى كل مكان .. خارج الإنسان وداخله أيضا .. فالأمل لا يزال هو النجم الساهر فى حياة الحضارة الأوربية المحتضرة .

سؤال : إلى أى حد تعتبر الحرية المطلقة عبثا أو نوعا من العبث ، وإلى أى حد اعتبر النقاد مسرحية «كاليجولا» للفيلسوف كامى ، هى البيان الرسمى لمسرح العبث كله ؟

جواب : لا توجد حرية مطلقة . وإنما توجد حرية فى داخل قيود . ونحن عندما نقاوم القيود فإننا نتقيد بها أيضا .. إننى لكى أكسر شجرة ، فإننى أبحث لها عن الأداة التى أكسرها بها .. وفى الوقت نفسه أكتشف أننى قادر أو عاجز عن تحطيمها .. فأنا أتقيد بها وبشروطها بعض الوقت لكى أزيلها .. ولكى أتحرر من جاذبية الأرض ، فإننى أظل مربوطا بها .. ولكى أهاجم قيود اللغة ــ كما فعل أدباء اللامعقول ــ فذلك عن طريق اللغة .. أى عن طريق التقيد مرة أخرى بقواعد اللغة .. ولكن عندما نرفض القيود ، نفقد المقاومة .. ونفقد متعة الانتصار على العقبة .. ونفقد العالم الذى حولنا .. تماما كالذى يركب سيارة ويدوس الناس .. ويكسر علامات المرور .. ثم يطلق الرصاص على أى أحد ، بلا مناسبة ومن غير سبب .. يصبح العالم كله فارغا .. عالما كله من الأشباح ..

عالما انعدمت فيه الحواجز والفواصل واللذة والألم والحرية والقيود.. وكذلك فالحرية المطلقة من أى قيد أقصى العبث .. فروبنسون كروزو فى الرواية التى كتبها دانيل ديفو عندما عاش فى جزيرته ، كان فى استطاعته أن يعمل أى شىء .. كان يمشى عاريا حافيا ، على يديه ، على رأسه .. إنه لا يمكن أن تكون هناك قيود، لأنه لايوجد مجتمع ولايمكن أن تكون هناك أخلاق.. فلافضيلة ولا رذيلة ولا يمكن أن يكون أمينا أو لصا .. لأنه ليس هناك أحد ..

فالذى يستطيع أن «يعدم» كل ماحوله وكل من حوله، فهذه هى الحرية المطلقة وهذا الشعور هو العبث .. وقد كان الإمبراطور «كاليجولا» يعانى أزمة الحرية المطلقة .. أزمة العبث .. فهو يطلب أحد الجلادين ثم يخطف السيف منه .. ثم يقتل الجلاد .. ويضحك الإمبراطور العابث لهذه النكتة .. نكتة الجلاد يموت بسيفه هو .. بينما المألوف أن يموت أى انسان آخر بسيف الجلاد .. ثم يكتشف الإمبراطور العابث أن أحد الوزراء يرتدى ثوبا أجمل من ثوبه فيقتله .. ويتساءل الإمبراطور : وأى ضرر فى أن يكون ثوب الوزير أجمل .. ؟ ولماذا يكون ثوب الإمبراطور هو أجمل ثوب ؟ هل هذا ضرورى ؟! ويضحك الإمبراطور لهذه النكتة السخيفة أيضا .. ويلاحظ الإمبراطور أن الجماهير اندهشوا بعض الوقت .. ولكن لا شىء تغير.. فبعد أن ضحك الناس راحوا يفتشون عن متعة جديدة .. ثم يعودون إلى بيوتهم .. وأغرب من هذا كله يلاحظ الإمبراطور كاليجولا أن الشمس تغرب وتشرق فى مواعيدها .. وأن شيئا فى المجتمع أو فى الدنيا لم يتغير.. ويصرخ الإمبراطور : ما الفائدة من هذا كله ؟ لماذا لا يحدث أى تغيير فى الدنيا .. ماذا يحدث لو أن الشمس أشرقت ولو مرة واحدة من الغرب ؟!

وليست مدرسة العبث فى أوربا ، إلا محاولة فنية لإكراه الشمس على أن تشرق ولو مرة واحدة ــ على المسرح ــ من الغرب !

سميراميس ..
والكراسي الخالية !

قبل نهاية المسرحية بدقائق ظهر الرجل الثالث فى المسرحية .. الرجل الذى انتظره كل الحاضرين على المسرح وكل المتفرجين فى الصالة . إنه الرجل الذى سيتحدث . صناعته الكلام . مهنته أن يشرح ما عجز عنه بطل المسرحية . إنه يشبه هارون أخا النبى موسى . فإذا كان موسى معقود اللسان فأخوه هارون فصيح .. وهذا هو فصيح المسرحية .. ويختفى بطلا المسرحية . على أثر ظهور هارون .. وينتظر الناس ما سيقوله هارون .. ولكن هذا الهارون يقترب من السبورة الموضوعة على المسرح ويمسك قطعة من الطباشر .. ويكتب حروفا مثل ملامحه .. لامعنى لها .. ويتطلع إلى الناس لعلهم أدركوا مايريد .. ولكن أحدا لم يفهم شيئا .. ولكنه بمجهود هائل أو بقوة غريزته يكتب كلمة واحدة على السبورة هى : وداعا .. وهنا فقط ينزل الستار وكأنه يتستر عليه أو كأن الستار شبكة المرمى وكأنه كرة وترافقه موسيقى عنيفة كأنها تكنسه من عيون وآذان الناس .. ولا تزال تلاحقه حتى يخرج المتفرجون من كل أبواب المسرح سنة ١٩٥٢ .

وفى هذه الأثناء وقف خمسة من أعلام الأدب والفن فى فرنسا فى لحظة واحدة ليقولوا كلمة واحدة : برافو !.. هؤلاء الخمسة هم صمويل بيكت وأداموف وبيكاسو ومالرو ومؤلف المسرحية يوجين يونسكو .

وكانت معظم مقاعد المسرح خالية .. وكان شباك التذاكر كأنه ديكور فى المسرحية .. مفتوح للزينة .

وقد حاول بطلا المسرحية أربعة شهور أن يظهرا بالصورة اللائقة .. ولكن المخرج احتار فى فهم المسرحية .. هل يظهر البطلان الوحيدان بصورة بطيئة أو بصورة سريعة .. هل يكون الاثنان عجوزين فعلا .. أو يكون الاثنان شابين رغم أنهما فى الخامسة والتسعين والرابعة والتسعين.. لقد تعب البطل من تمثيل دور العجوز ومن انحنائه المستمر حتى كانت المسرحية مهددة بأن تبقى ورقا مطبوعا .. فليس من العقل أن يظهر الممثل بهذه الصورة المجنونة الغامضة ..

وبعث المخرج يسأل المؤلف : أريد أن أفهم ما الذى تقصده بالضبط من ظهور بطلين اثنين فى المسرحية لمدة ثلاث ساعات وليس معهما إلا عشرات من الكراسى الخالية على المسرح ومفروض أن هذه الكراسى يجب أن تبدو كما لو كانت مليئة بالناس .. ومفروض أن يتحرك البطلان بين الكراسى برفق وبصعوبة حتى لا يصطدما بأحد من « الموجودين » .

وكان رد المؤلف يوجين يونسكو : أن البطلين ليسا فى الدرجة الأولى من الأهمية .. وإنما المهم هو الكراسى الخالية .. المهم هو أن يكون هناك فراغ على المسرح .. أن يكون هناك عدم .. أن يكون هناك أناس لا تراهم ولاتسمعهم ، ومفروض أن نراهم وأن نسمعهم .. إننى أردت بهذه الكراسى أن أجعلها صورة للعدم .. للوهم .. صورة لليأس . لفشل الإنسان أمام الإنسان .. أردت أن أبين أن الاتصال بين الناس صعب .. فلا يزال الناس عقبة أمامنا .. ولا يزال توصيل المعانى والأفكار للناس شيئا صعبا .. فالكراسى هى الأهم !

ويوجين يونسكو فى الخمسين من عمره مولود فى باريس من أم فرنسية .. ولكن أباه من رومانيا .. وعاش طفولته فى باريس ، وبقية عمره حتى بداية الحرب الأخيرة فى رومانيا ولغته الأولى هى الفرنسية ، والثانية هى الرومانية ، والثالثة هى الإنجليزية والرابعة هى امتصاص أعواد المسرح الخشبية ، كما يقول هو ..

وكل مايذكره عن باريس أيام كان طفلا هو صور من الرعب والفزع .. إنه حتى اليوم لاينسى الحوارى الضيقة المظلمة ، والناس فيها أشباح .. أو كالأشباح .. هؤلاء الناس كلهم كانوا أحياء ، واليوم موتى .. أصبحوا أشباحا .. وهذه الفكرة أو هذه الصورة تجعله يدوخ .. فسيكون فى يوم ما شبحا فى حارة ضيقة ، يتذكرها طفل غريب ويدوخ !

ولاينسى الأراجوز فى حدائق باريس .. إنه عمل فنى رائع .. لقد كان يجلس طوال الوقت أمام الأراجوز .. أمام عرايس تتكلم .. أمام عرايس يشدونها بخيوط .. والخيوط يمكن رؤيتها .. ويمكن لمسها ـ الخيوط التى تحرك الناس .. والأيدى التى تحرك الخيوط هذا هو الصدق .. هذه هى الحقيقة : نحن أراجوزات تمسكها خيوط ، والخيوط فى أيد إنسانية .. فى أيدى أناس عاديين .. يتعبون ويجوعون ويشتهون .. فلماذا لاتظهر هذه الخيوط على المسرح لماذا نجعل هذه الخيوط خفيفة .. لماذا لايظهر فى مسرحياتنا الممثل والمخرج والمؤلف والمنتج .. لماذا يختفى هؤلاء الناس .. لماذا لانريد أن نرى العقل وهو يفكر فى حيرة وفى يأس .. لماذا لانريد أن نرى إلا مايعجبنا ، وإلا مايبعث فينا الأمل ؟

أما اليأس والخوف والفزع والموت والانتحار وعجز الإنسان أن يفهم الإنسان وعجز الألفاظ عن حمل المعانى لماذا لانرى هذا كله ونرسمه ونحرص عليه !

هذه مشاكل الطفل والشاب والرجل : يونسكو .. إنها مشاكل قديمة .. ولكنه مؤمن بأن حياتنا قوالب .. كليشيهات .. أسئلة معروفة وإجابات معروفة ..

ولكى نعبر عن أشياء جديدة ، لابد من ألفاظ جديدة .. أو تركيبات لفظية جديدة .. أو عبارات جديدة .. هذه القوالب لايضيرنا أن نكسرها .. هذه

الأجراس لماذا نخاف من تحطيمها .. إن الحقيقة الإنسانية بعيدة الجذور.. ولا يمكن الوصول إليها .. وإذا حاولنا الوصول إليها ، فليس من المستحيل أن نصل .. وهذا هو التناقض فى حياتنا .. إننا نحاول أن نصل إلى المستحيل .. وعندنا أمل !

ويقول يونسكو : يجب أن نعرف مشاكلنا .. ومشاكلى .. متاعبنا .. ومتاعبى .. مخاوفنا ومخاوفى .. فإن هذا هو الطريق الهادى إلى ظلمات نفوسنا .. ونفسى .. والفن هو أن تعبر عن الحقيقة التى يمكن الوصول إليها ، ونحن نحاول الوصول إليها ، وأحيانا يمكن الوصول إليها . وهذا تناقض .. ولكنه حقيقة أيضا !

أما الذى فعله يونسكو للمسرح الفرنسى فهو بعبارته هو : ليس كثيرا ما فعلت ولكنى حاولت كثيرا .. إننى أردت أن أجعل المعانى شيئا تراه .. أرض المسرح لها معنى .. سقف المسرح له لغة .. ستارة المسرح لايمكن أن تظل صامتة .. إننى حاولت أن أجدد اللغة ، فجعلت لكل هذه الأشياء الجديدة ألسنة يسمعها المتفرجون . ولا أعتقد أن هذا بالشىء القليل .

أما هذه المسرحية التى أتحدث عنها فى مسرحية «الكراسى» ليوجين يونسكو .. ولها بطلان عجوزان . الرجل فى الخامسة والتسعين وزوجته فى الرابعة والتسعين .. والرجل الفصيح الذى سيظهر فى نهاية المسرحية فى الخمسين .. أما هذا الرجل فيعمل بوابا لقلعة مهجورة فى جزيرة مهجورة .. بواب لهذا المكان الذى لايرتاده أحد .. والجو شاعرى جدا .. والعبارات حلوة .. واللمسات عميقة .. والاثنان ينتظران قدوم عدد من الزوار الأكابر. كل وجهاء البلد من رجال العلم والأدب والطب والدين وأقلامهم وأوراقهم وبيوتهم .. والإمبراطور .. وكل هؤلاء الناس سيجيئون فى الزوارق إلى هذا المكان المهجور ليستمعوا إلى ما يقوله البواب .. فالبواب عنده مايقوله .. عنده تجربة عمره ..

خلاصة حياته الطويلة يريد أن ينقلها إلى الأجيال القادمة ، وهو يحدث زوجته التي جلس على حجرها كيف سيروى هذا كله للسادة الأكابر .. وعندما يروى هذا كله وبصدق وإخلاص تنتهى رسالته فى الحياة .. إنه كالثمرة : لقد نضج ، ويجب أن يسقط .. أن يموت .

ويجيء الضيوف واحدا وراء واحد .. وطبعا نحن لا نرى أى ضيوف .. وإنما مفروض أن يدخل أناس وأن يستقبلهم العجوز .. وأن يأتى لهم بالمزيد من المقاعد من الأبواب العشرة للمسرح .. ومفروض أن يتحدث إليهم بأدب عن كرمهم ورقتهم لأنهم شرفوه بالحضور .. وكلما جاء واحد أو اكثر ، أتى لهم العجوز بمقاعد أخرى .. حتى يمتلئ المسرح بعشرات المقاعد الخالية .. ثم تعلن الموسيقى والأضواء ، والارتباك الذى أصاب الرجل وزوجته أن الإمبراطور قد حضر .. أهلا بالإمبراطور .. مرحبا ياصاحب الجلالة .. شرفت المكان .. عجلت بنهاية المسرحية ونهاية البطلين على شيء فى الدنيا .. فعنده الآن تجربة طويلة ، وعنده مايقوله .. فلابد أن يقف الرجل وزوجته استعدادا للرحيل لقد حصل .. ولكنه لايعرف كيف يقوله .. فليس من الضرورى أن يعرف الإنسان الكثير ، لكى يعرف كيف يعبر عنه .. إن الذهب لايرن وحده لابد من يد تمسكه وتلقى به على الرخام .. وكذلك هو ذهب ينقصه اللسان المعبر ، والرخام الذى يرن عليه .. ولذلك يعلن الرجل أن متحدثا وخطيبا سيحضر حالا لينقل خلاصة تجاربه إلى الأجيال القادمة .

ويظهر على المسرح رجل حقيقى .. وتلمسه الزوجة وتقول : إنه حقيقى .. إنه موجود ..

ولكن شكل الخطيب كأنه شبح .. وجهه .. حركاته .. ملابسه الرومانتيكية لحيته كأنها تمثال مرسوم ، فى داخله طفل صغير يحركه فى تردد .. ويتقدم الخطيب من السبورة فى أعماق المسرح .. وينزع قبعته ، يحيى الإمبراطور الخفى ..

وهنا يتحدث الرجل العجوز ، ويطلب من السادة الضيوف أن يلتزموا الصمت والهدوء .. ثم يشكرهم على حضورهم ، وعلى هذا الشرف الذى ناله ، وأنه لم يكن يحلم بشيء أكثر من هذا .. ثم يوجه خطابه إلى الحاضرين والغائبين من الرجال والنساء والأطفال .. ويشكر صاحب القلعة والمهندس الذى بناها والعمال الذين حملوا صخورها .. والنجارين الذين صنعوا المقاعد التى يجلس عليها السادة الضيوف وكيف ينسى هؤلاء الذين جعلوا الجلوس شيئا مريحا !.. ويشكر العمال الذين يشتغلون فى الورق .. وفى الطباعة .. والمحررين والمذيعين كما يشكر زوجته سميرا ميس .. ويشكر جلالة الإمبراطور على تعطفه وتلطفه بالحضور .. فلولا جلالته ما كانت هذه الحفلة شيئا مذكورا .. ويشكر الذين تفضلوا وساهموا بتكاليف هذه الحفلة ..

ثم يتوجه إلى الإمبراطور ويقول : اليوم أكملت رسالتى .. وعشت طويلا .. ولا أطمع فى أكثر من هذه الحياة الهادئة .. وسيتولى السيد الخطيب شرح فلسفتى للعالم كله .. وستكون شيئا من بعدى .. فالإنسان يجب أن يترك شيئا وراءه .. فالإنسان ليس مدينة أو حجرا .. يجب أن يترك شيئا . وأنت يا أيها السيد الخطيب : اشرح حياتى كما يحلو لك .. ولاتنس حياتى الخاصة ، مهما كانت مضحكة .. ولكننا ــ أنا وزوجتى المخلصة ــ قد عشنا حياة طويلة ، ندافع عن الحق وعن العدل .. ولم يبق أمامنا الآن إلا أن نخلى المسرح لغيرنا .. إن أحدا لم يطلب منا ذلك ، ولكن هذا هو الحل الوحيد لنا .

ويقفز الاثنان إلى البحر ، كل واحد منهما من نافذة وهما يهتفان معا : يحيا الإمبراطور .. ويبقى الخطيب يشرح هذه الفلسفة .. وهو لايعرف .. لأنه أصم أبكم .. ويحاول أن ينطق ببعض الحروف .. ولكنه لايستطيع وأخيرا .. يكتب كلمة الوداع ويدير ظهره للجمهور .. وظهره هو الستار الذى لم تكتب عليه كلمة النهاية !

اثنان وحدهما فى قلعة ولا يعرفان كيف يتصلان بالناس .. لأن المجتمع مشكلة .. عقبة .. ولأن الذى يربط الناس بعضهم ببعض .. ليست هى العلاقات الاجتماعية وإنما هى علاقات أعمق وأوسع .. فالإنسان عاجز عن أن يعبر عن نفسه .. عاجز عن أن يعرف نفسه .. وعندما يبحث له عن مؤرخ ، عن وسيلة للتعبير ، تكون هذه الوسيلة عاجزة أيضا !

والإنسان يصطدم بزحام من الفراغ .. من الكراسى الفارغة ، من الناس الفارغين وهذا الفراغ ليس فراغا تماما ، إنه مليء بالأوهام ، مليء بأشياء معقولة ..

ولا أعرف لماذا اختار المؤلف اسم سميراميس لهذه الزوجة ربما إمعانا فى السخرية .. فهو أطلق على مسرحية الكراسى اسم « مأساة هازلة » وسميراميس هذه كانت ملكة من ملوك آشور .. وكانت امرأة جميلة شرهة ، وكثيرا ما قتلت الرجال وكانت تشتهى ابنها .. ويقال إنها كانت حمامة وهى صغيرة ، ويقال إنها تحولت إلى حمامة بعد الموت .. وكانت كملكات النحل ، وكانت تأتى بضباط جيشها وكانت تطلب إليهم أن يطاردوها تماما كملكة النحل .. ثم تقتل أقوى الذكور . رجلا كل ليلة .. كشهريار الذى كان يقتل امرأة كل ليلة .

والزوجة فى هذه المسرحية ليست إلا ظلا سخيفا للزوج .. إنها صداه .. صورة منه .. إنها تنطق النصف الأخير من كل جملة يقولها ..

والسؤال الذى يتردد عادة هو : ماهى الفائدة وما معنى هذه المقاعد الخالية ؟ لماذا العبث ولماذا اللامعقول : ماهو الهدف من هذه المسرحية التى تشيد بالفراغ والعدم ؟ أين الذى ينفع الناس ؟

وكلها أسئلة معقولة ..

والجواب من عند المؤلف يوجين يونسكو : « يجب ألا يسألني أحد عن الهدف من وراء هذا المسرح .. مسرح العبث .. فليس هذا من شأني .. فالفنان يجب أن يعبر عن الحقيقة .. أن يحاول التعبير ، أما الذى يبحث عن الهدف ، والغاية الأخلاقية وما ينفع الناس ، فهو رجل السياسة أو رجل الدين .. أما أنا ، فأفتح الطريق ، وأشق الصخور ، وألق بالأضواء هنا وهناك .. أما الذين يشقون الطريق ويقيمون الجسور ويبنون المدن ، فهم أناس آخرون ، لست واحدا منهم .. ويجب ألا أكون .. فالفن يجب ألا يعبر عن مذهب عقلى ، أو فلسفى أو سياسى .. وإنما يعبر فقط عن الحقيقة التى يحسها الفنان .. وهذه مادة خام .. وثيقة .. اعترافات شاهد عيان .. أما السادة المحققون .. والباحثون عن العدل الاجتماعى ، فتجىء مهمتهم بعد ذلك ... » .

* * *

إن المسرح العبثى ليس إلا راحة للعقل من التفكير المنظم .. من التفكير المألوف .

لقد تعب العقل من قيوده .. فالعقل كالعنكبوت ، يفرز مصيدته .. وكدودة القز تفرز كفنها .. وقد آن للعقل أن يستريح ..

وهذا الاتجاه العبثى فى المسرح ليس خاليا من العقل .. وإنما هو إجازة جديدة منظمة للعقل .. ولكن بعقل أيضا .. فإذا كان الإنسان فى يوم عطلته لايرتدى الكرافته ولا يحلق لحيته ، ولا يصحب معه مكتبه وموظفى مكتبه ، ورئيسه ومرءوسيه ، فليس معنى ذلك أنه لايعمل وأنه ليس موظفا ، وأنه لايعرف كيف يرتدى كرافته ..

وإنما هى إجازة معقولة للعقل : إعفاء العقل من عقاله ، من قيوده .. فالفنان العبثى يشبه مدرس الحساب الذى أعطى لجدول الضرب إجازة ..

فوقفت السبعة إلى جوار السبعة ، وانضربا بعضهما فى بعض ولم تكن النتيجة المألوفة : ٤٩ .. وإنما من الممكن أن تكون ٩٤ .. فهذا لايهم .. وإنما الذى يهم هو أن العقل أخذ من نفسه إجازة مدروسة .. إجازة فنية .. إجازة يمارس فيها الغوص إلى أعماق نفسه وأعماق الناس .. إجازة ليعوم ويغطس ويصيد الأسماك الصغيرة أو يشير إلى وجود عروق مرجانية فى البحار المجهولة .. يغوص ولكنه لايغرق ، يقوم ويتظاهر بأنه يغرق ..

ولكن الذين يتحدثون عن فوائد العوم ، ومزايا أسماك البحر ، وتاريخ العروق المرجانية .. هم أناس آخرون ، وليس الفنان من بينهم .

حقيقة أخيرة : يمكنك أن تعتبر هذه المسرحية خالية تماما من الممثلين .. فالخطيب شبح لايتكلم .. والزوجة صدى لزوجها فهى أيضا لا تتكلم .. والزوج ينعى نفسه ويقيم حفلة تأبين وهمية ، ليس فيها أى شيء حقيقى غير كلامه .. فهو أيضا فى حكم الميت .. شبح !

ولم يكن الجمهور الفرنسى سنة ١٩٥٢ والإنجليزى سنة ١٩٥٧ ساخرا عندما قابل المقاعد الخالية على المسرح بأضعافها من المقاعد الخالية فى الصالة .. وإنما حاول تقليد المؤلف .. وقد نجح المؤلف والجمهور معا فى تأكيد معنى الفراغ !

مقدمات معقولة ..
ونتائج لا معقولة !

على (مسرح محمد فريد) يقف الممثل « ... » يتحدث دقيقتين إلى أحد المقاعد الخالية .. وينحنى أمامه ويرجوه أن يفهم .. وتمر الدقيقتان دون أن يتهمه المتفرجون بالجنون ، أو يتهموا المؤلف الفرنسى ساشا جترى بالتخريف .. فقد وقع بطل مسرحية « فى بيت الناس » فى مأزق ، وهو يحاول أن يجد حيلة يرويها لزوجته عند حضورها ، فيتخيلها جالسة على هذا المقعد الخالى ويناقشها ، ثم يجلس هو على المقعد ويتحدث بصوت الزوجة ومنطقها ويناقش نفسه . ويشك فى أقواله.. والنتيجة : يقتنع بأنه كذاب !

وعلى (مسرح الجيب) يقف رجل عجوز فى مسرحية « الكراسى » ويتحدث إلى عشرين أو ثلاثين مقعدا خاليا من أول المسرحية إلى آخرها .. ولا أعرف إن كان جمهورنا قد اتهم المؤلف بالجنون أو اكتفى ، كما هى العادة ، باتهام المخرج والممثل والممثلة .

وليست مسرحية الكراسى هذه وحدها هى التى يقف فيها الناس يتحدثون إلى أنفسهم ، أو إلى غيرهم من الناس أو الأشياء دون أن يتوقعوا أى جواب .. وإنما فى كل مسرحيات العبث تجد أناسا يتكلمون أو يهلوسون .. أو على الأصح نجد أناسا يقفون وحدهم ، ويتعذبون وحدهم .. ويموتون وحدهم !.

هذه هى مشكلة فلسفة العبث : إن الإنسان وحده ، وهو يحاول أن يكون مع غيره ، أن يتماسك مع غيره ، ولكنه عندما يجد هذا الغير ، فإن الاتصال

يصبح صعبا ، فإذا أصبح الاتصال ممكنا ، فإن هذا الغير يكون مشغولا عنه بغيره ، والنتيجة دائما ، أن الإنسان وقف وحده ، فى مواجهة نفسه ، وغيره ، والكون كله ثم لا قيمة لهذا كله !

هذه هى خلاصة فلسفة الأدباء العبثيين فى فرنسا ..

ولذلك فمسرحياتهم لاتعرض مشكلة وحلها ..

وإنما تعرض مواقف ..

وهى لاتعتمد على اللغة وعلى قوالب اللغة ، وعلى المألوف من تركيب الألفاظ والعبارات .. ولا حتى على الحوار (المشغول) كالتريكو .. ولا على الشكل التقليدى للمسرح !

وإنما تعتمد على الشاعرية فى العبارات والنغم والرنين ، وعلى اللعبة الملموسة .. فى الحركة ، أو حتى فى عدم الحركة أو الاستعانة بالأشياء كالكراسى والصناديق والمصابيح والستارة نفسها وعلى وجود متفرجين يضحكون أو يسخطون ..

وكل مسرحيات العبث ، ليست مسرحيات حوادث تنمو وتكبر وتعلو وتتعقد وتصل إلى نهاية مريحة .. إلى حل ..

وإنما كل مسرحيات العبث بلا حوادث متطورة ..

وليست بها شخصيات مرسومة محددة المعالم ..

وإنما فيها (جو) .. ألوان عامة .. وأنغام عامة ، واتجاه عام .. ومن كل هذه الصفات العامة ، تستطيع أن تجد ملامح هؤلاء الأشخاص ..

ومعظم كتاب العبث عاشوا فى فرنسا ، مهاجرين .. يكتبون بلغة أخرى غير لغتهم .. ويمكن أن يقال إن هذه اللغة الجديدة فصلتهم تماما عن أوطانهم ،

وجعلتهم أقل تمسكا بالأسلوب وأقل إحساسا بتقاليد اللغة الفرنسية .

فالكاتب يونسكو من رومانيا ، وادامون من القوقاز وهو أرمني روسي ، وبيكيت من ايرلندا وبوتستاتى من إيطاليا .. أما الأديب الفرنسي جان جينيه ، فهو لقيط ، وهو خارج على القانون الفرنسي ، دخل السجون وخرج عشرات المرات بتهمة السرقة .

وهؤلاء الرجال الذين ولدوا فى سنوات متقاربة ، يروون حوادث فى طفولتهم ، هى التى هزتهم بعنف ، وهى التى ضللتهم فى طرق أخرى غير مألوفة .. فجعلتهم يشعرون بالغربة فى المنفى ، وبصورة أليمة .. كأنهم أطفال لم يرضعوا لبن أمهاتهم ، فهم يحنون إلى صدر الأم .. وحنان الأم وتدليل الأم .. وظاهرة التدليل منتشرة فى مسرحيات العبث .. أوكأنهم أطفال كانوا يرضعون ثم فطموا قبل الأوان ، بموت الأم ، أو بخطف الأبناء ، أو بظهور تسمم فى لبن الأم .. وظاهرة التسمم فى اللبن منشرة فى مسرح العبث أيضا ..

والكاتب الايرلندى صمويل بيكت (ولد ١٩٠٦) وهو (بلديات) برناردشو وأوسكار وايلد بيكت له عبارة مشهورة هى شعار فلسفته : إننا نخرج من ظلمات الرحم إلى ظلمات القبر ، مارين بظلمات الحياة .. وحدنا دائما ! وهذه الحقيقة لانستطيع أن نتداولها فى الكلام بيننا !

ويقول : إذا لم تفهموا هذه العبارة سيداتى وسادتى ، فلأن حضراتكم ، مع كل احترامى ، فاسدون وتافهون !

أما الحادث الذى لخبط حياته العقلية والنفسية فهو أنه كان يمشى فى الليل فى أحد شوارع باريس الضيقة ، وهو يقسم أنه لم يكن مخمورا . فهجم عليه مجرم وطعنه فى بطنه .. وتمزقت إحدى رئتيه . ودخل المستشفى . أما المجرم فذهب إلى السجن . ولما خرج بيكت من المستشفى ذهب ليرى المجرم ليعرف سبب هذا الاعتداء عليه ..

ولكن المجرم قال له : لا أعرف !

وخرج بيكت بهذه الحكمة : لسبب مجهول يرتكب الإنسان جرائمه .. كل جرائمه !.

هذا المجهول الذى يقتل ، أو يدفع إلى القتل هو الذى ظهر فى كل مسرحيات بيكت بعد ذلك !

والكاتب الأرمنى أرتير اداموف (ولد فى القوقاز سنة ١٩٠٨) هاجر من بلاده وهو فى الرابعة من عمره . وأبوه غنى وعاش فى سويسرا وفى النمسا وفى ألمانيا واستقر فى فرنسا وصدر له كتاب وهو فى السابعة . ولكن أهم كتبه صدر وهو فى السادسة عشرة . وفى هذا الكتاب يقول المؤلف الصغير : ماذا هناك فى هذه الدنيا ؟ أنا فقط . ولكن من أنا ؟ إن فى داخلى تمزقا .. إننى منقسم على نفسى .. إننى منفصل .. إننى مفصول . ولكن من أى شىء أنا منفصل ، من أى شىء أنا منعزل ! لا أعرف . ولكننى منعزل !

وهذه هى خلاصة فلسفته ، التى ظهرت فى مسرحيات وكتب كثيرة بعد ذلك .

إن حادثة خطيرة هزته .. هذه الحادثة هى الماركة المسجلة ، المطبوعة على كل مسرحياته .. لقد كان يجلس فى أحد المقاهى فى باريس ورأى فتاتين جميلتين جدا وهما ترددان معا وبصوت مرتفع إحدى الأغانى المشهورة ، وإلى جوارهما يقف رجل شحاذ أعمى يسأل الناس .. فلما رأى هذا المشهد أغمض عينيه ، وذاب (وتلاشى فى غيبوبة جليلة) .. ولم ينس طول حياته هذا الموقف ، وراح يكرره بعد ذلك .

والنتيجة التى خرج بها : أن هذا الشحاذ يقف وحده .. لا أحد يدرى به ، ولا أحد يهتم به ، ولا أحد يعنيه ، ولا هو يعنى أحدا من الناس .. الإنسان

وحده يولد ، وحده يقف ، وحده يتسول ووحده يموت !

وفى مسرحيات أداموف .. نجد ساعات على جدران المسرح ، ساعات مرسومة فقط .. أو ساعات تدق ولكن بلا عقارب .. لها صوت ولها دوى ولكن لاتستطيع أن تسألها : كم الساعة الآن ؟ وإذا سألت فلا جواب .. وكل الناس ساعات بلا عقارب !

انظر إلى الناس فى الشارع .. فى البيت .. فى المكتب .. كل الناس يتكلمون ويتناقشون .. ولكن لاجواب عندى ، ولا عندك ولا عند أحد .. فنحن فى عصر الأسئلة الكبيرة والأجوبة الصغيرة ..

فى مسرحية (البنج بنج) لهذا الأديب نجد اثنين من الطلبة يلعبان البنج بنج ساعات طويلة يتشاجران ويتقاتلان سنوات طويلة ، ويفكران فى تطوير هذه اللعبة .. ويجىء الفصل الأخير لهذه المسرحية ، وقد أصبح الشابان رجلين عجوزين ، ويقفان من جديد أمام ترابيزة البنج بنج .. ويموت أحدهما ويبقى الآخر فى مكانه !

والمؤلف يريد أن يبين لنا أن الإنسان يهتم بصورة واعية منطقية بأشياء تافهة .. وأنه من الممكن أن نكون جادين فى تفاهتنا منطقيين فى جنوننا .. والنتيجة أننا سنبقى وحدنا فى النهاية !

وأديب رومانيا يوجين يونسكو (ولد عام ١٩١٢) هو أرق وأذكى كل أدباء العبث فى فرنسا .. لا ينسى ذلك اليوم الذى رأى فيه شابا قويا يهاجم رجلا عجوزا ويضربه بقبضته ثم يلقى به على الأرض ويعاود ضربه برجليه . لماذا ؟ ما الذى يمكن أن يفعله عجوز منهار لشاب بهذه الحيوية .

إن الطفل الصغير يونسكو لاينسى هذه الوحشية ، هذه القوة ، هذا الغرور وهذا الهوان أيضا !

وهذه هى صورة الدنيا كلها فى عينيه : قسوة لاحد لها ، كراهية لامبرر لها ، غرور القوى ، وهوان الضعيف .. ويجىء بعد ذلك الليل والصمت والوحشية .. والغيظ من عالم لم يعد له معنى ، لا عند العقلاء ، ولا عند المهرجين ، وربما كان المهرجون أقرب إلى الحقيقة !

فى مسرحية (اللوحة) نجد فنانا يبيع إحدى اللوحات لرجل غنى قبيح الوجه والشكل .. ويطلب الفنان إلى التاجر أن يرى اللوحة ، ولكن التاجر يريد أن يعرف الثمن أولا .. ويطلب الفنان ألف جنيه .. ويظل التاجر يقنعه بأن الثمن مرتفع ، حتى يقتنع الفنان أن يبيعها بجنيه واحد . وهنا يطلب التاجر أن يرى اللوحة .. ويرى اللوحة ، إنها لإحدى الملكات . ويضيق التاجر باللوحة ويلعن الفنان .. وهنا يرجوه الفنان أن يحتفظ بها مجانا ، فيرفض التاجر ، ويرجوه الفنان أن يحتفظ بها عنده ، على أن يدفع إيجارا لذلك . ويوافق التاجر على مضض . ويخرج الفنان ، لتظهر سعادة التاجر وهو يتغزل فى جمال الملكة . وتناقشه أخته فى قيمة هذه اللوحة ، فيطلق عليها الرصاص ، فبدلا من أن تموت ، تتحول إلى تمثال جميل ، فيطلق عليها الرصاص .. فتتحول إلى شىء جميل .. ويعود الفنان وهو مندهش من هذه القوة التى تجعل كل شىء جميلا .. فيطلق عليه التاجر الرصاص ، فيتحول الفنان إلى أحد أمراء الأحلام ..

ويبقى التاجر وحده قبيح الوجه والشكل ، أمام هذه الأعمال الفنية الجميلة .. ويبدو عليه العذاب والحزن .. فيطلب إلى الجمهور أن يطلق عليه الرصاص ! !

ولم تنجح هذه المسرحية ، ويقول المؤلف يونسكو : إن السبب هو أن التمثيل كان واقعيا . وكان من الأفضل أن يقوم بالأداء ، جماعة من المهرجين أو الأكروبات فإنهم أقرب إلى الحقيقة !

والصدق فى رأيه هو التلقائية : أن تخرج منك المعانى والصور بلا تفكير منك ..

ويقول أيضا : إننى قبل أن أمسك القلم لا أعرف ما الذى سأكتبه .. لا أعرف ماذا فى رأسى إلا بعد أن أكون قد فرغت من الكتابة تماما . والمسرح والتمثيل الذى أتخيله فى رأسى ، أروع وأصدق من الذى أكتبه ، والذى أراه بعد ذلك !

أما أديب فرنسا جان جينيه فقد ولد فى باريس ١٩١٠ واكتشف أنه لقيط فى الواحدة والعشرين من عمره .. واعترف للفيلسوف سارتر أنه سرق وهو فى الرابعة من عمره .. وأن المجتمع كان ينظر إليه على أنه لص ، فقرر أن يكون لصا .. لقد قال عنه العالم إنه لقيط ، فرد على العالم ، بأن العالم كله لقيط لا أصل له !

وسارتر أصدر عنه كتابا فى ٧٠٠ صفحة ، بعنوان « القديس جينيه ، شهيد وكوميدى » وسارتر يرى أن هذا الأديب هو أعظم أديب معاصر على الإطلاق !

وفلسفة جان جينيه هى : الضياع .. إننا نمشى أو نقف بين عشرات المرايا ، كلها تعكس صورنا ، عشرات المرات ، نراها هى التى تعترضنا .. هذه الصور هى صورتى .. وهى وحدها التى توقعنى وتستوقفنى وتمنعنى .. فكل شىء أمامى هو حوائط من زجاج !

وكتب فى (يوميات لص) أن نزيل السجن يتمتع بنفس المزايا التى يتمتع بها ضيوف القصور الملكية .. نفس الأمان والاطمئنان والقوانين الكثيرة وتطبيقاتها الصارمة .. ثم الإتيكيت العنيف .. إن السجن لم يضايقنى ..

ويقول أيضا : ما الذى يضايقنا ؟ إننا نضايق أنفسنا ... إحساسنا بأننا لا

نستطيع أن نهرب من أنفسنا ، هو الذى يضايقنا .. تماما كما نشم رائحة عرقنا الكريه .. إن هذا العرق هو نحن ، وهو لذلك يضايقنا ..

فى مسرحية (الخادمات) نجد خادمة تعاون سيدتها على ارتداء ملابسها .. وفجأة نرى الخادمة تصفع السيدة على وجهها .. ونكتشف بعد ذلك أنهما خادمتان وأنهما فى غياب سيدتهما تمثلان دور الخادمة والسيدة .. وأن هاتين الخادمتين مرتبطتان بحب وكراهية سيدتهما الجميلة ، وأنهما تبعثان بخطابات مجهولة للبوليس تؤدى إلى اعتقال عشيق السيدة الجميلة .. وتعود السيدة إلى البيت فى اللحظة التى تضعان فيها السم فى قدح الشاى لكى تشربه السيدة وتموت .. فتستريح الخادمتان .. ولكن إحدى الخادمتين تخبر السيدة أن العشيق أطلق سراحه .. فتنطلق السيدة سعيدة تبحث عنه ... وتستأنف الخادمتان تمثيل دور الخادمة والسيدة .. وتمثل إحداهما دور الشجاعة وتشرب قدح الشاى وتموت .. وتبقى الأخرى وحدها !

والنتيجة : إننا مهما تخلصنا من غيرنا ، فسيبقى هذا الغير فينا .. كعرقنا نشمه ونمله .. ونكره أنفسنا فى النهاية !

وأكبر أدباء العبث سنا هو الكاتب الفرنسى جان تارديو (ولد سنة ١٩٠٣) ورغم أنه لايكبرهم إلا بسنوات ثلاث فإنهم يعتبرونه والدهم العجوز .. وهو لايتعب من رواية هذه الحادثة : تصور أن شخصا مجهولا فتح الباب ، ودخل بيتك ، وقال لك : مات .. ونظر إلى زوجتك وقال لها : مات .. ونظر إلى ابنك وقال له : مات ... ثم ألقى بكلبتك الصغيرة من النافذة .. وانتحر هو أيضا !

ويقول : إنه رأى هذا المشهد : لقد دخل شخص مجهول كان سائقا لأحد اللوريات .. وأن هذا السائق اصطدم بسيارة كانت تركبها أسرتى .. وقتلهم جميعا ثم تحرك ضميره ، أو رغبته فى تعذيب الآخرين ، وجاء إلينا ليلقى هذا

النبأ ، ثم يعذبنا أكثر وأكثر بهذه الألغاز ، ثم برؤيته وهو يموت !

فى مسرحية (من هناك ؟) نجد أسرة تتناول العشاء .. الأب والأم والابن .. ويدق الباب وينهض الأب ويفتح لسيدة مجهولة تخبر الأسرة كلها عن كارثة ستصيبها حالا .. وبعد لحظات ينفتح الباب ويدخل إنسان ضخم جدا .. ويمسك الأب ويخنقه ويرميه خارج البيت .. وتشير السيدة المجهولة إلى الأم أن تنظر من النافذة .. وتنظر الأم فتجد ملايين الجثث .. وينظر الابن إلى جثمان والده .. وهنا ينهض الأب ويدخل البيت وتسأله الزوجة : من الذى قتلك ؟

ويجيب : ليس إنسانا !

وتسأله الزوجة : من أنت ؟

ويجيب : لست إنسانا !

وتسأله : ومن كنت ؟

ويجيب وهذا هو أهم ما فى المسرحية الصغيرة : أنا لا أحد !

والنتيجة : كل إنسان فيه قوة مجهولة ، فيه لا أحد .. فيه كل الناس .. أو ليس فيه أى ناس !

وأديب إيطاليا بوتستاتى (ولد ١٩١٨) له مسرحية عن (المستشفى) المكون من سبعة طوابق.. يدخل المريض فينزل فى الطابق السابع إذا كان مرضه يسيرا وفى السادس إذا كان مريضا وفى الخامس إذا كان مريضا جدا وفى الرابع إذا كان مرضه طويل الأجل وفى الثالث وفى الثانى .. وفى الدور الأول إذا كان فى طريقه إلى القبر.. وبطل هذه المسرحية مريض غنى نقلوه من الطابق السادس لأسباب تتعلق بعدم وجود غرف خالية .. ثم بمرضه .. وأخيرا يموت قبل أن تدركه أمه ..

والنتيجة : إن الأغنياء جدا لا تحميهم أموالهم من المرض ومن الموت ككل الفقراء .. فالغنى يولد وحده ويعيش وحده ، ويموت كأى فقير ، وقبل أن يلقى نظرة على أعز الناس .

وبوتساتى يروى هذه الحادثة التى غيرت حياته كلها : لقد رأى عصفورا فى فم قطة صغيرة ، ورأى سيارة تدوس القطة ، ولكن لم تصبها ولكن عندما نزلت صاحبة السيارة لتسلم على إحدى صديقاتها . قتلت القطة . أما العصفورة فطارت جريحة إلى جوار حائط متهدم !

والنتيجة : إننا نحاول أن نعيش فنقتل غيرنا . ونحاول أن نقتل غيرنا فنجرح آخرين .. ونضعهم على الحافة الأليمة بين الموت والحياة !

هذا هو العيب ..

هذه هى المحاولة المعقولة للتعبير عن الشىء اللامعقول فى حياتنا .. وحياة كل من حولنا .. فنحن نمد أيدينا ، ولكنها لاتصل ، ونطلق أصواتا ولكنها بلا معنى ..

والنهاية أن الإنسان فى جزيرة .. ويعيش فى جزيرة .. وهذه الجزيرة محاطة بمخاوفنا ويأسنا من الاتصال ببقية الجزر الأخرى .. فإذا وجدت إنسانا يتحدث إلى نفسه ، أو إلى المقعد الذى يجلس عليه ، أو عشرات المقاعد التى لايجلس عليها أحد ، ومفروض أن يجلس عليها أحد ، فليس مجنونا وإنما هو لايعرف ما الذى يفعله !

أيّ كلام ...

أظن برناردشو هو الذى قال إن الأمريكان والانجليز شعبان تفصل بينهما لغة واحدة !

وهو يقصد أنه « على الرغم » من ان الشعبين يتكلمان لغة واحدة ، إلا أنهما غير متفاهمين ، كما لو كانا يتكلمان لغتين مختلفتين !

والمعنى صحيح

ولكن العبارة يجب أن تكون هكذا : الأمريكان والانجليز شعبان غير متفاهمين « لأنهما » يتكلمان لغة واحدة !

فاللغة الواحدة ليست دليلا على أن التفاهم ممكن بين الذين يتكلمونها .. سواء كانوا إنجليز وفرنسيين .. وصينيين .. فالخلافات بين الناس لا نهاية لها .. وفى كثير من الأحيان يخيل إليك أنك تتكلم لغة أخرى .. وهذه الخلافات تحدث كل يوم . فى بيتك وفى مكتبك وفى الشارع وفى النادى .. وإلا فما معنى أن يظل عشرات من الناس يتناقشون ، ولا يخرجون بنتيجة .. معناها أن كل واحد فى رأسه معنى وهذا المعنى لايستطيع أن يضعه فى الألفاظ المناسبة .

فإنه يبدو غير مفهوم . وإذا كان مفهوما ، فإنه غير مقنع. وإذا كان مقنعا لواحد فإنه ليس مقنعا لغيره من الناس ..

والنتيجة أنك تحس ـ وكلنا كذلك ـ أنك غير مفهوم .. مع أنك تتكلم اللغة التى يتكلمها كل الناس .

فكأن اللغة هى التى تفصل بيننا .. وليست هى التى تجعلنى مفهوما لك وتجعلك مفهوما لى ..

وأظن أن أوسكار وايلد هو الذى قال : إن الإنسان اخترع اللغة ليخفى بها مشاعره !

ولعله يقصد ، أن الإنسان لكى يعبر عن شعوره فإنه يستخدم الألفاظ .. والألفاظ عاجزة عن التعبير بالضبط عن كل مشاعر الإنسان .. ومعنى ذلك أنها تخفى جانبا من مشاعرنا .. والوسيلة الوحيدة للتعبير عن إحساساتنا هى استخدام هذه الألفاظ العاجزة عن التعبير الدقيق ..

أو بعبارة أخرى : الوسيلة الدقيقة للتعبير عن مشاعرنا ، هى استخدام ألفاظ غير دقيقة . وكل الألفاظ غير دقيقة !

فالمرأة لكى تعبر بوضوح عن جمال جسمها ، وتبرز مفاتنها فإنها ترتدى فستانا أنيقا .. والفستان متناسق .. أكثر تناسقا من جسمها .. وتحت الفستان تشد صدرها بسوتيان .. وتخنق خصرها بحزام وتضغط أردافها بكورسيه ، وترفع قامتها بجزمة لها كعب عال ، وأهمية الكعب العالى ، أن يحدث تموجا واهتزازا وليونة فى جسمها عندما تمشى ..

والنتيجة أنها تبدو جميلة .. ويكون جمالها واضحا بارزا .. والسبب ، هو أنها غطت جسمها بالملابس .. فكأن الوسيلة الوحيدة لإظهار جمالها ، هى أن تغطيه ..

واللغة كالفستان .. والألفاظ هى كالسوتيان والكورسيه والحزام والجزمة .. وهى الوسيلة الوحيدة لإظهار مشاعرنا جميلة .. أى كاذبة !

ونحن نستخدم الألفاظ ونشكو منها ..

لأنه لاتوجد وسيلة للنطق غير الكلام .. والكلام مفرداته : الألفاظ والألفاظ غير دقيقة . لأنها كاذبة مثل الفساتين والأحذية ..

وربما كانت هناك مواعيد للأكل والشرب والنوم ، ولكن لاتوجد مواعيد للكلام ، فالناس جميعا يتكلمون فى كل وقت ، وفى أى موضوع ، يفهمونه أو لايفهمونه . بل إن الناس حريصون على أن يتكلموا فى الموضوعات التى لايفهمونها لأن الناس مغرورون . ويؤلمهم جدا أن يقال إنهم يفهمون هذا ولايفهمون ذلك .. فكل الناس يتكلمون .. وكل الناس يفكرون وكل الناس لهم آراء . وكلهم أصحاب مذاهب فى الفلسفة والأدب والسياسة والموسيقى والغناء والرقص . وكلهم يتكلمون فى كل شىء .

وإذا نظرت إلى أناس جلسوا فى أحد المقاهى أو المطاعم من مكان بعيد ، بشرط ألا تسمع مايقولون ، فمن الممكن أن تجد بعضهم يشرب وبعضهم يأكل .. ولكن من المؤكد أنك ستجدهم جميعا يتكلمون .. فالإنسان حيوان ناطق .. أى حيوان يتكلم وهو لايتكلم إلا لأنه يفكر . وهو لايفكر إلا لأنه عاقل . وكل الناس عقلاء ..

ولذلك فالمشكلة دائما هى : ما هى حدود العقل الإنسانى ؟ أو ما هى حدود عقلك ؟ أو ما الذى يجب أن تفكر فيه أنت ، وما الذى يجب أن أفكر فيه أنا ، ومن الذى يضع هذا السؤال ! ومن الذى يحترم واضع هذا السؤال ؟

إنها مشكلة لا حل لها على الإطلاق ..

والنتيجة : أن كلام الناس لا أول ولا آخر .. ولامعنى له .. أو على الأصح ليس هناك معنى واحد اتفق عليه الناس ، فى أى شىء .. !

فأصعب شىء فى الدنيا هو التفاهم مع الناس أو التفاهم بين الناس .

ولذلك يشعر الإنسان بالوحدة ، بالعزلة ، بأنه وحده ، لأنه لايجد من يفهمه ، أى أنه عاجز عن أن يكون مفهوما للناس ، وعاجز عن أن يفهم الناس .

مع أننا جميعا نتكلم لغة واحدة ونستخدم ألفاظا واحدة .

وسأضرب لك مثلا بحادثة عادية جدا ...

ذهبت أمس إلى بيت صديق ، دعانى إلى الغداء. وتأخر هو عن موعده قليلا وجلست زوجته ، وهى سيدة مثقفة أحترمها ، نتحدث فى موضوعات كثيرة . وكانت حريصة على أن تسألنى فى موضوعات أدبية وفلسفية . وكنت أجيب وكانت تسألنى .. وكنت أجيب ..

هذه هى الحادثة وهذا كل ما حدث !!

أما تفسيرها فهو أن هذه السيدة المثقفة أحست ببعض الحرج من تأخر زوجها عن موعد الغداء . وكان واجب الضيافة يحتم عليها أن تشغلنى عن الانتظار . فراحت تسألنى فى موضوعات تهمنى ولاتهمها . وقد شعرت بذلك . وشعرت أيضا لأنها لاتهتم كثيرا بالموضوعات التى تسألنى عنها ، وإنما هى تحاول أن تشغلنى . وأنا أحدثها فى موضوعات لاتهمها ولاتفهمها ولاتتعب نفسها كثيرا فى تتبع ما أقول فكأننى أكلم نفسى . كأننى أتحدث بلغة أخرى غير لغتها . ومع ذلك فأنا حريص على أن أقول ، وأن أتحدث .. وحرصى على الكلام له أسباب :

أولا : ألا أجعلها تشعر بأننى أعرف لماذا هى تسألنى ، وبذلك أحرجها فى حين أنها تحاول أن تسلينى وأن تشغلنى ..

وثانيا: لاأريد أن أبدو سخيفا.. لاأريد أن أبدو تافها أمام نفسى. فأقول أى كلام .. وإنما أريد أن أقول كلاما له معنى ، حتى لو كانت هى لا تفهم ما أقوله بالضبط .. وفى الوقت نفسه أريد أن أغالط نفسى ، فأشعر بأنها تسألنى

عن موضوعات لاتعرفها ، وإنما أعرفها أكثر منها .. وهذا يرضي غروري .. مع أن هذا كله شعور مفتعل .. وأن شعورها الحقيقي أنها تجاملني لا أكثر ولا أقل .. ومع ذلك لا أريد أن يبدو على تصرفاتي إنني كشفت تمثيلها .. ولكي أغطي تمثيلها ، حاولت أنا أيضا أن أمثل عليها ..

فهي تكذب ، وأنا أيضا أكذب .. وكذبها يرضي غروري ، وكذبي يرضي غرورها ..

وهذه حادثة عادية جدا .. ولكنها معقدة جدا .. والنهاية هي ! أنها لاتعني ماتقول ، وأنا لا أعني بالضبط ما أقول . مع أننا نتكلم لغة واحدة ، وفي موضوع واحد ! ومثل هذا يتكرر في حياتنا اليومية آلاف المرات .. نستخدم الألفاظ نفسها ، في أوقات متشابهة ولا ندري كيف نستخدمها ، ولانعني شيئا مما نقول .. ونستخدم هذه الألفاظ بصورة آلية ليس فيها أي تفكير ..

كم مرة في اليوم تقول : صباح الخير .. أو مساء الخير .. أو سلام عليكم .. أو فرصة سعيدة .. أو نشوفك قريبا ؟ .

وكيف ننطق هذه الكلمات ؟.. وكم حرفا من حروف هذه الكلمات يبقى في أفواهنا ؟ وكم حرفا منها يدخل آذان الناس ؟.. فعبارة صباح الخير ـ مثلا ـ تتحول إلى صاح الخير .. باح الخير .. آح الخير .. ويحدث مثل هذا أيضا لبقية السلامات والتحيات التي ننطقها بصورة لا إرادية !

وهي ولاشك تذكرنا بتجربة العالم الروسي بافلوف .. أو هي بالضبط تجربة بافلوف .. تجربة الكلب والطعام والجرس .. فقد كان هذا العالم الروسي يقدم الطعام إلى كلب في المعمل . وفي اللحظة التي يقدم فيها الطعام كان يرن جرسا في كل مرة يقدم الطعام يدق الجرس . فاعتادت أذن الكلب وعينه على الجرس والطعام وكان لعابه يسيل في الوقت نفسه ..

وبعد ذلك كان إذا دق الجرس ولم يقدم الطعام سأل لعاب الكلب ..

وهذا بالضبط ما يحدث كثيرا جدا فى حياتنا اليومية ..

فإذا أنت رأيت إنسانا فإنك تفتح فمك وتقول أى كلام .. ولا تهم قيمة الكلام .. فإذا رأيته فى الصباح فأنت تقول له ، صباح الخير.. أزيك .. الخ ..

وفى المساء تقول له : مساء الخير.. أزيك .. الخ .

وهذا يتكرر بصورة آلية ..

والأغنية التى تقول : قل لى حاجة .. أى حاجة .. قول باحبك .. قول كرهتك ..

هذه الأغنية صادقة مائة فى المائة .. لأن الإنسان لابد أن يقول أى حاجة .. أى كلام ..

والأغنية التى تقول : قول من قلبك أو من ورا قلبك .. صادقة ١٠٠٪ لأنه لابد أن يقول الإنسان دائما .. وليس مهما أن يقول كلاما مهما .. وإنما المهم أن يقول ويقول ..

ونحن نحاول أن نخفف من ضغط شعورنا بسخافتنا ، فنحاول أن نجعل من هذه العبارات الآلية أى معنى .. أى مناسبة .. أى مبرر .. فنفتعل الانفعال والشوق والاهتمام لحظة أو لحظتين .. وبعد ذلك يستبد بنا القرف .. والقرف هو المذاق العادى جدا لحياتنا اليومية .

يا طالع الشجرة

لولا أن هذا العمل الفنى الواحد والأربعون لتوفيق الحكيم . ولولا أنه حادث أدبى خطير ، تجب الإشارة إليه ، والإشادة به . ولولا أن توفيق الحكيم ـ رحمه الله ـ قال فى نهاية المقدمة إنه يخشى أن يدخل عليه عزرائيل وأبولو إله الشعر فيقول له الأول : أنت انتهيت ، ويقول له الثانى : ليس بعد .. لولا ذلك ماناقشت موضوعا أدبيا فلسفيا بهذا الإيجاز ..

ولكن فى مسرحية « ياطالع الشجرة » لتوفيق الحكيم مايغرى أى قلم بأن يكتب فى أى مكان .. وقد جعل توفيق الحكيم لهذه المسرحية مقدمة تاريخية يشرح فيها لماذا صدرت له مسرحية « لامعقولة » ـ هذا تعبيره هو ، وليست شتيمة طبعا ـ فى هذا الوقت . على الرغم من أنه كان يتابع المسرح الأوربى وتطوره من المعقول إلى اللامعقول .. عند صمويل بيكيت ويوجين يونسكو وجان جينيه وأداموف وسمبسون وبنتر وغيرهم .. وقد رأى توفيق الحكيم أن مسرحنا يحتاج إلى كثير من العقل ومن الواقعية .. وأنه رغم صدور هذه المسرحية اللامعقولة ، فإنه يرى أن الأدباء عندنا يجب ألا يسرفوا فى السير وراءه .. وإذا أرادوا فليكن ذلك بحساب شديد ..

والذى حدث فى أوربا هو ثورة على العقل ، على التفكير المنطقى . على الترتيب .. على الفهم الرياضى .. على كل شىء مضبوط .. متوازن .. لأن هناك صورة أخرى من التفكير أو من الوعى .. فليس كل شىء فى حياتنا

معقولا ، ولا منطقيا .. ولا لحظات الزمن متوالية .. الماضى والحاضر والمستقبل ! .. وهذا واضح فى الرسم الذى ثار على الأساليب الموروثة فى التعبير .. ولم يعد الفن الرسمى أو المعقول هو الفن الوحيد الذى يجب أن يبقى .. فهناك الرسم بالخط وبالنقطة .. وبالبقعة .. وهناك الرسوم التجريدية التى تعبر عن إحساس خاص للفنان ، وليس من المهم أن يفهمها الناس وليس من المهم أن تقول شيئا واضحا ..

ولكن العقل يجب أن يتحرر من المألوف من القواعد ، من المعتاد من القوالب يجب أن يبحث عن الغريب اللامعقول .. عن البقرة فوق الشجرة .. كما يقول الأطفال من عشرات السنين : يا طالع الشجرة هات لى معاك بقرة .. كلام غير معقول ، ولكنه يتردد ويبقى .. فكأنه من الممكن أن يكون هناك شىء لامعقول ، ثم يبقى كأى شىء معقول .. كلوحات الفراعنة الذين يرسمون جانب الوجه على الجسم .

أو كقصص « أبو زيد الهلالى » الذى يضرب بسيفه أحد الخصوم فيشطره إلى شطرين ..

ومع ذلك يبقى كما هو فوق الحصان كأنه لم يشعر بما حدث .. فإذا اهتز فوق الحصان ، سقط النصفان .. هذه العفوية .. هذه الاعتباطية كالبقع التى على فساتين السيدات بقع ليس لها شكل منظم .. كأن الحبر وقع فوقها عفوا .. هذه العفوية .. هذه الاعتباطية هى التى أعجبت السيدات .. اعجبتهن لا لسبب غير عقلى ، وإنما لمجرد إحساس آخر بأن هذه البقع ليست ورودا ولاشيئا منظم الشكل .. فكأن الذى يعجبهن هو أن تخلو الرسومات من الانتظام .. من الدقة .. من المعقول !

فهذا المجال الغريب .. هذا الشعور باللامعقول .. أو هذا اللامعقول نفسه هو الذى سيطر على المسرح الأوربى واتخذ له اسما آخر هو « مسرح العبث » .

وأعتقد أن توفيق الحكيم قد خاف من هذه الكلمة ، وخاف من المعانى التى تتبادر إلى الذهن عند سماعها ففضل على كلمة « العبث » الدقيقة ـ كلمة « اللامعقول » ـ فى حين أن كلمة العبث معناها أن كل شىء بلا ضرورة .. أن كل شىء بلا منطق .. وأن هذا الشعور بالعبث ، هو الذى يجعلنا غرباء فى العالم ..

فالعبث هو الشعور باللامعقول ..

ومسرحية توفيق الحكيم ليست لا معقولة فقط ، بمعنى أنها لاتمشى على القواعد المألوفة للمسرح أو المسرحية ، ولكنها تجعلنا نشعر بالغربة وبالغرابة .. فهى مسرحية « عبثية » .. وهو كاتب « عبثى » ..

ولعل هذا هو الذى أفزع توفيق الحكيم فاكتفى بأن وصف نفسه بأنه لامعقول . وقد حرص توفيق الحكيم على أن يبين بصورة معقولة جدا ، كيف أنه لامعقول وخصوصا فى المقدمة ، وفى القسم الثانى من المسرحية ، كما سأقول حالا !

وإذا صح أن المنطق أو القواعد أو القيود تشبه الجاذبية الأرضية فإن عالم اللامعقول يشبه الجاذبية فوق القمر .. فهناك من الممكن أن تقفز من جبل إلى جبل ، ومن شاطئ بحيرة إلى شاطئ بحيرة أخرى .. بينما عالم العبث يشبه منطقة « انعدام الوزن » فقد رأينا رواد الفضاء فى أوضاع مضحكة .. ولكنها الأوضاع المنطقية .. المعقولة فى هذه المنطقة المنزوعة الجاذبية .. وفى هذه المنطقة « اللاوزنية » لايكون من الضرورى أن يجلس المسافر فوق الكرسى بل من الممكن أن يكون الكرسى فوقه .. ومن الممكن أن يتجاور الاثنان فى قلب سفينة الفضاء ..

فحيث لا توجد جاذبية ـ أو قواعد عقلية ـ كل شىء ممكن .. أنا حاولت أن أبين هذا الغموض بصورة واضحة ، وأبين هذه المنطقة المنعدمة الوزن ،

بكلام وزن وله معنى .. وهذا هو التناقض الأساسى الذى يواجه الكاتب والقارئ معا . فالكاتب بعقله يقدم صورة لامعقولة . وبذكائه المشرق ، يعرض سحبا قاتمة .. وهذه هى الغرابة .. وهذه هى الغرابة التى يعيشها القارئ والمتفرج .. ولكن الهدف هو القضاء على الملل وعلى الرتابة بأى ثمن .. ولوكان ذلك على جثة الوضوح !.

وكل هذا توضيح لمقدمة توفيق الحكيم التى كتبها توضيحا لمسرحية « يا طالع الشجرة » .

وأنا اقترح عليك ـ ولا أعتقد أن المؤلف سيغضب ـ أن تقرأ النصف الثانى من المسرحية قبل نصفها الأول .. فالنصف الثانى هو نفس القسم الأول ولكن بصورة منطقية معقولة !..

والقسم الثانى يجعلك تفهم بوضوح وبسرعة أن سيدة قد غابت عن بيتها ثلاثة أيام ، وأن زوجها متهم بقتلها .. ومن أجل ذلك دخل السجن .. ومن أجل ذلك ذهب أحد ضباط البوليس ينبش عن الجثة تحت شجرة البرتقال الوحيدة فى حديقة البيت .. ويفاجأ ضابط البوليس بأن الزوجة المختفية قد ظهرت .. هى نفسها ويلعب توفيق الحكيم بذكائه وبراعته كما يحلو له .. ويعتذر الضابط عما حدث .. ويتصل بقسم البوليس يطلب الإفراج عن الزوج لأنه برىء.. ويعود الزوج ويسأل زوجته عن سر اختفائها .. وعن المكان الذى اختفت فيه .. طبعا لابد أنها اختفت فى مكان ما .. ولكن أى مكان .. صفحات طويلة سجلها المؤلف فى مناقشة طبيعة هذا المكان الـ « ما » .. هل هو فى غرزة حشيش هل هو فى ذهبية فى النيل ـ عبارات المؤلف ـ هل مع عشيق ، هل زنت هل سرقت هل قتلت ـ كلماته أيضا ـ وترفض الزوجة أن تجيب على هذا السؤال .. وترى أنه ليس من الضرورى أن تجيب على سؤال مادام هو يثق فيها .. ولكن أين كانت . أين هذا المكان .. ويثور ويهجم عليها ويخنقها

وتموت .. ويأتى بملاءة ويغطيها ويتصل بالضابط الذى حقق معه .. ويدرك الضابط أن هذا الزوج تعبان .. أعصابه تعبانه .. لماذا ؟ سيتضح هذا فى القسم الأول من المسرحية .. وينصحه الضابط بالهدوء .. ولا يجد الزوج إلا المكان الذى نبشه البوليس تحت الشجرة .. البوليس نفسه هو الذى اختار لها هذا القبر .. وهنا يظهر رجل درويش .. شخص غريب .. يعرف كل شىء معرفة مباشرة .. إنه يشبه الدرويش الذى ظهر فى قصة « اللص والكلاب » لنجيب محفوظ .. كلامه الغريب له معنى واضح .. وهذا الدرويش يعرف ويدرك بالإحساس المباشر ..

وفى القسم الثانى خيط نايلون أو حائط شفاف يفصل بينه وبين القسم الأول أو يربط بينهما .

أما القسم الأول من المسرحية فهو الذى يقصده توفيق الحكيم .. وهو الذى أقدم عليه وقدم له .. وهى المحاولة الزائدة التى قام بها توفيق الحكيم .. فنحن أمام ضابط بوليس يحقق مع الخادمة ويسألها عن اختفاء سيدتها .. ونفهم من كلامها أن السيدة اختفت على غير العادة .. والعادة وغير العادة لايهم هنا .. فلا شىء عادى فى كل المواقف العادية .. وفجأة نرى أمامنا الزوج والزوجة المختفية والاثنان يتكلمان .. وفى القسم الثانى من المسرحية ، عرفنا أن المحقق عندما استمع إليها كان يخلط بين صوتيهما .. فكل منهما يتكلم بصوت الآخر .. أعود فأقول إننا نرى على المسرح الزوجين وهما يتحدثان .. الزوجة عن ابنتها الصغيرة ... ونسمع الأطفال وهم يغنون لسبوع المولودة .. ونحن نعلم أن هذه السيدة العجوز لم تلد قط .. وأنها « سقطت والجنين عمره شهور » .. ومع ذلك لاتتوقف عن عمل ملابس للطفلة .. أما زوجها فهو يتحدث عن الشجرة وعن ثمارها .. وعن حاجتها للسماد .. وأن أمواله تكفيه فهو مفتش سكة حديد على المعاش ..

ويظهر الزوج والمحقق معا ويدور الحوار بينهما عن اختفاء الزوجة .. والكلام منطق ومعقول .. ومن المحتمل أن يكون الزوج قد قتل زوجته ليجعل منها سمادا لشجرة البرتقال .. فيكون لها ثمر طول العام . برتقال فى الشتاء .. ومشمش فى الربيع .. وتين فى الصيف .. ورمان فى الخريف .

وفجأة وبإشارة ينتقل الزوج إلى عمله القديم ، الذى تركه .. ننتقل إلى القطار فنرى الزوج وهو مفتش .. ونرى مساعده الجالس .. أو النائم إلى جوار النافذة .. ويحدثنا المساعد عن المفتش الذى ينظر من النافذة دائما يعد الأشجار التى تهرب من القطار .. ويردد مع تلامذة المدارس المسافرين : يا طالع الشجرة هات لى معاك بقرة تحلب وتسقينى بالمعلقة الصينى يا طالع البقرة هات لى معاك شجرة .. أو يا طالع الشجرة هات لى معاك شجرة .. ثم يشكو المساعد من أن أحد الركاب ليست معه تذكرة .. ويجىء الراكب .. إنه رجل درويش .. يتقدم بشهادة ميلاد .. وهى تذكرته الوحيدة فى قطار آخر .. قطار الحياة .. قطار العمر .. أو التذكرة الوحيدة التى يطلع بها الشجرة .. ويحقق المعجزة . ويمد الدرويش يده إلى الهواء ويأتى بعشرة تذاكر .. شىء غريب .. مدهش .. ولكن فى هذا الجو اللامعقول كل شىء يجوز .. وعلى فكرة ! كلمة يجوز تتكرر كثيرا جدا فى المسرحية .. كل هذا يحدث والمحقق والمفتش يقفان جنبا إلى جنب يتفرجان فى الحاضر ، على ماحدث فى الماضى !

والدرويش من العارفين ببواطن الأمور .. ببواطن اللامعقول .. فهو يعرف حياة المفتش ، ويعرف الشجرة الخضراء .. و « السحلية » الخضراء .. ويتكلم عن مقتل الزوجة أو ضرورة قتلها أو احتمال قتلها .. والدرويش يفضل أن يجيب دون أن تسأله .. إنه يكره السؤال .. أو يكره التفكير التساؤلى .. إنه أميل إلى التفكير « الجوابى » أو الإيجابى .. بل إننا نسمع المفتش يرثى لحال ضابط البوليس الذى لايعرف كيف يفكر على شكل سؤال محدد وجواب محدد .. كأن

كل شيء فى الدنيا من الضرورى أن يكون دقيقا ، وأن يكون بالضبط ..

والمفتش يشكو من الملل .. فعمله فى القطار ممل .. ويقرر أن الزمن لايضايقه .. فإذا تقدم القطار أو تأخر .. فهو راكب فيه .. أما الركاب فهم أيضا قد ملوا القطار وصوت القطار .. والقطار نفسه لايمل . ألا ليته كان قطارا .. ويتذكر أيام كان يلعب مع الأطفال لعبة القطار .. ينفخون ويصفرون .. ولم يعرفوا الملل ..

إنه الملل .. إنه السأم .. الذى جعل مفتش القطار يكره التفكير الحديدى .. يكره السكك العقلية .. يكره العربات المتتابعة .. يفضل أن ينط والقطار يجرى .. ويجرى والقطار واقف .. !

ويتحول الدرويش إلى شاهد إثبات فى قضية اختفاء الزوجة . ويظهر ويختفى بصورة غريبة ..

وينتقل الزوج القاتل ، أو الذى تدينه الظروف ، أو يدينه عدم توافر الأدلة .

ثم تجرى أعمال النبش والحفر تحت شجرة البرتقال ، بحثا عن جثة الزوجة بينما يصرخ الزوج : ستقتلون الشجرة . ياقتلة .. ياقتلة !

كثير من القضايا يناقشها توفيق الحكيم بعقل وبلا عقل .. وهو لايهتم طبعا بتتابع الأحداث .. ولا وحدات الزمان .

ولكن توفيق الحكيم حتى يكون مفهوما .. جعل النصف الثانى من المسرحية معقولا .. أو جعله صورة واضحة لشيء غير واضح .. صورة بروفيل على جسم مضطرب غير متناسب .

وظهور سحلية فى هذه المسرحية ليس بالشيء الغريب جدا .. ولو شاء توفيق الحكيم ، لملأ المسارح بالسحالى والضفادع ..

والكاتب الأمريكي تورنتو وايلدر فى مسرحية (هربنا بجلدنا) أظهر على المسرح حيوانات منقرضة هي الديناصور والماموث وجعلها تتكلم فى قضايا معاصرة وتناقش مع طفل عمره بضعة آلاف سنة . طفل يحفظ جدول الضرب .. وجعل هناك معارك بين الزوج وزوجته التى تبحث عن إبرة ، وابنه الذى يبحث عن نبلة .. ومعارك بين الممثلين والمخرج .. ثم إصابة سبعة من الممثلين بالتسمم وظهور سبعة آخرين من الجمهور وهم لا يعرفون أدوارهم فى الرواية .. إنما يكفى أنهم تتبعوها حتى الفصل الثانى . وفى استطاعتهم أن يكملوها بإحساسهم ! !

ولو شاء توفيق الحكيم لجعل الشجرة الخضراء تتكلم ويكون لثمارها رأى .. ولكنه خشى من الغموض الذى لم يخف منه بيكاسو فى مسرحيته الوحيدة « اللذة من ذيلها » عندما جعل ستار المسرح والشوك والسكاكين تتحدث جميعا بلهجة غريبة .. هذه اللهجة لم تدهش الجالسين فى الصف الأول يوم عرضها من ١٧ عاما .. وكانوا : كوكتو وكلودل وسارتر ومارسيل وأراجون وسيمون دى بوفوار وألبير كامى !

ويكفى توفيق الحكيم أنه قدم نموذجا رائعا ورائدا .. وأنه قدم هذا النموذج فى تحفظ شديد .. كتب له مقدمة ضرورية .. ثم جعل نصفها الثانى معقولا .. مفسرا شارحا .. مبينا النصف الحقيقى من البرتقالة .. وكان نصفها الأول خليطا من الفواكه .. له جلد البرتقال وقلب الرمان وطعم التين ولون المشمش !

وعلى الرغم من أن هذه المسرحية « لا معقولة » أو البداية الحقيقية لمسرح « العبث » فى اللغة العربية فإننا يجب ان نتنبه إلى أن هذه الصورة اللامعقولة قد تمت بعقل ، وبمعقولية ..

والمعانى والمواقف لم تصدر عفوا .. أو تلقائيا ، كما يصدر الماء من نافورة .. وإنما الماء يصدر من نافورة صنعها المؤلف وجعلها تبدو كأنها طبيعية ، ووضعها

فى بركة صناعية ، جعلها تبدو كما لو كانت طبيعية ، ووسط غابة صناعية ، جعلها تبدو كما لو كانت من صنع الطبيعة ..

والحقيقة أن هذه « العفوية » وهذه « التلقائية » صدرت عن « قصد » وعن « تدبير » .

وقد صنع عقل توفيق الحكيم وقلبه شيئا جديدا خطيرا .. يجب أن نقرأه ـ أن أقرأه ـ بعناية وعلى مهل .. وبحرارة شديدة تذوب منها « لا » من كلمة معقول !

لم أفهم توفيق الحكيم !

الطريق إلى بيت طه حسين مظلم وضيق .. ولكى تعرف هذا المكان يجب أن تسأل عن شارع يوسف وهبى .. وبعض الناس لايعرفون أن طه حسين يسكن فى هذه المنطقة ، وعلى الباب قابلنى فريد شحاته السكرتير السابق لطه حسين .. والغرفة التى على اليمين مليئة بالكتب .. وعلى مقعد فى مواجهته يجلس طه حسين معتدلا متوثبا وعلى أطراف أصابعى وقفت أسوى شعرى وأعدل كرافتتى .. ثم سلمت وشكرته أن أتاح لى فرصة أن أراه فى صحة جيدة . وبدت السعادة على وجه طه حسين وهو يشكرنى بلهجة فرنسية سليمة وقبل أن أسأله ضحك ليسألنى وفى صوته الهادئ المبحوح قال لى :

ــ قرأت لك ما كتبته عن توفيق الحكيم . وأعجبنى .. ولكن أنا قرأت مسرحية « ياطالع الشجرة » مرتين .. وفى المرتين لم أفهم شيئا ، لم أعرف ما الذى يريد أن يقوله توفيق .. إنه فى المقدمة يتحدث عن الفن التجريدى والتعبير بالبقعة والمساحة الصوتية فى الموسيقى .. ولكن لم أجد شيئا من هذا فى مسرحيته وضحك طه حسين مرة أخرى ليقول :

إن توفيق مغرم بأن يلفت إليه الناس .. فأنا عندما قدمته للمجمع اللغوى قلت عنه إنه ليس بخيلا ولكنه يجب أن يشتهر بالبخل . وغضب منى توفيق الحكيم وإن كنت أتذكر أنه فى مقدمة أحد كتبه ذكر أنه لم يكد يرى الأوراق المالية من فئة العشرة جنيهات فى يد الناس حتى وافق على كل شروط الناشر .

وقلت لطه حسين : لكن الذى كتبه توفيق الحكيم يمكن فهمه .. ولذلك فهو شيء معقول .

وعاد طه حسين يقول : أؤكد لك أن توفيق الحكيم لايعرف ماذا يقول وأؤكد لك أن الذى كتبته أنت عن توفيق الحكيم لم يخطر له على بال .. اذهب إليه واسأله .. إن هذا يذكرنى بما حدث فى السوربون فقد استمعت إلى محاضرة لأستاذ يشرح قصيدة للشاعر بول فاليرى اسمها « المقبرة البحرية » وبعد أن فرغ الأستاذ من محاضرته اتجه إلى الشاعر يسأله إن كان ما قاله هو الذى يقصده ولكن بول فاليرى هز كتفيه وهو يقول : يجوز .. ولكن الذى قاله فاليرى معقول .. لأنه له رأيا فى الشعر وهو أن الشعر لكى يعيش يجب أن يبقى غير مفهوم .

قلت لطه حسين : إن توفيق الحكيم يحاول ارتياد منطقة اللامعقول وهو فى الوقت نفسه معقول جدا .. بل إنه وقف على الشاطئ وراح يبلل قدميه فقط ولكنه لم يشأ أن ينزع ملابسه العقلية ويستحم .

ولكن طه حسين لم يسترح لما قلت واستأنف كلامه :

شيء لم أسمعه .. شيء غير مألوف .. فى هذه المرة توفيق حاول أن يجعل البقرة فوق الشجرة .. وفى المرة السابقة جعل عربة البسبوسة فوق المسرح ووراءها وقف يوسف وهبى يطلق الرصاص على جمهور مسرحية « الأيدى الناعمة » هذا شيء غير مفهوم . إنه يذكرنى بالشاعر الذى ألف ديوانا « أناشيد مورورور » ثم طلب من سكرتيره فريد شحاته أن يسأل السيدة حرمه عن هذا الشاعر الفرنسى الذى عاش فى القرن الماضى .. وجاءت السيدة حرمه تبحث عن حافظة نقودها وتربت على كتفى الدكتور طه حسين وكأنها تعاتبه كيف ينسى اسم الشاعر لوتريامون ، ذلك الشاعر المتشائم التعس الذى تردد الناشرون فى طبع ديوانه سنة ١٨٦٨ .. ولم ينشروا منه سوى بضع صفحات حتى لايتهمهم

الناس بالجنون ، وفى الديوان يقول الشاعر عن البطل وكأنه يتحدث عن نفسه : أنت تظن أنك عاقل أنت مجنون .. وفى كل مرة تقول عن نفسك أنك عاقل يتأكد لى جنونك .. وفى كل مرة تتحسس نفسك يتأكد لى أنك شربت كأس العدم حتى نهايتها .

وقال طه حسين : هذا الشاعر لم يفهم أحد ماذا يقول .. لابالعقل ولا بغير العقل .. فلعل أخانا توفيق الحكيم يريد شيئا من هذا ..

سألت طه حسين إن كان توفيق قد زاره .. فأجاب :

ـ إننى لم أره منذ الصيف .

ـ ولا العقاد زارك ؟

ـ زارنى وترك لى بطاقة لطيفة ونسخة من كتابه « التفكير فريضة إسلامية » والعقاد جدع كويس .. وكتابه دراسة لا بأس بها عن التفكير فى الإسلام .. وقد كتب لى إهداء لطيفا يقول فيه : إلى نصير الفكر فى الدين والعلم والأدب العلامة الدكتور طه حسين .. والعقاد جدع كويس برغم ما فيه من حدة وقسوة .. وإذا تعرض له إنسان فلابد أن يرد عليه .. بل أحيانا يرد دون أن يتعرض له أحد . أذكر أننا كنا معا فى إحدى اللجان وتصفح العقاد مجلة « الرسالة » فوجد لى مقالا عن الأدب اللاتينى وقبل أن يقرأ المقال قال لى : طبعا سأرد عليها يادكتور طه .

وسألت طه حسين : هل تابعت معركة العقاد مع الدكتور كامل حسين ؟

فأجاب : قرأت ماكتبه العقاد وكامل حسين وزكى نجيب محمود وأكد لى الدكتور كامل حسين أن كتابه عن « وحدة المعرفة » ليس منقولا عن كتاب آخر للفيلسوف الإنجليزى صمويل الكسندر .. وأنه لم يعرف هذا الكتاب إلا أخيرا جدا .. وكان العقاد فى رده معتدلا وكان زكى نجيب قاسيا وشديدا .. والدكتور

كامل حسين سيرد على الاثنين .. وهو يقطع أن كتابه شيء آخر ولا علاقة له مطلقا بكتاب الفيلسوف الإنجليزى .

إنها معركة أخرى .. كامل حسين سيشتم العقاد مرة أخرى .. وأمين الخولى سيرد على العقاد .

عدت أقول لطه حسين : إن المحاولة التى قام بها توفيق الحكيم ليست إلا صدى للاتجاهات الجديدة فى الأدب فى فرنسا وفى انجلترا وفى ألمانيا .. وأن المسرح الأوربى يعرض روايات عن « العبث » وعن اللامعقول لأن العقل تعب من كل شيء منظم .. من كل شيء مرتب .. من كل شيء له سبب .. وللسبب سبب .. العقل أعطى لنفسه إجازة .

قال طه حسين : هناك أزمة فى الأدب الفرنسى .. أزمة مسرحية وأزمة قصة .. وأنا أخشى أن يكون هذا صدى لهذه الأزمة .. العقل فى أزمة فى حين أن الأدب الإنجليزى أكثر حيوية وأكثر انتعاشا .

وتراجع طه حسين فى مقعده وخشيت أن أرهقه فأشرت إلى سكرتيره إن كان من الممكن أن أمضى فى كلامى مع طه حسين فأنا لا أعرف مدى تحمله لهذه المناقشة فقد كان مريضا شهورا طويلة .. ولما عرفت أنه من الممكن .. اتجهت إلى طه حسين أستمع إلى ما سيقول :

وعدت أقول إنه لم يحدث فى عصر من العصور أن تقارب المعقول واللامعقول كما حدث فى عصرنا .. فنحن نبعث ببراميل مقفلة تمشى بسرعة عشرات الآلاف من الأميال إلى كواكب تبعد عنا ملايين الأميال لتقيس درجات حرارة السحب فوق هذه الكواكب .

وعرفت لماذا تراجع طه حسين فى مقعده فقد التقط شيئا أضحكه جدا وقال : إننى أقرأ الآن كتابا لأحد علماء دمشق .. توفى قبل أن ينشره وهو من

قرية المعرة التي ولد فيها أبو العلاء المعرى واسمه سليم الجندى وأعتقد أنه هو الذى نشر (رسالة الملائكة) لأبي العلاء وهي رسالة سيريالية أيضا ولكن ليست فيها بقرة تطلع الشجرة .. ولكن يستهلها أبو العلاء بأن يتقدم إلى الملائكة الذين جاءوا يسألونه فيقول لهم : قبل أن تسألونى أريد أن أسألكم عن شيء اختلف عليه كل علماء الصرف فى زمانى .. أريد أن أعرف : هل كلمة « ملك » على وزن فعل أو هل هى « مالك » على وزن فاعل !؟

وضحك طه حسين فى سخريته الرقيقة ولا أعرف إن كان من الممكن أن يشاركه الضحك أحد على هذه النكتة النحوية أو الصرفية وضحكت أنا أيضا لعله يكمل كلامه وقال طه حسين : إن أبا العلاء المعرى رجل لايؤمن بالأسباب .. لا يؤمن بأن لكل شيء سببا .. ولا يؤمن بأن الإنسان هو سيد الكون وان السمك امتلأ به البحر ليأكله الإنسان والطيور مخلوقة ليأكلها الإنسان فلا سبب فى هذا العالم وكل شيء ممكن .. وهو بهذا أقرب إلى اللامعقول من توفيق الحكيم ولم أعرف من أين أتى أبو العلاء بهذه الفلسفة .. وفى الحرب الأخيرة كنت أقرأ مقالات للفيلسوف الفرنسى مونتنى ووجدت فيها عبارة أخذت عن الحكيم جالينوس .. هذه العبارة بحروفها نقلها أيضا أبو العلاء وعرفت أن أبا العلاء قد نقل هذه اللامعقولية عن الترجمة العربية لجالينوس الإغريقى .

قلت لطه حسين : إن أكثر كتاب فرنسا المعاصرين لهم صفحات لامعقولة .. والقارئ الفرنسى لايستنكر .. لابعقله ولا بذوقه أن يقرأ مسرحيات تشبه اللوحات التى يراها لبيكاسو وغيره .. إن هناك صفحات مشرقة للفيلسوف الوجودى سارتر عن اللامعقول .. ومسرحيات للفيلسوف الوجودى كامى عن اللامعقول .. أو عن العبث .

وكان لابد أن يضحك طه حسين لشيء آخر جاء فى ذهنه فقال : أنا قابلت

سارتر فى باريس وسألنى عن السيدة المصرية التى تجىء إلى باريس وتشترى مقدمات لقصصها بمئات الجنيهات .. ولم أعرف من هذه السيدة . وقال لى سارتر إن هذه السيدة جاءت إليه وطلبت منه أن يكتب لها مقدمة على أن تدفع له ٣٠٠ جنيه .. وطبعا رفض سارتر .. ثم عرفت بعد ذلك أنها قوت القلوب الدمرداشية .

ـ ربما كانت هذه السيدة هى المقصودة فى مسرحية « جلفدان هانم » لعلى أحمد باكثير .. ولقد نجح باكثير فى تصويرها .

وضحك طه حسين مرة ثالثة أو رابعة ونظرت إلى وجهه المشرق ، ونظرت إلى سكرتيره فريد شحاته وعرفت أن الدكتور طه حسين فى أحسن حالاته النفسية وأنه من الممكن أن استمتع بالحديث إليه أكثر .. وكانت قهوتى قد بردت وسيجارته قد خمدت ولكن طه حسين أعاد لكل شىء الدفء والحرارة وهو يقول فى مرح : أخبرنى الأستاذ لالاند وكان رئيسا لقسم الفلسفة بجامعة القاهرة أن الفيلسوف سارتر تقدم لنيل شهادة الاجرجاسيون .. وقد حاول سارتر الشاب أن يثبت وجوده فأجاب على أسئلة الامتحان بطريقة جديدة .. فيها ثورة على الطرق الجامعية فى الإجابة والبحث .. ورسب سارتر ! ! وكتب لالاند فى تقرير عنه : إن الشبان الجدد لكى يثبتوا شخصيتهم يحاولون تحطيم القيم التقليدية . وقال لالاند إن سارتر تقدم لنيل هذه الشهادة مرة ثانية . ونجح ! ! ولم يشأ سارتر أن يجيب على الأسئلة بطريقته هو وإنما بالطريقة التقليدية .. وكتب لالاند فى تقرير عن سارتر : إن الشبان الجدد لكى يحصلوا على أية شهادة يفقدون شخصيتهم ويلتزمون القواعد القديمة فى البحث .

سألت طه حسين : هل فرغت من الجزء الثالث من « الفتنة الكبرى » ؟

فأجاب : إن الموضوع شاق ومعقد ومتشعب . ويحتاج إلى مراجع كثيرة جدا لكى أتابع الفكر وهو يتحول من ثورة سياسية إلى ثورة اجتماعية وكان ذلك قبل

مرضى .. أما الآن فأنا متعب ولا أستطيع شيئا .

وسألته : ماذا تقرأ الآن ؟

فهز رأسه واحناها ثم قال : هه ..

وقبل أن يجيب سألته : هل قرأت رواية « السمان والخريف » ؟

قال : قرأت ما كتبته أنت .. ونجيب محفوظ من الممتازين وأعجبتنى قصة « اللص والكلاب » وهى أقرب إلى أن تكون قصة بوليسية .

وسألته إن كان قد قرأ شيئا للأدباء الشبان ..

وابتسم ليقول : لقد قرأت ، قررت ألا أشترى لهم كتبا .. فالذى يريدنى أن أقرأ له عليه أن يبعث لى بكتبه .

وسكت ليتخذ طابعا جادا : ثم إنهم عصبيون جدا .. لقد كتبت مقدمة لكتاب طبعه الناشر لطف الله سليمان وناقشت فى المقدمة قضية الفصحى والعامية .. وعلق أحد النقاد على كلمتى بأنها مذبحة .. تصور .. مذبحة .. ولكن الشبان يقرأون .. ولا يعرفون العربية .. وما دام مدرسوهم وأساتذتهم لا يعرفون اللغة العربية ويفضلون الجلوس فى المقاهى على قراءة الكتب فمن أين يتعلمون العربية ، إن أستاذا فى الجامعة خلع حذاءه ليضرب أستاذا آخر وهو يقول له : هذه هى اللغة التى أكلمك بها .. هه !

قلت له : إن الشبان يأخذون على أساتذتهم من الشيوخ أنهم عصبيون أيضا .

وسكت طه حسين وكأنه يفكر فى دفع هذه التهمة عن الشيوخ ليقول :

إن العقاد مثلا يضيق بالشعر الحر فى حين أنه هو شخصيا حاول كثيرا أن يتأثر بالشعر الإنجليزى .. فهو حاول أن يتحرر والعرب أنفسهم غيروا فى أوزان

الشعر عندما دخلت الموسيقى فى حياتهم وخصوصا فى عصر بنى أمية .. فلماذا لا يجدد الشبان ؟.. ثم حكاية تغيير الخط العربى .. هناك من يعارضون فى تغيير الكتابة لماذا يعارضون ؟ إن النبى موسى نزلت عليه « الألواح » مكتوبة ولكن النبى محمدا عليه الصلاة والسلام لم يهبط عليه القرآن مكتوبا .

ومن بعيد جاء صوت موسيقى .. فسألت طه حسين : هل تسمع الراديو ؟ فأجاب : كنت أسمعه ساعة أو ساعتين. لكنى الآن لاأستطيع.. إننى أفضل القراءة وضحك بكل قوته ليقول : جاءنى كامل الشناوى منذ وقت طويل وفوجئت بأن معه راديو ترانزستور وفوجئت بصوت .. لعله صوت نجاة الصغيرة .. فصرخت فيه وقلت له : اقفل يا كامل ! وبإشارة من هنا وحركة خارج الغرفة الهادئة نهضت شاكرا ومتمنيا للأستاذ العظيم الشفاء العاجل .

وخرجت وفى أذنى عبارة طه حسين :

اذهب إلى توفيق الحكيم واسأله .

وذهبت إلى توفيق الحكيم ليعاجلنى بقوله : أنت نورتنى .. أنت أمسكت مصباحا وأشعت النور فى مسرحيتى .. أنت كتبت عن مقدمة المسرحية كلاما أضاء جوانب نفسى .. أنت لفت نظرى إلى أشياء لم تخطر لى على بال .. وكلها صحيحة أنت ... الخ .

ولكن كلام طه حسين .. وكلام توفيق الحكيم يثير قضية هى قضية النقد الأدبى نفسه .

* * *

إن كتابا يظهر .. ويمسكه الناقد ويقلبه .. وأثناء التقليب يشعر بأشياء وأجواء ومعان غريبة .. قد لا تكون لها علاقة بهذا الكتاب .. وإنما لها علاقة بثقافة الناقد وإحساسه الخاص ورأيه فى المؤلف .

وبمناسبة هذا الكتاب يمسك الناقد قلمه ويكتب مقالا أو بحثا .

فمثلا مسرحية « يا طالع الشجرة » لتوفيق الحكيم .. من الممكن أن يتناولها ناقد على أنها نتيجة مودرن للفنون الشعبية أو مسرحية رمزية مأخوذة من صعود الإنسان إلى القمر .. وأنه ليس بعيدا أن يطلع الإنسان إلى السماء ويعود ومعه بقرة .. أو لبن جاف .. أو عصفور أو أى حيوان آخر .. وأن الكلبة لايكا ارتفعت إلى السماء .. إذن فقد طلعت البقرة والكلبة إلى مافوق الشجرة بمئات الأميال .. ثم إن هناك طائرات لنقل الحيوانات عبر المحيطات .

ومن الممكن أن يفسر أى ناقد مسرحية « ياطالع الشجرة » بأن لها علاقة بآدم وحواء وأوزوريس وإيزيس .. والخطيئة الإنسانية فإذا اكتشفت أن هذه مقدمات بعيدة جدا وأنها من الممكن أن تكون بعيدة عن خيال أوضح ومن الممكن ـ وهذا ما قلته لتوفيق الحكيم ـ أن يقول ناقد إن توفيق الحكيم سافر إلى عزبة والدته فى دمنهور وراح يتمشى فى الحقول يستعرض الأبقار والحمير وألوف الحمام وفجأة أحس توفيق الحكيم بشىء غريب .. لقد وجد الفلاحين يربطون حبلا فى شجرة ويسحبون من بئر الساقية بقرة أو ثورا .. ولايزال الفلاحون يسحبون البقرة حتى تتكسر الشجرة .. وهنا فقط يتنبه توفيق الحكيم كما فعل نيوتن عندما سقطت التفاحة إلى جواره إلى أن هناك شيئا مستحيلا .. ويهز توفيق الحكيم رأسه ويتساءل : هل معقول أن البقرة تطلع الشجرة ؟

وبعد ذلك يرد توفيق الحكيم على نفسه : معقول .. القمر الصناعى كان فيه كلاب .. جوز كلاب .. والحديد بيطير.. والأطفال يغنون ليل نهار .. يا طالع الشجرة هات لى معاك بقرة .. أو شيل معاك بقرة .. أو امسك معاك بقرة .. الدنيا تغيرت ..

ويرد توفيق الحكيم على نفسه قائلا :

أنا مرة سألت إسماعيل ابنى : إيه اللى عدا البحر ولا اتبلش وإسماعيل ابنى كان رده إيه : الطيارة ! فى حين أن احنا اتعودنا أن نقول : العجل فى بطن أمه .. العجل نفسه من غير ما يدخل فى بطن أمه ممكن يعدى البحر فى الطيارة .. ولايتبلش زى إسماعيل ابنى مابيقول !

قلت لتوفيق الحكيم إنه من الممكن أن أكتب عنه ـ أنا أو غيرى ـ هذا الكلام وهو طبعا لايرد .. ويأخذها الناس على أنها حقيقة .

وبذلك يصبح التاريخ كذبا فى كذب ..

والسبب هو أن الناقد يقول ما يشعر به هو وليس ما يشعر به المؤلف .. والناقد لايكتب عما قرأ بالفعل .. ولكن بمناسبة ما قرأ .

والناقد أحيانا يشعر بأن المؤلف خالق وأنه يقوم بشرح ما فعل المؤلف .. وأن دوره يجىء بعد المؤلف وهذا الاحساس يضايق الناقد ولذلك فهو ينتهز هذه الفرصة ليخلق شيئا آخر قريب الشبه بما فعله .. خصوصا أن الناقد متهم بأنه ليس مؤلفا .. وإنما هو مؤلف فاشل ..

هذا الشعور يضايق بعض النقاد .. ولذلك فالناقد ينتهز فرصة ظهور كتاب أو مسرحية أو قصة أو ديوان ويقيم مظاهرة من المعلومات والأسماء .. وتسير المظاهرة إلى بيت المؤلف .. أو إلى بيت العريس وفى الزحام الشديد يختفى المؤلف ولا يظهر إلا الناقد نفسه .

وتضيع الحقيقة بين مؤلف لايضايقه أن يهتم به الناس وأن تختلف اهتماماتهم به وبين ناقد لايريد أن يكون مجرد إصبع يشير أو عسكرى مرور ولذلك يجلس الناقد على كتفى العريش فيبدو واضحا بارزا .. يتلقى عنه التهانى ويترك له اللعنات .

سألت توفيق الحكيم بعد فترة صمت طويلة : ما رأيك؟

فأجاب : والله ما أنا فاهم حاجة..

وسألته : من مسرحيتك ؟

فقال : من الكلام المكتوب عنها .

فقلت له : غدا سأكتب لك عن كيف استوحيت أنت طلوع البقرة للشجرة من منولوج حادرجه بادرجه لمحمود شكوكو .. فضحك وهو يقول : والله يجوز .. لكن تعرف .. برضه مش راح افتح بقى .

بذلك يعاون المؤلف فى انتشار الكذب عنه .. وعن غيره !

سحلية مجلس الفنون

كل يوم تصعد السلم الخشبي .. وتقع عليها الشمس ليبدو لونها أكثر اخضرارا . ثم تدير رأسها يمينا وشمالا ، كأنما تبحث عن أحد ، وتحدث حركة فى الغرفة ، فينهض رجل جالس ملفوف فى بالطو ، وتحت البالطو جاكتة ، وتحت الجاكتة صديرى وقميص مزموم بكرافتة من جلد الثعبان الذى لايبلى ولا يتغير لونه ، وتحت القميص فانله من الصوف ، ثم يخرج صوت مرتجف ينادى حوش يا محمود .. شوف ايه ده .. !

وينفتح باب آخر ويتقدم محمود وعند وقع أقدام محمود تنسحب السحلية من فوق عتبة الباب وتهبط السلم الخشبي إلى حديقة مجلس الفنون .. ويعود توفيق إلى مقعده وتغوص إصبعه فى خده ، ويسرح . وبحركة لا إرادية يخرج ساعته الكبيرة من جيبه وينظر فيها فيجد أنها الساعة الحادية عشر صباحا بالضبط ، ويطلب فنجان القهوة . وعندما يجيء الفنجان يخرج علبة صفيح بها أقراص الأسبرين . ويمتص الأسبرين ويكسرها بأسنانه ويبتلع وراءها القهوة ، ويعاود السرحان . وفى اليوم التالى تظهر السحلية . ومع ظهور السحلية يخرج ساعته فيكتشف أنها الحادية عشرة بالضبط . وفى نفس الموعد ينتظر السحلية ويضبط عليها ساعته . ولاينادى على محمود يوسف سكرتيره . فلم يعد هناك خطر من وجودها . وعندما اختفت السحلية ظهرت سحلية أخرى فى رأس توفيق الحكيم تلعب وتطل برأسها فى شكل أسئلة غريبة صعبة : أين ذهبت ؟

ومن أين تجيء ؟ ولماذا فى هذا الموعد بالضبط ؟ ولماذا توفيق الحكيم بالذات ؟

وراح توفيق الحكيم يتساءل : وإذا فرضنا أن هذه السحلية هى زوجة .. زوجة عجوز تتردد على مكان ، وتختفى عن زوجها يوما أو اثنين أو ثلاثة ثم عادت إليه وسألها أين كنت فما الذى تستطيع أن تقوله . وإذا حاول الزوج أن يتكهن أين كانت فكل ماسيصل إليه مجرد احتمالات .. قد تكون عند صديقة أو عند أمها أو أصابتها سيارة . ولكن عندما لاتكون لهذه الزوجة صديقة أو أم أو لم يصبها حادث . فما الذى وقع لها . والجواب لابد أن يكون مجرد احتمال . أما الجواب القاطع فهو مستحيل . فليس أسهل من الأسئلة وليس أصعب من الأجوبة وقد استغل توفيق هذه السحلية فى مسرحية « يا طالع الشجرة » وعندما تناقش مع المخرج سعد اردش كان من رأيه أنه لاداعى لأن تظهر السحلية على المسرح .. ولكن اختفاء السحلية يجعل هذه المسرحية معتدلة جدا .. ولكن لكى تبقى هذه المسرحية لا معقولة وغريبة ومثيرة لابد أن تظهر هذه السحلية بشكل ما ..

فسحلية توفيق الحكيم أصبحت نقطه تحول فى المسرح العربى .. إنها اكتشاف (التفاحة) التى سقطت فوق رأس نيوتن فأدت إلى اكتشاف قانون « الجاذبية الأرضية » .

وهى تشبه (براد الشاى) الذى كان يغلى أمام جيمس وات فأدى إلى اكتشاف الآلة البخارية .

وهى تشبه « الصرصار » الذى وجده أينشتين فى مسكنه الصغير فى سويسرا فعرف منه أن الشتاء قد أقبل رغم أن الأرصدة الجوية تؤكد أن الجو معتدل .. واستنتج اينشتين أن هناك أكثر من تقويم وأكثر من زمن مما أدى إلى اكتشاف نظرية « النسبية » .

وهى أيضا تشبه «الفأر» الذى تحدثت عنه كتب الموسيقى العربية والذى

يقال إنه أحدث تجويفا فى قطعة من الخشب ، وقد أدى هذا التجويف إلى أن القطعة الخشبية عندما تدق عليها تحدث رنينا ، ويقال إن الفيلسوف العربى (الفارابى) قد تعجب لنباهة الفأر فقيل إن الفأر هو الذى علمه ، بل إنه أستاذه ، بل هو أيضا أبوه ومن هنا كان أسمه : الفأر .. أبى !

فهناك ملايين من الناس يرون السحلية ولاتعتبر رؤية السحلية حادثا فى حياتهم .. وملايين سقطت فوق رءوسهم الفواكه والطوب .. ولكن واحدا منهم لم يفكر فى سبب سقوط الاجسام على الأرض ، بدلا من طيرانها فى الهواء !

فالسحلية حادث فى حياة أى إنسان .. ولكن فى حياة توفيق الحكيم لاتعتبر حادثا ، وإنما تعتبر حادثا عظيما . أو كما يقول الفيلسوف أشبنلجر يعتبر هذا الحادث قدرا أو مصيرا . لأنها نقطة تحول فى اتجاه الأدب ، أو فى الفكر ، إلى اتجاه آخر جديد !

وحادث آخر بسيط ، أو أكثر بساطة رآه توفيق الحكيم فأدى إلى عمل فنى جديد ..

فعندما سافر توفيق الحكيم إلى الإسكندرية ، لاحظ ، وكأنما لأول مرة فى حياته ، بقعا على سقف البيت .. البقع هى (نشع) بسبب الرطوبة أو بسبب ضعف السقف عن تحمل مياه الغسل والمسح فى الدور العلوى .. واندهش توفيق الحكيم عندما وجد أن لهذه البقع شكلا بل أشكالا غريبة .. بعضها يشبه وجوه الناس .. واندهش لدهشته هو . ولكنه لم يتوقف عند الدهشة ، وإنما ذهب إلى أعمق من ذلك ، فلاحظ أيضا أن الأطفال عندما ينظرون إلى القمر يتخيلون أنه يضحك لهم وأحيانا يكلمهم وهؤلاء الأطفال لايتخيلون ، وإنما الخيال والواقع عندهم شىء واحد .. مع أننا نعرف أن الذى نراه على وجه القمر ليس إلا جبالا ووديانا ، ولكنك ترى هذه الوديان والوهاد من بعيد على

أنها ملامح وجه ، وهذا الوجه يعكس حالتنا النفسية من مرح وحزن .. وكذلك أشكال السحب ، لها ملامح إنسانية وحيوانية ، ولها حركات معبرة .. وعلماء النفس يستخدمون نوعا من البقع يقدمونها للمرضى ويسألون المرضى عن معانى هذه الأشكال ، وكل واحد يرى فى هذه الأشكال أو فى هذه البقع حالته النفسية . فهو يقوم بنوع من « الإسقاط » أو بنوع من إخراج متاعبه ومخاوفه وإسقاطها على الورق .. أو على البقع ..

هذه البقع تشبه رواسب البن فى فنجان القهوة .. وهناك ملايين يقرأون الفنجان .. وتشبه أشكال السحب ، وهناك أناس يقرأون السحب أيضا ؟.

ومن هذه البقع التى رسمتها الرطوبة فى الإسكندرية استوحى توفيق الحكيم الموقف اللامعقول من مسرحية « الطعام لكل فم » وفى هذه المسرحية يؤكد توفيق الحكيم أن بطلى المسرحية يريان على الحائط وجوها حقيقية وقصة واقعية . وأن الذى يريانه ليس وهما ولاخيالا ولا إسقاطا بل إنهما لايعرفان أسماء هؤلاء الناس ، وإن كانا يعرفان بشكل من الأشكال قصتهم .. فإذا كنا نرى على الحائط إناسا قد خرجوا من بقعة الماء والطين ، فلا غرابة فى ذلك . فالإنسان نفسه خلقه الله من ماء وطين !.

وفى مسرحية قديمة لتوفيق الحكيم اسمها « بيت النمل » ترجمت فى العام الماضى إلى اللغة الأسبانية ، نجد أحد العفاريت يخرج من الحائط ويتحدث إلى بطل المسرحية .

وفى مسرحية « يا طالع الشجرة » نجد أحد الدراويش يمد يده إلى الهواء فيأتى بتذاكر القطار .. وهذا عمل غير معقول ..

وتوفيق الحكيم قد رأى بنفسه رجلا يستطيع أن يدلك على ما فى جيبك ويستطيع أن يرى بعينيه ما تخفيه فى دولاب . والدرويش الذى يأتى بالتذاكر من الهواء ، ليس إلا تكرارا لحوادث الشيخ سليم المشهورة التى يعرفها الكثير من

الأدباء والفنانين فى القاهرة والتى حدثت منذ أربعين عاما ، فقد كان قادرا على أن ينقل أى شىء من مكان إلى مكان وأمام الناس ..

ويروى توفيق الحكيم أن وزير خارجية بريطانيا كان يركب إحدى السفن من الهند فى طريقه إلى انجلترا واكتشف وهو فى منتصف الطريق أن وثيقة هامة قد ضاعت منه . فطلب إلى قائد السفينة أن يعود فورا إلى الهند . وعندما تحولت السفينة قفز أحد البحارة وطلب من القائد أن يمضى فى طريقه وأنه سيذهب هو ـ أى البحار ـ إلى الهند ويأتى بالوثيقة . وكان قائد السفينة يعرف هذا البحار ، ويعرف أحواله الغريبة واختفى البحار ثلاث ساعات . وعاد والوثيقة فى يده . ولما سأله القائد والوزير وكل المسافرين كيف حصل عليها ، أجاب بأنه ذهب إلى الهند وأحضرها !.

ومن هنا كان الإسراء والمعراج من المعجزات . ولكنها ليست معجزة بالنسبة لشخصية غير عادية كالرسول عليه السلام . ولابد أن يهتدى العالم فى المستقبل إلى نقل الإنسان نفسه من مكان إلى مكان عن طريق نقل ذرات جسمه واحدة واحدة من مكان وجمعها فى مكان آخر.!

ولما سألنى توفيق الحكيم عن تحضير الأرواح عن طريق السلة قلت له إننى رأيت هذه التجربة الغريبة عشرات المرات ، ولم تكن هناك أية خدعة .. ولا أعرف لها أى تفسير . ولكن توفيق الحكيم قاطعنى قائلا : هذا هو الغلط . فأنت يجب ألا تسأل عن أى تفسير . لأن الأرواح وتحضيرها واستدعاءها ووجودها وشعور الناس بها اليوم ومن ألوف السنين ، حقيقة لا جدال فيها ، ولكن العقل الإنسانى لايستطيع أن يفهمها . لأنه عاجز عن إدراك الكثير مما حولنا ..

فكما أن اليد لاتستطيع أن تحتضن الهرم فكذلك العقل كاليد لايستطيع أن يحتوى الكون كله .. فالعقل عاجز وصغير ، والكون أعقد وأكبر..

وقد ناقش توفيق الحكيم «عجز» العقل الإنسانى فى مسرحية «بيت

النمل » .. فلو فرضنا أن الإنسان نمله ، فإن حركة النملة محدودة جدا فى غرفة أو فى بيت على الأكثر. ولكن لاتستطيع النملة أن تتحرك فى مدينة أو فى كل المدن ، أو فى دولة أو فى الكرة الأرضية . والنملة هذه لاندركها نحن ولكنها تدرك ذرة فى حذاء أى واحد منا . ولابد أن النمل عندما ندوسه بأقدامنا يتصور أن احذيتنا هى إحدى كوارث الطبيعة .. ولابد أن يتصور أن الماء الذى نلقيه فوقه هو أحد الفيضانات ..

وكذلك العقل الإنسانى لايستطيع أن يدرك كل شىء ..

ولابد أن نكبات الطبيعة التى نتصورها هى بعض الماء أو الأحذية التى تلقيها كائنات أخرى لانراها ولا نعرفها . تماما كما أن النمل لا يرانا ولايعرفنا . ونحن عادة نسمى كل شىء لانعرفه بأنه كارثة من كوارث الطبيعة مع أنها من فعل كائنات أخرى غير معروفة . وفى مسرحية « بيت النمل » نجد ان عفريتة خرجت من الحائط ووضعت منظار البطل فى جيب شخصية أخرى . ويفتش البطل عن المنظار فيجده فى جيب الشخصية الأخرى وينسب وجودها فى جيب الشخصية الأخرى إلى النسيان . فلابد أن هذه الشخصية قد وضعتها فى جيبها سهوا . مع أن العفريتة هى التى نقلتها من جيب إلى جيب . فليس النسيان والسهو والغفلة إلا كلمات نطلقها على جهلنا بالقوى الخفية الموجودة فى الكون . فليس الإنسان هو كل ما فى الكون . وليس عقل الإنسان هو الأداة الوحيدة لإدراك كل مافى الكون . والنتيجة المؤكدة أن الإنسان ليس وحده فى هذا العالم !

والمأساة الحقيقية التى يعيشها الإنسان هى : إن لديه أسئلة واضحة كثيرة وأنه بمرور الوقت قد اكتسب القدرة على التساؤل ولكنه عاجز تماما عن الإجابة عن هذه الأسئلة . هل هناك أبسط من هذا السؤال : كم عدد النجوم فى السماء ؟ ولكن ما أضعف الإجابة ! ماعدد النمل فى هذا البيت ! أو فى هذه المدينة أو فى هذا العالم ؟

لاجواب على هذا السؤال ! كيف نشأت الحياة على الأرض؟ ما هو الموت ؟ أين الله ؟ من أنا ؟ من أنت ؟.. إلى آخر هذه الأسئلة الواضحة والتى لاجواب عليها !

والعقل الإنسانى يصطدم باستمرار بنفسه .. بأفكاره .. ولكنه لايفهم نفسه ولاقدراته .. فنحن نرى بعيوننا ولكننا لانرى عيوننا ..

وكذلك العقل الإنسانى نفكر به ولاندركه . وإنما ندرك الأشكال التى ينظمها . القوالب التى يصنعها . فالعقل يفرز قيوده . كالعنكبوت يفرز خيوطه ليصيد بها الفريسة من الذباب . ولا تزيد قوالب العقل وخيوطه ونظمه عن نسيج العنكبوت ولاتزيد قدرات النسيج عن تحمل أوزان أخرى أكبر من الذبابة .. فهل لو أعلن العناكب أن خيوطها هى أقوى الخيوط وأنسجتها هى أقوى الأنسجة فهل يكون كلام العناكب معقولا ؟. وإذا كان معقولا ، فهل هذا هو المعقول الوحيد ؟..

ولكن العقل الإنسانى قادر على أن يتحرر من قيوده .. على أن يثور على قيوده ويلقى بنفسه فى غمار اللامعقول .. فى غمار علامات الاستفهام التى لاجواب عليها ..

ومن هنا كان الغموض فى أفكارنا ..

ومن هنا كان الغموض الذى يجب أن يتعرض له الفنان . أو الغموض الذى ينوء تحته الفنان . فالغموض لامفر منه .. لاحيلة فيه .

والغموض يجب ألا يكون هو النتيجة لأى عمل فنى ، فإن هذا يدل على عجز الفنان . ويجب ألا يكون بداية لأى عمل فنى وإلا كان نوعا من النصب والدجل ..

ولكن إذا وجدنا الفنان يعالج موضوعا دقيقا بأسلوب دقيق ـ على حد قول

توفيق الحكيم ـ نتج عن ذلك بعض الغموض على الرغم منه . فهذا الغموض ليس إلا نقصا يرجع إلى طبيعة الموضوع وطبيعة الشكل الفنى لهذا الموضوع ، كالغموض فى لوحات بيكاسو ومسرحيات يونسكو وتوفيق الحكيم . فهذا الغموض عيب مرحلى ، عيب ستتخلص منه الأجيال بعد ذلك . تماما كالأدوية الحديثة التى تشفى بعض الناس ، وتضر البعض الآخر لابد أن تعاد إلى المعامل لتجرى عليها تجارب جديدة . فهذه الأدوية ليست نهائية . وهذه الأعمال الفنية ليست نهائية . وإنما هى معملية تجريبية طليعية ..

وكان من الممكن أن يشرع توفيق الحكيم فى تأليف مسرحية جديدة لولا أن حادثا جديدا وقع له فى فندق شبرد فقد تقدم له أحد الشبان ، كأنه سحلية جديدة ، وعندما امتدت يد توفيق الحكيم تلتقط الأوراق التى كتبها هذا الشاب ويلتقط فى نفس الوقت الكلمات المتعثرة التى خرجت من فم هذا الشاب وهو يقول : إنها مسرحية جديدة من تأليفى .. وهى مسرحية لا معقولة !

وسأله الحكيم إن كان قد ألف للمسرح قبل ذلك . وكان جواب الشاب بالرفض . وإن كان قد قرأ المسرح الإغريقى ، أو المسرح الرومانى أو الحديث أو درس النقد أو تردد على المسارح وكانت الاجابة كلها بالرفض ..

ووقف توفيق الحكيم وفى ذهوله المسرحى راح ينادى : حوش يا محمود .. شوف إيه ده ؟

ولم يكن فى فندق شبرد محمود يوسف سكرتيره الخاص ، لينقذه من زحف اللامعقول فى جلد السحالى وفى أوراق الشبان .. ولكن توفيق الحكيم قرر ألا يكتب حرفا لهذا المسرح اللامعقول بعد ذلك .. وإنما يكفى أنه سجل على نفسه شيئا واحدا هو أنه حاول أن يفهم ونجح فى ألا يفهم شيئا !

محنة علاجها القراءة

الكلام عن مسرح الجيب ..أو مسرح اللامعقول أصبح موضة : تقليعة (نحن الآن فى سنة ١٩٦٣) .

كل واحد عنده كلام يقوله عن هذا المسرح .. الذين شاهدوه والذين لم يروه . والذين رأوه يضيفون إلى الكلام أشياء كثيرة من عندهم والذين لم يروه يؤكدون أنه شيء لا يستاهل الفرجة مع أن الذى ظهر فى مسرح الجيب رغم هذا الدوى الضخم ، ليس أكثر من مسرحيتين اثنتين فقط .. مسرحية قامت بالبطولة فيها «الكراسى الفضية» .. عشرات الكراسى موضوعة على المسرح . ويجيء البطل ويتحدث إلى الكراسى كأن الناس يجلسون عليها ويتكلم معهم واحدا ، واحدا ، ويلقى عليهم بالنكت ويعتذر عندما يصطدم بهم ! .

ومسرح اللامعقول فيه فكرة عن أصحابه مثل يونيسكو وبيكيت وجينيه ، وهى أن الإنسان أو الإنسانية كلها فى حالة موت .. فى حالة نهاية .. وأنها تقول كلمتها وهى على فراش الموت .. والذى يجعل الموت مشكلة مؤلمة جدا .. أن أحدا لا يسمع أحدا .. فالإنسان يموت وحده .. ويتحدث إلى نفسه .. ولا توجد صلة بين إنسان وإنسان .. والأمل الوحيد الذى عنده هو أن ينتظر .. والانتظار معناه أن أحدا سيجيء .. والنتيجة أن هذا الأحد لا يجيء .. رغم الانتظار الطويل .. والذى يحدث للمتفرج هو أنه ينتظر أيضا .. ينتظر أن يكون هناك معنى ، أن تكون هناك فكرة .. وأن هذه الفكرة ستجيء إلى رأسه بعد

ساعة أو بعد ساعتين .. وتنتهى المسرحية عادة ولا تجىء هذه الفكرة .. ويخرج الأشخاص من المسرحية ، وقد انتظروا بلا نتيجة ويخرج المتفرجون من المسرح وقد انتظروا المعنى أو الفهم أو النتيجة ، وبلا نتيجة !.

ومعنى الانتظار أو الإصرار عليه ورغم أنه لا نتيجة أن الإنسان ما زال عنده أمل .. وأنه ينتظر حتى إذا لم يكن هناك أمل فى أن يجىء أحد .. إنه انتظار أبدى .. انتظار الأرض لمطر السماء وانتظار السماء لبخار الأرض .. انتظار بلا نهاية !.

لكن مسرح اللامعقول يعبر عن هذه المعانى بصور غريبة .. بصور غير مألوفة .. وبأسلوب غير مألوف .. كأن العقل الإنسانى قد تعب من كل ما هو مألوف فراح يتفنن فى الصور الغريبة الشاذة .

فأية لخبطة فى أى كلام وبأى شكل أصبح الناس يسمونه شيئا لا معقول .. وأى بهدلة فى المظهر .. يعتبرها الناس شيئا لا معقولا .

على أن « اللامعقول » أو اللخبطة الشكلية التى تظهر على المسرح هى لخبطة مدروسة ، لخبطة متعمدة .. فإذا ظهر واحد يهذى فلأن المؤلف قصد أن يهذى .. وليس هذا الممثل الذى يهذى ، رجلا قد نسى دوره . أو أنه يذكر الدور ولكن لا يسمع كلام الملقن ، أو أنه يسمع كلام الملقن ثم وجد قاعة المسرح فارغة أو أن المتفرجين القلائل قد استغرقوا فى النوم .

أبدا .. وأن هذا الهذيان مقصود ، مرسوم وله معنى معقول جدا ..

ولكن الناس عادة تستسهل هذه الصور الغريبة وهذه التعليقات الغريبة وتتهم مسرح اللامعقول أو مسرح العبث وتقول عنه . أى كلام فارغ أو أى كلام غير معقول .

والذى حدث بالنسبة لمسرح اللامعقول .. حدث مثل ذلك للفلسفة

الوجودية .. فكل واحد ملخبط فى مظهره ، مبهدل فى حياته الاجتماعية يسمونه : وجودى !.

فى حين أن «الوجودية» فلسفة جادة جدا .. وعميقة والذين يدعون لها مفكرون جادون ، ولهم مواقف سياسية معروفة وعميقة .. وكتبهم مليئة بالدراسات والتفسيرات الصادقة للتاريخ والسياسة والقيم الأخلاقية والاجتماعية .

والوجوديون تناولوا حياة الإنسان بعد الحرب الثانية فى أوربا ... ورأوا الجروح العميقة التى أصابت الإنسان فى كبريائه ، وفى عقله والتى هدمت تراث الإنسانية كلها تحت ضربات القنابل التى أطلقها مجانين ، يتحكم فيهم مجانين آخرون .

فجاءت الوجودية تصرخ وتنادى الناس بأن ينتبهوا إلى أن الإنسان له قيمة .. وأن الإنسان يساوى أن يعيش .. ويساوى أن يحرص على حريته وعلى كرامته وأن الإنسان هو سيد مصيره .. وأن الإنسان يجب ألا يكون عبدا ذليلا للمقامرين مصاصى الدماء أو رجال السياسة أو رجال المال .

وفى المسرحيات والقصص التى كتبها الوجوديون ـ من أمثال : سارتر وكامى وسيمون دبوفور ومارسيل وغيرهم ـ ظهرت صور غير مألوفة للناس .. صور تغيب عن العين ، صور لا يحب الناس أن يروها ، صور يجب أن يقتربوا منها وأن يبحثوا فيها عن الإنسان الضائع الإنسان الذى لا يجب أن يضيع . دائما يجب أن يجد نفسه .. فإذا وجدها يتمسك بها وإذا تمسك بها فبحريته .. وإذا كانت له حرية . فهذه الحرية معناها أنه مسئول .. وكل إنسان حر وكل إنسان يجب أن يكون مسئولا .

فوجودى معناه : حريتى وحريتى معناها : مسئوليتى .. عن نفسى وعن الناس جميعا .

ولكن الناس استسهلوا هذه الصورة الممزقة للإنسان الضائع ونسوا المعنى العميق وراء هذه الصورة .

واكتفى هؤلاء الناس بتمزيق ملابسهم وإطالة لحاهم ، وارتداء ملابس الفتيات والنوم على الأرض كى تدوسهم عجلات الزمن وهم سكارى .

والسكران هو إنسان أراد أن يفقد حريته ، بمحض حريته لتضيع منه مسئوليته .. فهو هارب من نفسه وهارب من دوره فى بناءنفسه وبناء الآخرين !.

وحدث هذا أيضا بالنسبة للفن السريالى .

والسرياليزم تشمل الرسم والنحت والأدب أيضا . فهناك رسام سيريالى وشاعر سيريالى .

والسريالية اتخذت لها مجالا أوسع فى الرسم .

فالسيرياليزم تعبير عن المعانى المجردة .

فإذا كانت مدارس الفن الأخرى تعبر عن الإنسان الناقص أو الفتاة الهاربة فإن السيريالية تعبر عن الإنسانية .. وعن الخوف وعن الهرب وعن الحب وعن الجمال .

وكل هذه معان لا ترى .. وهذه هى الصعوبة .

والصعوبة بالنسبة لمن يتفرج على هذه اللوحات الفنية .. فإنه يجب أن يفكر بعقله لا أن يفكر بعينه .. ولذلك كانت اللوحات السيريالية صعبة الفهم .

وكانت لوحاتها تبدو ملخبطة .. غير مألوفة .. فلا يوجد بها التناسب المألوف بين ملامح الوجه ، أو أعضاء الجسم أو بين هذا الجسم والأجسام الأخرى .

ورواد السيريالية أساتذة عظام مثل : بيكاسو ودالى ودى كريكورمور ..

بدأوا حياتهم الفنية بلوحات واضحة مفهومة .. خطوطها وألوانها يسهل فهمها بمجرد رؤيتها .

وبعد ذلك اتجهوا إلى التعبير المجرد .. أو التعبير التجريدى . أو التعبير عن المعانى المجردة الحاضرة فى الذهن . أو المكبوتة .. عن الأحلام .. أحلامى أنا وأحلام البشرية كلها .. وفى صورها الغريبة الشاذة .

ولكن الناس استسهلوا أيضا الكلام عن السيريالية والرسم بالطريقة السيريالية .. فظهر شبان كثيرون لا يعرفون كيف يرسمون .. ولكنهم قادرون على اللخبطة .. فلخبطوا وأمسكوا الفرشاة بأيديهم أو بأرجلهم أو بأيدى غيرهم .. والنتيجة لوحات مشخبطة وغير مفهومة .. والاسم طبعا : سيرياليزم .

فى حين أن الخطوط غير المألوفة عند الفنانين السيرياليين الكبار . لها أسس .. لها قواعد .. وأصول . وهناك أسباب فنية وفلسفية تدفعهم إلى هذا النوع من التعبير .. فهذه الأساليب فى الرسم سببها القدرة على التغيير والتعبير وليس سببها العجز عن التعبير أو جنون الموضة .. أو جنون التقاليع .

فليست كل لخبطة فنا .. ولا كل الفنون لخبطة !.

والذى يمسك القلم ويلخبط ليس كالذى لا يعرف أن يمسك القلم ثم يلخبط .

وإذا رأيت إنسانا يركب موتوسيكلا ويمشى به فوق سلك معلق فى الهواء .. فليس معنى ذلك أن هذا الإنسان لا يجد له مكانا على الأرض .. ولكن هذا الإنسان يريد أن يعرض قدرته على المشى فوق خط من الحديد .

وإذا رأيت إنسانا يركب موتوسيكلا ويمشى على خط أبيض مرسوم على الأرض ، ثم يهتز كالذى يمشى فوق سلك . فليست هذه مقدرة ، وإنما هو عجز ، وهو تقليد أعمى .. تقليد ليس وراءه معنى أو مقدرة .

وما أكثر الذين يمشون على الأرض، ويوهمون الناس أنهم يمشون على السلك المعلق فى الهواء فوق رءوس الناس !.

فما أكثر الجرائم الأدبية الفنية التى يرتكبها الناس باسم اللامعقول والسيريالية والوجودية .. وغيرها من الاتجاهات العقلية الجادة !.

والدافع على هذه الجرائم هو أنه ليس أسهل من الكلام . وليس أسهل من الادعاء .. فكل واحد يستطيع أن يقول ولا أحد يعترض على من يقول .. وليس أسهل من الكلام عن التقاليع ، فهى شىء جديد .. ثم إنها غير واضحة ، أو أنها واضحة بصورة مشوهة .. ثم إن الناس عادة ليس عندهم وقت وإذا كان عندهم ليس عندهم صبر على القراءة والبحث .

وليس أسهل من مشاهدة المسرحيات أو الاستماع إليها .. والحكم بالعين أو بالأذن .. سريع وليس دقيقا .. فهو حكم باللمس ولكنه ليس بالعقل .

والنتيجة عادة هى هيصة فى الكلام والتعليق على الكلام بكلام آخر أغرب .

وهذا هو « اللامعقول » الذى يمثله ويخرجه ويصفق له معظم الناس دون أن يدروا .. أما الملقن ، وليس واحدا وإنما هو اثنان : الكسل والغرور ! .

المنتهى واللامنتهى

فى عربات مسروقة

وحدى وأنا مع الآخرين
مسافرون دائما وفى عزلة دائما .
انسحب .. انسحب واجعل لك رأيا .
ليس من فوق صدر أمى أنظر إلى الدنيا .
نحن غارقون .. غارقون فى الكراهية .
ليس بحكم العادة يجب أن نعيش .
انظر وراءك فى اشمئزاز .. وانظر أمامك فى سخط .

هذه هى شعارات الأدباء الساخطين فى أمريكا وانجلترا .. إنها شعارات «جاك كيرواك» فى أمريكا و«جون أوسبورن» و«كولين ويلسون» فى انجلترا فنحن يجب ألا نعيش بحكم العادة .. أن تصبح أفكارنا كالتنفس بلا تفكير .. وأن تصبح عواطفنا كدقات القلب بلا تدبير ..

أن نمشى فى طريق تعرفه أقدامنا ولا نعرفه .
وأن ننام على فراش تعرفه أجسادنا ولا ندريه .

لم يعد يدهشنا شىء .. لم يعد يثيرنا شىء .. كل شىء «تزوجناه» كل شىء ارتبطنا به كأنه زوجة لنا .. وكأننا أنجبنا منها عشرات الأولاد وكبر الأولاد .. وكانت مفاجأة لنا وأصبح لنا بيت وأولاد من الأفكار والعادات والأحكام والمخاوف ، كل ذلك ونحن لا ندرى .

إن كل شيء يتكاثر من تلقاء نفسه .

لا من عندنا ..

إننا نعيش فى العدد الكبير.. فلا أحد يعيش وحده فى بيته أو فى العمل أو فى الشارع .. كل شيء زحام .. كل شيء كثير.. ونحن قليل فى الكثير بل نحن فى عزلة تامة عما حولنا .. نعيش مع الناس ولكن فى عزلة .. نجلس معهم ولا نسمعهم ولا نراهم ولا نشاركهم .. نحن لانعايش الناس وإنما نجاورهم فى المكان .. نجاورهم فى الفكر.

حياتنا كلها اجتماعات وتجمعات .. ولكن كما تجتمع حبات البلح أو حبات العنب تربطها قفة واحدة أو عنقود واحد وتبقى بعد ذلك حبات منفصلة كل واحدة فى عزلة تامة .. ويصبح هذا التجاور مجرد صدفة .. ويصبح تكرار التجاور مجرد عادة .. وكل يوم نتجاور فى البيت مع إخواننا وفى العمل مع زملائنا وفى الشارع مع مواطنينا وفى الحرب مع أعدائنا .. فهذا الجوار أو التجاور عادة .

حياتنا كلها عادة ..

فعندما تقترب نحلة من عينى ، أجد عينى تطبق جفنى من تلقاء نفسها ، وعندما أرى زميلا ، ينفتح فمى بالتحية من تلقاء نفسه .. وعندما أرى فتاة ، تسرع دقات قلبى من تلقاء نفسها .. وعندما أرى عدوى ، يغلى دمى .. من تلقاء نفسه ..

لا دخل لنا فينا .

إن أحد أبطال قصة جاك كيرواك يصرخ فى محطة للأوتوبيس : أفضل عربة مسروقة على هذا الأتوبيس ، عربة أنطلق بها فى خطر.. على عربة تدوسنى وتقتلنى وأنا فيها وتبصقنى عند أقرب محطة ..

وفى إحدى قصص لفين نسمع فتاة تقول : كم مضى على زواجنا إننى أرى

حذائى قد تمزق .. لابد أن زواجنا قد مضى عليه بضع سنوات .. يجب أن نحتفل بهذه الذكرى السعيدة .. يجب أن انتهز هذه الفرصة لأقدم لك نفسى .. فقد نسيتنى .. ونسيتك .. لقد كانت حياتنا معا نوعا من التفكير فقد انتهكت عزلتك .. وعكرت مياهك الإقليمية .

وفى كتاب «مكانة الإنسان» للأديب كولين ويلسون يقول إننا أبناء هذا العصر نشعر بشىء واحد : إننا تافهون .. إننا بغير الآخرين نموت .. إننا بغير الأرقام المسلسلة فى هيئة أو فى نقابة أو فى مؤسسة نموت .. تافهون إلا إذا انتسبنا .. ضائعون إلا إذا انتمينا .. يجب أن يكون فى بطاقتك الشخصية عدة خانات .. الخانة الأولى اسمك .. والثانية صناعتك والثالثة رقمك المسلسل والرابعة حالتك الاجتماعية والخامسة رقم سيارتك والسادسة رقم بوليصة التأمين والسابعة دينك والثامنة ختم البوليس والتاسعة ختم المحافظة والعاشرة ختم آخر وآخر .. الخ ..

ولكى تملأ هذه الخانات جميعا يجب أن تمشى على خطوط .. على شروط .. يجب أن تكون «عاديا» وحياتك عادية «نسبة إلى العادة» .

وأن يكون حبك عاديا وكراهيتك تقليدية .. ودهشتك عادية .. تصور أنك تدهش بحكم العادة ...

هل تعرف ما معنى هذه العبارة الأخيرة ... معناها أنك تنظر إلى شىء غير عادى وترفع حاجبيك بصورة عادية .. ومعناها أيضا أن تدهش دون دهشة .. ولا حل لهذه المأساة غير العادية التى يعيشها الناس فى العالم إلا بالتوقف بعض الوقت .. يجب أن تنسحب بعض الوقت من الحياة يجب أن تتسلل من الزحام .. أن تتخلص من كل ما هو عادى .. أن تطلق الحياة التى تزوجتها .. أن تعطى ظهرك للحائط .. أن تمسح عرقك .. أن تغمض عينيك أن تفكر دون أن ترى أحدا .. أن تتحقق من الطريق الذى تمشى عليه بقدميك أو برأسك ..

الأدباء الساخطون يرون أن الناس لا يمشون .. وإنما أقدامهم تسعى .. ولا ينامون ، وإنما ترتمى رءوسهم على المخدات .. لا يحبون ولا يكرهون ولكن قلوبهم تنقبض وتنبسط .. وأنهم لا يفكرون وإنما ينزلقون على المشاكل .. إن بطاقتك الشخصية لا تحددك .. وإنما تحدد موقعك الجغرافى والتاريخى بالنسبة للآخرين وأن هناك خانة ناقصة فى هذه البطاقة يجب أن تكتب فيها : أنك أنت الذى ضاع فى الزحام .. فى زحام الرءوس والأقدام ..

فى السنوات القليلة جدا الماضية ظهرت موجة شابة عنيفة تطلب تغيير الأسس التى يقوم عليها النقد والتقويم فى الأدب والفن ، ولم ينظر أحد باهتمام إلى مثل هذه الندوات أو الصرخات التى تتردد كثيرا فى كل مراحل التاريخ . ففى كل وقت يوجد شبان وكل الشبان يصرخون .. ولكن هؤلاء الشبان فى انجلترا أصدروا «بيانات أدبية» فجاء فى البيان الأول الذى صدر منذ سبع سنوات «يجب علينا أن نفكر جديا فى مناقشة الكثير من الحقائق الجامدة التى استقر عليها مفهوم الحياة وبالتالى مفهوم الفن عندنا .. ولا فرق عندنا بين الفن والحياة .. وأنه فى العصور التى كان الفن فيها شيئا آخر غير الحياة لم نجد إلا نماذج هزيلة من الإنتاج الفنى ولا يمكن أن يقول الفنان شيئا إلا بجنون دستويفسكى وتضحيات تولستوى ووهج شكسبير» .

ولم يتنبه كثيرون إلى هذا البيان الغامض .. ولم يعلق عليه أحد من النقاد غير أن الإذاعة البريطانية أشارت إليه بسرعة وتوقعت أن يكون لأصحابه مستقبل فى الأدب .

وظهرت فى المجلات الأدبية فى انجلترا مقالات فى النقد وفى مهمة الفنان ورسالة النقد وملامح العصر الذى يعيش فيه .. وكتب الفنان الشاب كولن ويلسون يقول : إن الوجه الذى نراه للعالم لاشك يفزعنا . إننا نحتاج أن نستند إلى حائط صخرى ونحن نراه ولكن الإنسان لا يستطيع أن يرى الدنيا قبيحة

دون أن يتمنى أن يفقد ذاكرته .. فقد تعلمنا أن الدينا فيها خير وفيها جمال وفيها موسيقى وفيها لوحات دافنشي وفيها سخرية برنارد شو وفيها أمل فى أن نضيف إليها شيئا وأنها تنتظر منا الكثير.

وفى مقال لكنسلى يقول : من هذا الجانب من حياتنا نرى العالم قد شاخ والحقيقة أن العين التى نرى بها الدنيا هى عين أمهاتنا وآبائنا ، إننا نعيش فى عصر ذرى بقلوب رهبان الكنائس فى العصور الوسطى .. إننى أرى آمالنا تدخل النار حية .. كما دخلها من قبل الراهب «سافونا رولا » فى إيطاليا .. لقد احترقت جثته كما تحترق آمالنا دون أن تنزل منها قطرة من دم أو من عرق .. إننا تعساء بالمأساة التى نراها وقد تم تنفيذها دون أن نكون قادرين حتى على الصراخ .

وعندما وقف المؤلف المسرحى جون أوسبورن بناء على طلب الجماهير ليلقى كلمة قبل ارتفاع الستار عن مسرحيته التى اسمها «انظر وراءك فى سخط» قال : ليس عندى شىء جديد أقوله .. وكل ما قلته فى هذه المسرحية هو أننى لا أستطيع أن اتلفت حولى دون أن أمضغ الكثير من الحجارة ، وأنها عفنة .. مريرة .. إن الزمن الذى كان كل شىء فيه يحاكى الدودة فى لونها ونعومتها قد ذهب . إن عصرنا مجنون ونحن نحاول بعقولنا أن نعلم زماننا كيف يكون حكيما كيف يكون متزنا ، إننا نحاول أن نحذف الأصفار من أرقام ضحايا الغول الذى اخترعناه .. الذى ربيناه .. وعبدناه : إنه الكراهية .

ونزل جون أوسبورن من المسرح دون أن يصفق له أحد ودون أن يبعد السيجارة عن فمه .. لقد استاء الجمهور لكلامه واستاء لمنظره .. وعندما شاهدوا مسرحيته ازداد سخطهم عليه وعلى كل الأدباء الشبان الذين يضاعفون رصيد الناس من القرف والملل والضيق بهذه الحياة .

وظهر فجأة وبلا مقدمات كتاب عنوانه «الغريب» .

وقد ترجمه إلى العربية صديق أنيس زكى حسن من أدباء العراق بعنوان : اللامنتمى .

وعندما قابلته فى بغداد بعد الثورة مباشرة عرفت منه أنه تعب كثيرا حتى وصل إلى هذه الكلمة وهى ولا شك كلمة موفقة .. وهى تدل إلى حد بعيد على المعنى الذى يريده كولن ويلسون من أن الإنسان اللامنتمى هو الذى لا يرتبط بأحد ولا يلتزم بشىء وهو الذى يحس أنه فى وحدة وأن وحدته هى السجن الذى اختاره لنفسه . ولكن عيب هذه الكلمة أنها تدل فقط على وصف العلاقة التى تربطه بالغير مجرد العلاقة ولكن المعنى الذى يريده كولن ويلسون هو أن اللامنتمى أو الغريب هو الذى يشعر بأنه غريب عن العالم وبأن العالم غريب عنه وأن هذه الغربة قهرية وأنه لا حيلة له فيها وأنه قد ارتضاها لنفسه وان كل الممتازين غرباء وأن العبارة التى تقول بأن كل نبى فى وطنه غريب عبارة صحيحة وأن المأساة التى يعيشها اللامنتمى أو الغريب هى شعوره الدائم بأنه فى خلاف وأن محاولته للوفاق أو التوافق مع نفسه ومع العالم الذى حوله محاولة فاشلة وأن فشلها يعود عليه ..

وينقل كولن ويلسون عن المؤرخ الإنجليزى توينبى : إن التاريخ إنما يحركه عدد قليل من الممتازين وأن هؤلاء الممتازين كلهم لا منتمون .. ولذلك لا نجد ممتازا واحدا لا ينعزل ولا يبتعد عن الناس وعن الارتباط بهيئاتهم وتشكيلاتهم التى تستنفد قواه وتشوه صورة الحقيقة فى عينيه .. ولذلك فالتاريخ من صنع عدد من الرجال كل واحد منهم لا منتمى .

وهذا الكتاب محاولة من شاب جرىء قرأ الكثير وتعمق فيه وأدرك بوضوح معالم الفكر الإنسانى والفن .. وعلق على هذه المعالم كلها وخرج منها بنتيجة أذهلت النقاد .. وبظهور هذا الكتاب لكولن ويلسون التفت النقاد والأدباء إلى

ميلاد ظاهرة جديدة هى «الجيل الساخط» أو «الأدب الساخط» أو «الشبان الساخطون» .

وكتاب كولن ويلسون هذا كان بيانا رسميا واضح المعالم لمفهوم «السخط» وعرضا لنماذج الساخطين فى الأدب والموسيقى والفلسفة .. وشرحا لمعنى الغريب والغربة والاعتراف ولماذا يشعر الناس أو بعض الناس بأنهم غرباء ولماذا لا يستطيعون أن يصبحوا أقرباء .. أى يصبح لهم نسب وأقارب وأهل . أن يكونوا منتمين إلى أحد أو إلى هيئة أو إلى مذهب .

ولماذا بقت العبارة التى قالها أرشميدس : «أعطنى مكانا خارج الأرض وأنا أحرك الأرض» لماذا بقيت هذه العبارة صحيحة ... إنه يريد مكانا لا ينتمى إلى الأرض لكى يحرك الأرض ... والذين يحركون التاريخ أناس عاشوا خارج هيئة أو مجتمع ثم حركوه .

لماذا يميل كل هؤلاء اللامنتمين فى التاريخ إلى أن يعتزلوا الناس لكى يحركوا الناس إلى أن يعتزلوا الحياة ليعبروا عنها أحسن من الغارقين فيها .. ؟؟

هذه النقطة خارج الأرض وخارج المجتمع وخارج المذهب هى نقطة اللاانتماء أو هى نقطة ارتكاز الرجل الغريب .. الرجل المغترب ..

إن فلسفة الساخطين هى فلسفة الاغتراب الروحى أو فلسفة المغتربين فى أوطانهم .. الغرباء فى مجتمعهم القلقين فى عقائدهم ومذاهبهم .

وأحسن نموذجين لأدب الساخطين فى انجلترا هما ولاشك كولن ويلسون وجون أوسبورن .

فالأول قد نشر كتابه «الغريب» ثم نشر بعد ذلك كتابا آخر ناقش فيه معنى التاريخ والحضارة ومكانة الفرد ثم اختار نماذج من أبطال التاريخ والحضارة ومكانة الفرد ثم اختار نماذج من أبطال التاريخ والفن والأدب واختار اثنين من

أكبر مؤرخي الحضارة هما : المؤرخ الألمانى أوفالد اشبنجلر وناقش المعنى العميق فى كتابه الضخم « انحلال الغرب » ثم مؤرخا معاصرا ضخما هو المؤرخ الإنجليزى : ارنولد توينبى فى كتابه الكبير « دراسة فى التاريخ » وخرج من هذه المناقشة إلى أن توينبى يعتبر مفكرا ساخطا أو مفكرا وجوديا لأنه لم يجعل قوى التاريخ هى التى تحرك الأفراد ولم يجعل المد والجذر الاقتصادى والسياسى هو الذى يهز سفن التاريخ .. ولكن ربابنة هذه السفن هم الذين يوجهون السفينة والبحر معا .. وهذا الكتاب اسمه «سقوط الحضارة» وترجمه إلى العربية أنيس زكى حسن أيضا .. ثم نشر كولن ويلسون قصته الأولى الطويلة وقد ترجمها فى لبنان فاروق يوسف بعنوان : «طقوس فى الظلام» وهى قصة يستعرض فيها مفهوم الدين والجنس والجرائم التى ترتكب باسم الدين والانحلال الذى يخضع له باسم الثقافة .. ثم ماذا تبقى للناس من حضاراتهم الحديثة .. وكتاب آخر صدر له بعنوان « مكانة الإنسان » قد ناقش فى هذا الكتاب مفهوم البطل فى المجتمع الإدارى التجارى .

وكولن ويلسون يرى أن كل هذه الكتب ليست إلا ضغطا على أصابع البيانو فقط ولكن اللحن الذى يريد أن يعزفه لم يكتمل فى رأسه بعد .

ولكن من المؤكد أن الذين استمعوا طويلا إليه وهو يضغط على أصابع البيانو قد استمعوا إلى شىء رائع وربما كان اللحن أروع ولكن الذى جعلنا نشعر به هو أنه ثائر عميق وأنه استطاع أن يمنح تراث الفكر والأدب بسهولة مذهلة ولم يكن أحد يتصور أن هذا الشاب الهزيل الذى كان يعمل فى إحدى محطات السكك الحديدية مع عمال التراحيل فى انجلترا وكان يركب دراجته كل يوم ويضع طعامه فى جيبه وقبل أن يمضغ لقمة واحدة يكون قد قرأ عشرات الصفحات من كتب الفلسفة والطبيعة والفلك والهندسة وما بعد الطبيعة والموسيقى ، لم يكن أحد يتصور أن هذا الشاب المريض كان قد انعزل استعدادا

للوثوب على هذه الحضارة المنهارة فى أوربا .

والنموذج الثانى هو بلا شك جون أوسبورن .. فقد جاءت مسرحية «المهرج» صورة غير مألوفة لما يكون عليه البطل فى المسرحية أو على الشاشة فأنت حائر أمام هذا الرجل هل تبكى له أو تبكى عليه ولكن المؤلف أراد أن يجعلنا نختار أو يجعل القيم نفسها تختار .. لماذا ؟؟ لأن كل شىء متناقض فى دنيانا .. لا توجد كلمة واحدة لها معنى يمكن الاتفاق عليه بين الناس فى دول مختلفة أو فى دولة واحدة أو فى هيئات مختلفة تنتسب لدين وأمة أو مذهب واحد .

وعندما نشر مسرحية «أنظر وراءك فى سخط» زاد القراء والنقد حيرة وتساءل الناس أمام هؤلاء الأبطال الشواذ أين هو الفارق بين الفن والأخلاق ؟ وراء من يقف المؤلف .. وراء الزوجة العاشقة الخائنة وراء الزوج القوى العضلات المهزوز القيم ؟ هل عالمنا له عضلات من فولاذ وأحلام نسجها العنكبوت ؟؟ هل حضارتنا وضعت دودة حرير فى صندوق من ذهب بارد ثم تركتها تبنى كفنها ؟ فما قيمة القبور من ذهب أو من حرير ؟

وعندما صدرت له مسرحية «لوثر» الراهب ثار على الكنيسة وثار على رهبانية رجال الدير وتزوج راهبة هاربة من الدير .. ثم هاجم البابا الذى يبنى كنيسة القديس بطرس من الرسوم التى يفرضها على البغايا فى روما ومن صكوك الغفران التى يبيعها للخاطئين ، وعندما أعلن احتجاجاته الخمسة والتسعين على باب الكنيسة فى عيد جميع القديسين والذى أحرق المرسوم البابوى لفصله من عمله فى الكنيسة عندما اختار جون أوسبورن «مارتن لوثر» موضوعا لمسرحيته الجديدة كان يعنى بذلك أنه هو الآخر «مارتن لوثر» فى الأدب .. إنه هو أيضا يحتج على الأوضاع القديمة فى الأدب إنه يحتج على الانهيار فى داخل المذاهب السياسية والاقتصادية وإنه ثار على رهبان السياسة الذين يدعون التقوى والورع

وهم يهتكون القيم وأنهم يذبحون حمام السلام ومحبى السلام .. باسم السلام .. وأنهم من دماء الشعب وعرقها يصنعون أسلحة الدمار .. وأنهم يعزفون موسيقى السلام من صرخات الضحايا والجياع والأبرياء .. وأن هذه المسرحية ليست إلا احتجاجا .. مثل احتجاج مارتن لوثر على إنهيار الكنيسة فى روما !

وإذا كان مارتن لوثر هو مؤسس الحركة الاحتجاجية أو البروتستانتية فى الدين فإن جون أوسبورن هو أحد مؤسسى البروتستانتية فى الأدب .

أما فى أمريكا فقد اتخذ «الجيل الصاخب» اتجاها آخر.. فهم هنا قد ضاقوا بالعالم الميكانيكى الآلى الذى يعيش فيه الشبان ضائعين فلا وقت للإحساس ولا مكان للذوق .. كل شىء يجب أن يتم بسرعة وبالضبط وفى داخل قواعد معروفة مقدما .

ويجب على كل مواطن أن يقف فى الطابور .. فى الصف .. أن يكون له رقم .. أن يدخل فى هيئة .. أن ينتسب إلى أحد . أن ينتمى إلى شركة ..

فالذى يدرس الفن أو الأدب يجب أن يدرس الحساب والآلة الكاتبة والاختزال على سبيل الاحتياط .. الاحتياط لأى شىء .. لأنه من الممكن ألا يجد عملا بأدبه وفنه .. ولكن من المؤكد أنه سيجد عملا بالحساب والأرقام والآلة الكاتبة .

المجتمع الأمريكى مجتمع تجارى.. المثل الأعلى فيه هو الرجل الناجح .. الرجل الذى ينجح بالمنافسة.. والمنافسة تخلق الغيرة والحقد والحرب ولكن من أجل النجاح كل شىء يهون فالنجاح من أى طريق والعبرة بالنتيجة.. فالبراعة والشطارة تساوى أى شىء .. ولكن التأمل والتمهل .. والوقوف ولو قليلا أمام أى شىء لمجرد متعة الوقوف .. لا معنى له فى أمريكا فكل شىء فى أمريكا كبير

وكثير وعريض وضخم .. والفرد ضائع .. ضائع .. ضائع ولا أحد يسأله ولا أحد ينتظره .

والقصة التى ترويها سيدة أجنبية من أنها سقطت فى أحد شوارع نيويورك فلم تمتد لها يد إنسان .. قصة حقيقية .. فمثل هذه السيدة ملايين من الناس يسقطون فى الشوارع وفى المدن وفى الحقول وبين المذاهب السياسية والدينية فلا تمتد لهم يد أحد .

أمريكا كلها تعيش فى أقفاص دقيقة ليست من حديد ولكن من زجاج ولكنه زجاج شفاف ولا ينفذ فيه الرصاص .. هذا القفص الشفاف المتين هو : الإدارة أو هو النظام الإدارى .

من أجل النظام الإدارى للشركات والهيئات يضحى الناس بكل شىء .. بكل قيمة .

الناس كالقرود التى صورها المؤلف الأمريكى «يوجين أونيل» فى مسرحية «القرد كثيف الشعر» فهو فى هذه المسرحية قد صور لنا عمال الباخرة بسواعدهم الغليظة كالحديد .. ذات الشعر الكثيف مغطاة بالشحم .. إنهم بشر حولتهم الآلات إلى قرود يعيشون فى قفص من حديد .. هو السفينة .. ومكانهم من هذه السفينة أمام الموقد .. والموقد يقع تحت سطح البحر أما صاحبة السفينة فإنها فتاة بيضاء كل شىء فيها أبيض .. يداها .. أظافرها .. حتى دمها أبيض .

من أجل هذا البياض «المريض» يتحول الناس إلى قردة .. من أجل هذا البياض المزيل الذى لا يعرفونه ولا يشبهونه يعيش هؤلاء الناس تماما كالحيوانات .. وهذا البياض .. هو علامات المرور على الأرض .. هو الدرن الأبيض .. هو الساعات الموجودة فى كل يد وعلى كل حائط .. هو النظام الإدارى الذى تفرضه الشركات المتنافسة والمصانع والمضاربات التجارية فى المجتمع الأمريكى .

ولذلك ثار هؤلاء الشبان فى أمريكا .. وكانت ثورتهم .. كثورة الفلاحين على الإقطاع كثورة قطاع الطرق على القطارات المحملة بالذهب .

إن ثورة الأدباء فى أمريكا من نوع مختلف عن الأدباء فى انجلترا فهم فى أمريكا قد اتخذوا شعارًا لهم : الرجل ذو العضلات .. أو الرجل الحديدى ثم راحوا يمزقونه .. إنهم صنعوا الشيطان وراحوا يرجمونه بالرصاص .

هذا الجيل الصاخب فى أمريكا قد أدرك أن العصر الذى يعيش فيه هو عصر العضلات عصر البطل الذى صوره الأمريكى تنيسى ويليامز فى مسرحية «عربة اسمها اللذة» فقد صور لنا رجلا تافها كل همه فى الحياة أن يأكل ويشرب وأن يغار على زوجته .. يشرب البيرة ويلعب القمار ثم يثور على زوجته ويضربها وتتعلق به لأنها تحبه .. هو يحب تعذيبها وهى تحب تعذيبه .. إنه إنسان تافه كله عضلات .. هذا الإنسان هو : ستانلى كوالسكى .

وزعيم «الجيل الصاخب» فى أمريكا هو : جاك كيرواك وأشهر قصصه هى قصة (فى الطريق) .. فأنت فى هذه القصة أمام حركات عنيفة مجنونة وأمام اندفاعات مخبولة بالسيارة ومن غير سيارة .. إنها صورة من المجتمع الصناعى المجنون وصورة من الثورة عليه .. صورة عارية مكشوفة وأحيانا شائنة ولكنها صورة بريشة فنان ولاشك .

لقد رأيت «الشبان الصاخبين» فى أمريكا وقد اتخذوا لهم نوادى غريبة .. مظلمة .. فى هوليود .. بلاد الضوء الساطع .. وجلسوا على الأرض وفى أحواض المياه وراحوا يهذون ويهلوسون .. يمضون حياتهم فى سرحان طويل إنهم يتوقفون وصاروخ المجتمع الأمريكى ينطلق .

وهؤلاء الشبان يريدون أن يتوقفوا وأن يتوقف المجتمع معهم .. أن يتساءل الناس .. ولماذا نجرى؟ ولماذا ننطلق ؟ وما معنى السباق ؟ وإذا كان من آمال

الناس ألا يفكروا فى أنفسهم فما هى قيمة الحياة ؟ ومامعنى هذا الأمل ؟

إن الشبان الصاخبين يصرخون بأقلام تطلق النار.. لأن أحدا لا يدرى بهم لأن أحدا لا يعنيه أمرهم لأنهم يضربون القيم فى الأرض ويدوسون شعارات المجتمع الأمريكى ويخلعون أحذيتهم ويعلقونها فى أعناق كهان الأدب والنشر فى أمريكا .

إن هذا الصخب الذى نراه هو فرار من الحياة الآلية .. إنه بحث عن طريق إثارة أنفسهم وغيرهم ..

والأدباء الساخطون فى انجلترا والأدباء الصاخبون فى أمريكا هما ولاشك فرعان جانبيان من الفلسفة الوجودية .

والذى أثارته الوجودية هو تنبيه الناس إلى طبيعة حياتهم ، طبيعة دورهم فى هذه الحياة.. إلى أنهم حقائق وليسوا «لاشىء» ضمن حقيقة كبرى.. كما أن الوجودية نبهت فى الناس معنى الموت والقلق والفزع والملل والقرف .. طبعا الملل حقيقة تلف حياة كل إنسان كما كان النور هالة حول رءوس القديسين .. والهالة الحديثة لكل الناس بعد الحرب العالمية هى : الملل .. فالإنسان يشم رائحة كريهة رائحة نفسه وغيره ..

والإنسان يجب ألا يبهره كل ما أقامته الحضارة الغربية من عمارات وجسور وقواعد للصواريخ وعشرات الألوف من الكتب عن كل المشاكل .

هذه الكتب يجب ألا تبهره .. ويجب أن يتفادى الإنسان هذا «البهر» الضوئى لأنه يجعل العين غير قادرة على الرؤية والوجودية تريد ألا يبهرك شىء .. تريد أن تناقش كل شىء .. أن تناقش حقيقتك قبل أن تأكلك المذاهب الأخرى وتضيع حقيقتك .. فحقيقة الإنسان كل إنسان عند الوجوديين هو أنه : صاحب الحقيقة .

فالوجودية تطلب منك أن تتوقف لترى وأن ترى لتفكر وأن تفكر لتتصرف وتكون مسئولا عن تصرفك .. فوجودك هو عبء على كتفك وهو عبء ثقيل يجب أن تحمله وحدك .

كل شيء حولك لا معنى له .. لا شيء له معنى .. ولكن الإنسان هو الذى يضع المعنى لكل شيء حوله .. فالكرسى كان من الممكن أن يكون له أى اسم آخر ولكن الإنسان هو الذى جعل له الإسم والطول والعرض والارتفاع والفائدة .. فالوجود كله لا طعم له ولا لون ولا رائحة .. ولكن الإنسان هو الذى أعطاه هذه الخواص .

ومن هنا كانت مهمة الإنسان عسيرة .. إنه الذى يعطى المعنى والذى يصدر القانون وهو الذى يضع نهاية للعالم ويتخيل النهاية بالشكل الذى يرضى غروره ولذلك لم يكن الجو الوجودى ورديا .. إنه «جو» كله كلام ومعان وفزع ورعب .. فالناس فى حالة تفتيش لجيوبهم وعقولهم وقلوبهم وفهم وقياس لقدراتهم قبل أن يتقدموا لغيرهم .. للعالم الخارجى ..

الفيلسوف الوجودى كيركجورد كان يقول : مهمتى أن أقض مضاجع التواكل فى كل عقل .

الفيلسوف ياسبرز يقول : هناك أناس اختاروا أن يمر عليهم الوجود دون أن يصيبهم بشىء .. فناموا .. أناس اختاروا أن يمروا بالوجود دون يصيبهم شىء فاختاروا تعطيل العقل .. أناس اختاروا أن يكون الوجود صادرا عنهم كما يصدر الماء عن الينبوع .. لقد عاشوا فى قلق مما يفعلون ومما يفعله غيرهم هؤلاء هم الذين أعنيهم .. أعنيهم بإزعاجى وصراخى .

الفيلسوف سارتر يقول : لقد كان الفتى الصغير يعمل فى أحد المقاهى .. ولم تكن هناك حوادث هامة تربطه بغيره أو تميزه عن أحد .. إلى أن كان ذلك اليوم عندما شعر بأن حياته كلها فى خطر .. لقد وضح أنه من الممكن أن يموت

فورا .. وأن يتلاشى كل شيء .. فى لحظة واحدة أحس أن الدنيا كلها تلاشت .. أحس بأنه فى دوامة .. يكفى أن يهددك بشيء واحد لتشعر بأن حياتك كلها فى خطر .. فى خطر أكيد .

هذه المدارس الأدبية الثلاث .. تشير إلى أنه يجب أن يتوقف الناس بعض الوقت وأن يغمضوا عيونهم عن العالم الذى استغرقهم وأغرقهم .. وأن يفتحوا آذانهم وأن يستمعوا فى داخلهم إلى صوت حقيق .. صوت ضاع .. تلاشى فى الزحام .. هذا الصوت هو صوت حقيقتك كإنسان .. يجب أن تعرف حقيقتك لتعرف كل الحقائق الأخرى ..

اعرف نفسك بنفسك ـ تلك العبارة القديمة هى أحدث ما اهتدى إليه الإنسان وأصعب ما يطالب به الإنسان نفسه وغيره أيضا .

مشكلة الغير المنتمى

الساخط هو الذى لاتعجبه كل الأوضاع ولكن ليس عنده برنامج .

والمتمرد هو الذى لايعجبه وضع معين وعنده برنامج .

والثائر هو الذى لاتعجبه كل الأوضاع وعنده برنامج .

والثورة بمجرد ظهورها تخلق أعداءها من المتمردين ومن الساخطين .

أو بعبارة أخرى .. عندما تقوم ثورة ينقسم الناس إلى ثلاثة أنواع : الناس الذين ينتمون إليها والناس «الغير المنتمين» إليها والناس «اللامنتمين» إليها .

فالرجل المنتمى هو كل فرد من أفراد الثورة أو التنظيم الثورى .

وغير المنتمى هو السياسى الحزبى أو الرأسمالى أو الإقطاعى أو أى فرد من أفراد التنظيمات السياسية السابقة على الثورة .. فغير المنتمى كان فى الأصل منتميا إلى تنظيم سياسى أو اقتصادى سابق .

واللامنتمى هو الخبير .. هو الذى يبيع خبرة ليس لها لون سياسى معين كالطبيب والمهندس والمحامى والصحفى والموظف .

والذين يعانون الثورات ليسوا رجالها فى الدرجة الأولى .. ليسوا المنتمين ..

وليسوا طبعا الخبراء الذين يعيشون فى كل عصر .. وفى أى مكان لأن خبرتهم ليست مرتبطة بأى لون سياسى .. فالطبيب من الممكن أن يعمل فى أى

بلد .. فى أى جسم إنسانى .. أبيض .. أسود .. أصفر .. مسلم .. يهودى .. شيوعى .. تذل شهم وهو وحده القادر على الهجرة من أى بلد إلى بلد بل لايعتبر نفسه مهاجرا كأنه نوع من النبات يمكن زراعته فى جميع درجات الحرارة .

وكذلك المهندس الزراعى والصناعى يعمل فى روسيا ويعمل فى أمريكا بنفس القدرة الإيجابية .. وعالم الصواريخ وعالم الذرة والجاسوس .. كل هؤلاء فى استطاعتهم أن يعملوا فى المعسكر الرأسمالى والمعسكر الشيوعى لأن كل واحد منهم « لامنتمى » يهز كتفيه للتيارات السياسية والاقتصادية .. لأن كل واحد منهم لايعيش بطبيعته ولا بلون بشرته ولابدينه ولكنه حر .. يملك من الحرية الشىء الكثير الذى يضايقه فى كثير من الأحيان ..

واللامنتمى هو البطل المفضل فى كل التيارات الأدبية العالمية فى أوربا وأمريكا . إنه بطل مسرحيات وقصص الفلسفة الوجودية كلها .. إنه ذلك الرجل الذى يضيق بحريته .. بقدرته على أن يفعل أى شىء وعلى أن يمتنع عن عمل أى شىء .. إنه حر .. إنه ينام بلا طعام ويأكل بلا نوم .. ويمشى ويقعد .. ويفعل كل شىء فلا أحد يقاومه ولاشىء يوقفه .. إنه بطل « الجحيم » للكاتب الفرنسى باربيس .

إنه بطل « الغريب » للكاتب الفرنسى كامى .

إنه بطل « الغثيان » للفيلسوف الكبير سارتر .

وهو الذى يرتاد كل قصص ومسرحيات « الأدباء الساخطين » فى انجلترا وفى أمريكا .

وهو بطل « الملل » للأديب البرتو مورافيا .. وهو بطل قصص الأديب الإنجليزى كولن ويلسون .. بل إنه كولن ويلسون نفسه .

هو الشاويش كربس فى قصص هيمنجواى .

وهو أحب الناس عند الأديب الأمريكى تنسى وليامز.

فهذا البطل « اللامنتمى » مشكلته تنبع من ذاته .. من غناه الفاحش .. من حريته السفيهة .. من الحياة فى قلب البنوك .. من أنه لاتوجد سدود ولا قيود فى حياته .. إلا سدود العالم الواسع الموحش .. فهو فقير من المشاكل وهو غنى بالملل.

ولكن الذى يعانى ويلات الثورات وعنف التغيير والتبديل هو الرجل « غير المنتمى » الرجل الذى كان حزبيا والذى كان له نفوذ وكانت له طبقة ثم أصبح منبوذا يتيما ملوثا طريدا ـ كبنات الليل .. أصبح أقلية غريبة أجنبية .. متعطلا لأنه كان ينتمى إلى نظام وانهار النظام فلم يعد ينتمى إليه .. ولا إلى النظام الجديد.

وهذا « غير المنتمى » هو بطل قصة « السمان والخريف » لكاتبها الكبير نجيب محفوظ .. وهو يستهل قصته بلحظة أعرفها جيدا قرأتها بكل اللغات التى أعرفها وعشتها وذقتها ومسحت فمى ودموعى بعدها إنها لحظة واحد ولدوه يوم حريق القاهرة لحظة واحد ولدوه يوم القيامة .. شاب اسمه عيسى عاد ليجد كل شىء يحترق .. أو ليجد لاشىء .. لا أحد فى القاهرة فى انتظاره من رجال مكتبه لا أحد يراه .. لا أحد يسمعه لا أحد يهتم به .. فى هذه اللحظة فقط أعطى حريته لأن يفعل أى شىء .. لقد طارت الأحزاب السياسية وطار الملك .. ونقل عيسى إلى المحفوظات .. وعيسى هذا يشعر أنه كالنبى عيسى يجب أن يكفر عن خطايا أمة خاطئة .. فهو يرى على السقف حشرات مصلوبة .. ويحس أنه كالمسيح يحمل صليبه معه ويحاول أن يشنق نفسه على هذا الصليب بالخمر والقمار والجنس .. ولكن المؤلف ينقذه فى آخر سطر من القصة.

وعيسى نموذج للشخص غير المنتمى.

وابن عمه حسنى نموذج للشخص المنتمى .. وصديقه الصحفى المحامى إبراهيم صورة للشخص اللامنتمى .

وعيسى يعود إلى القاهرة ليجد نفسه قد فقد كل شىء له : النفوذ والاحترام .. وفى بيت أحد الباشوات وفى بيته وفى هذا الجو المشحون بشىء غريب يدرك عيسى أنه لا أمل .. الثورة أحرقت كل شىء وابتلعته إلى غير رجعة .

قرف .. يأس .. ملل .. لا أمل .. لابد أن يهرب من القاهرة إلى أى مكان فى العالم .. ولكن ليس هناك إلا الإسكندرية فلا يوجد مصريون يعيشون فى أمريكا الجنوبية إنه لايستطيع أن يهاجر .. فالمصريون زواحف وليسوا طيورا .. لا يبرحون أرضهم ولا بلادهم .. وفى هذا الجو المكهرب يقرر أن يتزوج .. ويتقدم لابنة أحد البكوات من رجال السراى ويخطبها ويحبها أو يقول إنه كان يحبها .. وعندما تعلم الفتاة أنه أحيل إلى المعاش تقفل الباب الباقى فى وجهه .. تقفل التليفون ويتقدم ابن عمه حسنى إلى هذه الفتاة وتوافق فورا .. هذه حال الدنيا .. المنتمى يكسب .. واللامنتمى يكسب وغير المنتمى يخسر.

ويهرب إلى الإسكندرية فى الخريف بعد أن تركها كل أبناء القاهرة .. ويتساقط هناك من التعب تماما كالسمان الذى يعبر البحر فى رحلة بطولية ثم يتساقط فى أيدى الصيادين .. ويختار له شقة فى دور مرتفع كأنه لايزال يريد أن يسافر .. أن يبعد عن الناس .. وفى أحد الأحياء التى تسكنها الجاليات الأجنبية وبذلك يعيش غريبا بين الناس .. غريبا فى بلده .. وكل شىء يثيره جنسيا أية فتاة أى صوت لامرأة .. ويلتقى بفتاة اسمها ريرى .. فتاة من بنات الليل ويحس أنها مثله تماما مثل كل السياسيين.. ملوثة وطريدة.. أقلية مضطهدة.. مفروض أن تبيع شيئا لأى إنسان .. شيئا لاينبغى أن يباع .. لماذا ؟ هذا رأى الناس .. وتقيم ريرى عنده طويلا ويطردها ويهرب منها .. أو يهرب من صورته فيها .. أو

من الشبه الذى بينه وبينها وتموت أمه .. ويعود إلى القاهرة يبيع البيت لسيدة أرملة يتزوج ابنتها التى تكبره بعشر سنوات والتى تزوجت قبله ثلاث مرات .. إنها مطلقة غنية وعقيم .. هى الأخرى لاتلد كأنها حزب سياسى منحل .

والحياة معها لاتطاق .. زوجة بلا أولاد شىء فظيع .. زوجة بلا أولاد وهو بلا عمل شىء فظيع .

ووقع العدوان الثلاثى وكان عيسى منقسما على نفسه .. فهو بقلبه مع الماضى وهو بعقله مع الثورة .. والعدوان الثلاثى صالحه على نفسه .. فأصبح بعقله وبقلبه مع الثورة ولكن الصعوبة فى أنه كيف يتحول .. كيف ينتمى إلى المجتمع الجديد .

إن حسنى ابن عمه لايزال عند وعده بأن يجد له عملا فى أية شركة .. ولكنه لايزال عاجزا عن التحرر من انتمائه إلى الماضى وتنظيمات الماضى .. ولكن الماضى ذهب ولن يعود .

وفى الكأس وفى الجنس يحاول أن يتحول .. أن يتحول إلى إنسان لامنتمى .. يحاول أن يتحرر .. أن يفعل ما يريد كأنه لا يعبأ بما قد حدث له أو بما حدث للبلد .. إن الكثير من أصدقائه قد تحولوا إلى الدين إلى التصوف .. وهى وسيلة ليست لذيذة للهرب .. أما الهرب عنده فبالكأس وبالمرأة والجنس والتصوف .. شىء واحد فكلاهما هرب وانتحار .. التصوف هرب من الدنيا وقضاء على كل احساس ولكن بغير متعة .. والجنس هرب من الدنيا وإغراق للحس .. إغراق إرادى .. ولكنه يقضى على كل إرادة .

وكان د . هـ لورانس يقول : إننى راهب وثنى .. إننى أعيش فى صومعة أعبد امرأة ! .

وانسحبت قوات العدوان .. وظهرت أخبار الأقمار الصناعية .. وهى عبارة

عن مواصلات حديثة إلى العالم الآخر .. وسيلة جديدة للهرب من الأرض .. إنه يفكر كطفل فى أن يهرب وكل الانفعالات الكبيرة تردنا إلى طفولتنا .. فنخاف كالأطفال .. ونبكى مثلهم وهو لايزال ينظر إلى السماء فى أمل حقيقى .. أمل علمى .

ويعود إلى الإسكندرية ويجد الفتاة ريرى وقد أصبحت تملك محلا .. إنها هى الأخرى فى خلال سنوات قد تحسنت حالتها .. ورأى عندها طفلة صغيرة .. ورأى فى ملامح الطفلة كل ملامح أخواته هو من البنات .. إنها أذن ابنته .. أكيد ابنته .. وعرف ان ريرى تزوجت رجلا عجوزا كان سجينا بتهمة بيع مخدرات .. هذا العجوز قد تبنى هذه الطفلة .. فيحاول أن يسترجع قلب ريرى .. يحاول أن يستعيد مكانه عندها أو مكانها عنده ولكنها ترفض .. حتى ريرى ترفضه .

إنه الآن بلا دور فى بلد له دور .

وبعد سنوات من الضياع أفاق عيسى .. ولكنه لم يفق تماما .. كما حدث لروكنتان فى قصة « الغثيان » لسارتر .. فقد تنبه مرة واحدة إلى أنه يعيش حياة غريبة ، إلى أن كل شىء حوله بلا معنى ، إلى أنه فى دهشة من هذه الحياة حتى أصابع يديه لها عروق كأوراق الشجر وفى هذه العروق حياة .. يعنى أنه حى وأنه قادر على أن يستمر .. وعلى أن يعطى الحياة لنفسه ولما حوله .. وكذلك عندما جلس عيسى على أرض باردة وعند منتصف الليل أمام تمثال سعد زغلول .. اقترب منه شاب .. هذا الشاب كان معتقلا أيام كان عيسى له سلطان .. ثم خرج من السجن .. وعنده أمل ولا يتوقف عن الابتسام .

وأعلن له : أننا بعد منتصف الليل بدقيقتين .. وأننا نتجه نحو الفجر .. وأنه يجب أن يعمل .. أن يأمل .. أن يهتم .. أن ينتمى .. وأنه مايزال هناك وقت ثم يتركه ويمضى .. وينتبه عيسى .. وبسرعة يفكر .. وينهض فى نشوة .. إنه يريد

أن يلحق بالشاب .. بالقطار المتجه نحو صباح جديد ليعيش فى غمار اللامنتمى .. لعله يصبح منتميا فى يوم من الأيام .

والفنان الكبير نجيب محفوظ استطاع بذكائه وعقله أن يلمس كل ماحدث لمجتمعنا منذ قيام الثورة .. وفسر لنا ما يفعله المنتمى وغير المنتمى واللامنتمى .. وفسر لنا أيضا موجات التواكل والجرائم .. والجرائم الجنسية خصوصا .

وكان فى استطاعته أن يجعل عيسى ينهار أكثر ويتعقد ولكنه خشى أن تطول القصة .. أن يصعب على القارئ أن يتبين الفوارق الناعمة الشفافة بين جوانب عيسى الدباغ ـ وهذا اسمه الغريب الذى اختاره المؤلف عن قصد ـ من التمزق والانفصام أو ازدواج الشخصية .

وقد أفلح نجيب محفوظ فى أن يملأ الجو بالأصابع التى تشير إلى الأزمات فالبرص على السقف والسمان والخريف والكلاب والزلازل والحدأة التى تنوح وتمثال سعد زغلول وماسح الأحذية والشحاذ والسبحة بيد الأم .. وعبارات رمزية وامضة .

وربما كانت « اللص والكلاب » من الناحية الفنية اروع وأجمل .. كانت حارة مثيرة .. وهذه الحرارة قد استمدتها القصة من موضوعها الذى يجب أن يعالج بسرعة خاطفة ولكن « السمان والخريف » لاتقل عنها روعة ، إنها تصور شباب نجيب محفوظ فهو لم يبلغ الخمسين وإنما بلغ الخامسة والعشرين مرتين .. وهو فى هذه القصة لم يعزف لحنا مثيرا ولكن من المؤكد أنه ضغط على كل أصابع البيانو .. على البيضاء .. وعلى السوداء أكثر !

بالجملة .

المال والمرض

في أمريكا كل مزايا وعيوب الحياة الميكانيكية . أبناء أمريكا ثائرون على بلادهم ، وعلى الحياة هناك . وإليك المجلات والأفلام ، والسخرية من أنفسهم ومن العيشة المجنونة التي لايدرون كيف يتخلصون منها . فالواحد منهم يمشي في الطريق كأنه هارب من حريق ، أوكأنه رصاصة أطلقت نحو هدف . والسيارات تندفع في زحام شديد ، والناس تحت عجلات السيارات يموتون بمئات الألوف ، وضحايا حوادث السيارات لايقل عددهم عن ضحايا الحروب .

وفي المجتمع الصناعي يصبح المثل الأعلى للناس جميعا هو الآلة . فالإنسان يجب أن يعمل كآلة . في مواعيد محددة وبنظام .

ويصبح هو الآخر قطعة من المصنع الذي يعمل فيه ، ولا يمكن أن ينفصل عنه . لأن العامل يشترك مع عشرات الألوف في شيء واحد ، وكل مهمته أن يربط مسمارا أو يصنع غطاء .. وهو لايستطيع أن يؤدي هذا العمل وحده ، أو خارج المصنع .

والعامل كالآلة يمكن استبداله بأي إنسان فلا يوجد عامل لا يمكن الاستغناء عنه وإنما كل عامل يمكن الاستغناء عنه ووضع غيره في مكانه ، وتدور العجلات والتروس ولا يتوقف المصنع عن الإنتاج والربح .

الإنتاج والربح هما الهدفان الوحيدان في المجتمع الصناعي . ففي أمريكا نجد

أن الإنتاج بالجملة . كل شيء بالجملة . والجملة معناها مئات الألوف والملايين من الوحدات . والسيارات بالملايين والراديوهات بالملايين . والإنتاج بالجملة يجعل التكاليف أقل والربح أكثر .

والأكل بالجملة والشرب بالجملة والحياة بالجملة فى ناطحات السحاب .. والتعليم بالجملة . والشكوى فى أمريكا تملأ المجلات العلمية والأدبية من أن الثقافة العامة فى أمريكا دون المعدل ، وأن أمريكا ستصبح بعد سنوات معدودة بلا أناس ممتازين ، لأن التعليم هناك بالجملة . ولذلك يجب أن تعمل الدولة على تعليم الطلبة النابهين تعليما خاصا ، لا تعليما بالجملة ، وإنما تعليما « شغل يد » ، تعليما على مهل . يجب أن تتاح لهم فرصة مضغ مايأكلون ، وتذوق مايشربون .. وبذلك تضمن أن يكون فيها شيوخ ونواب ووزراء وعلماء ممتازون ..

وفى آخر أعداد مجلة « لايف » نجد بعض الأمريكيين يشكون من الحياة فى بلادهم ، فهى حياة بلا لذة ولا طعم .. حياة خاطفة . ولعلهم يحلمون بالأكل على الطبيعة بدلا من الأكل وقوفا ويحلمون بالمشى على الأقدام ، بدلا من السيارات المجنونة ، والرحلات فى مراكب شراعية ، بدلا من النفاثات الخاطفة . إنهم يحلمون باللقمة التى نأكلها باليد ونمضغها بأسناننا ونحس بها وهى تستقر فى المعدة .. على مهل .

وفى المجتمع الأمريكى ضغط وإرهاق .. كل الناس مرهقون ، وكلهم فى حاجة إلى الراحة ، بالإكراه : بالحبوب وبالأقراص . فهناك أنواع من الأقراص اسمها : أقراص النوم وأقراص السعادة وأقراص اللذة الطويلة .. وكلها مخدرات طبية . إن هذه الأقراص تتولى مهمة الأصابع التى يضعونها فى الأذن فلا يسمعون ، ويضعونها على العيون فلا يرون ، ومهمة الدش البارد الذى يلقى على الأعصاب الملتهبة ..

والأمراض كلها عصبية ، أمراض المعدة والقلب والكلى وأمراض العظام والدماغ وضعف النظر وضعف السمع . وكثرة الجرائم والانحلال والشذوذ . سبب كل هذه الأمراض ، هو الإرهاق العصبي فى المجتمعات الصناعية . فى أمريكا وفى ألمانيا وانجلترا ..

والطبيب الأمريكى عندما ينصح مريضا بعلاج ، فإنه يطلب إليه أن يقوم بإجازة وأن يذهب إلى الريف أو إلى المراعى ، وهذا الشرط الأول للعلاج هو أن يكون إنسانا لا آلة .. ومنذ أسبوعين أعلن طبيب أمريكى كبير أن عدد ضحايا السيارات يفوق ضحايا الحروب بعشرات المرات . فالسيارات معناها الزحام والضوضاء وإفساد الهواء وإرهاق أعصاب الراكبين والمشاة وإحراق ملايين الملايين من خلايا الأعصاب ، وهكذا يكلف الناس والدولة جبالا من الذهب ..

وفى أمريكا الآن موضة جديدة هى أن الرجال يتقاعدون فى سن مبكرة فيما بين الأربعين والخمسين . ومعنى ذلك أن الرجل لايستطيع أن يتحمل الحياة الميكانيكية أكثر من ثلاثين عاما ، وبعد ذلك يجب أن يعيش حياة ، بلا آلات ولا إرهاق أى أنه يجب أن يهرب .

والهرب من أهم وسائل الراحة فى المجتمع الميكانيكى المرهق . وذلك عن طريق الخروج على الحياة بالعنف أو حب العنف وكل ما هو مثير ، وكل ما ليس متوقعا وكل جديد لأن هذا كله خروج على الحياة اليومية الرتيبة الميكانيكية .

وانتشار الجرائم فى أمريكا مسألة ضرورية فالذين ارتكبوها مضطرون إليها والذين يتفرجون عليها ينتظرونها لأنها تحقق لهم الإثارة .. والثورة على الحياة الجامدة الجافة . فالحياة فى أمريكا الصناعية تنتج الجريمة ، وتبحث عنها وتشجعها . كل ذلك بصورة لاشعورية . والمجرم يلقى اهتمام الناس تماما كبطل كرة الماء وبطل المصارعة والمخترع الكبير .. كل هؤلاء وغيرهم شخصيات تلفت

الناس وتريحهم من الانسياق الآلى اللاشعورى إلى حياتهم اليومية ...

وإحساس الناس بحريتهم وفرديتهم ضرورى جدا ، فى مجتمع كل شىء فيه بالجملة ، وكل شىء فيه منساق إلى الربح والربح هو الذى جعل الناس تجارا قساة ، وكل شىء لديهم عمليات حسابية فيها ضرب وطرح ..

والمجتمع الأمريكي الصناعى مرحلة تاريخية ستنتهى إليها كل المجتمعات . إننا سنبلغ ماوصلت إليه أمريكا بعد عشرات السنين والعالم كله يسير إلى ما صارت إليه أمريكا . وهذا هو الذى جعل الفيلسوف الألمانى اشبنجلر ينعى الحضارة الغربية التى تتجه إلى التشبه بالحضارة الأمريكية الصناعية . حيث يتشابه كل الناس فى حياتهم وأفكارهم وآمالهم ولاتصبح هناك شخصيات فذة ولا أفكار فذة .

ونحن فى مصر لم نبلغ هذه المرحلة من استهلاك الأقراص والحبوب والمخدرات . فالحمد لله على القليل جدا من الأقراص التى لدينا .

كل واحد منا جالس فعلا فى صاروخ يدور فى الهواء بسرعة دوران الكرة الأرضية حول نفسها وحول الشمس كأنك فى غرفة مقفلة .. والنور يدخل من الأسلاك والماء فى الأنابيب وأنت لاتفكر فى الذى أدار وابور المياه ولاتسأل عن الذى يدق الباب ويأتى لك بالخبز وبالصحف اليومية .. كل هذا يحدث وأنت جالس فى غرفتك وأنت لاتبذل أى مجهود واضح فى التنقل بين الباب والنافذة والاستماع إلى الراديو أو النظر فى التليفزيون أو فى ساعتك أو تميل على طفلك تقبله .

ولنفرض أن هذه الغرفة قد أقفلت أبوابها ونوافذها وانقطعت المياه ووضعت فى زجاجات وانقطع التيار الكهربائى وامتلأت غرفتك بالبطاريات الجافة ثم تمددت أنت على مقعد ولففت الحزام حولك وطارت غرفتك فى الهواء فى اتجاه عمودى وبسرعة ٢٨ ألف ميل حول الأرض ثم اتخذت لها مدارا حول الأرض ودارت ودارت .

فى هذه الحالة تصبح مثل جاجارين وغيره من رواد الفضاء .. فأنت لم تقم بأى مجهود وإنما كل الجهود العلمية قد قام بها ألوف من الناس لاتعرفهم ولا تعرف مدى عملهم .. فتحت كل رجل يرتفع إلى السماء ألوف من العلماء والنظريات العلمية .

ولابد أنك ستشعر بكثير من الفخر وكثير من العلو والتعالى .

ولكن لا يمكن أن يكون هذا رأى العلماء ولاشعورهم فكلما ارتفعت فى

الهواء أو فى الفضاء انحنت رءوسهم على الأرض على الورق يحسبون .. يضربون ويطرحون وتزداد حيرتهم أمام عشرات المشاكل التى لاتعرفها أنت .

وقد حدث فى كل مرة يرتفع فيها أحد رواد الفضاء الروس إلى السماء أن يعلن أنه ارتفع بفضل اللجنة المركزية للحزب وأنه سيعود بفضلها وأنه نفذ تعلياته وأنه بمقتضى هذه التعليمات لم يجد الله .

قالها جاجارين وهو جندى بسيط وقالها بعده بشهور نيكولاييف وسيقولها غيرهما .. إنهم ارتفعوا وداروا حول الأرض ورأوا جبال الأرض وألوان القارات وشاهدوا الشمس الزرقاء والسماء السوداء .. ولكن شيئا أو شخصا أو فكرة واحدة لم يجدوها هناك : الله .. لم يروه .

وجاجارين جاهل لاشك .. فهو لايزيد على أنه سائق صاروخ .. لايزيد على رجل تمدد فى مقعد .. ورأسه إلى أسفل ثم رفعوه وعدلوه على مقعده .. ثم اجلسوه وقالوا له : تحرك .. اشرب .. صف شعورك .

وقبل ذلك أطلقوا لايكا وقبلها عددا من القرود والفئران ..

وجاجارين وغيره لايعرفون مدى بساطة وسذاجة هذا الكشف العلمى .. إنه شىء هزيل جدا بالقياس إلى ما سيحققه الإنسان بعد ذلك .. إن المسافة التى ارتفعها عن الأرض مسافة دقيقة صغيرة .. إنها لاتزيد على ارتفاع وجهك عن هذه الصحيفة بالقياس إلى المسافة التى بيننا وبين أى نجم فى السماء .. وأى نجم يبعد عنا ألوف السنين . فلو حدث انفجار فى أى نجم تراه فى السماء فلن تسجل المراصد هذا الحادث إلا بعد عشرات الألوف من السنين .

ولا أحد يسأل جاجارين أو غيره : كيف كان يتصور أن يجد الله فوق ؟؟

فوق ماذا : إن كلمة فوق .. وتحت وبالقرب و « عن بعد » كلها كلمات ليس لها أى معنى إلا بالنسبة لنا .. فالأرض معلقة فى الفضاء كملايين من

الأجسام الملتهبة أو الخامدة وكلها مشدودة بعضها من بعض أو إلى بعض بقوانين دقيقة وغير معروفة بالضبط .

ولكن جاجارين وغيره من أبناء العصر المادى الحديث .. العصر الذى يؤمن بالآلة .. الآلة التى صنعها الإنسان لتخدمه .. ثم راح يعبدها ويقلدها ..

ونسى الإنسان أنه هو الذى صنعها وأنه هو الذى يغيرها كل يوم وكل عام وأن الإنسان فى كل يوم يثبت قدرته وأن الآلة وسيلة وليست غاية .. إنها هى الأوتوبيس ولكنها ليست محطة الأوتوبيس .. إنها هى السفينة وليست الميناء .. هى الصاروخ وليست الله .. وإنها هى خادمته وليست السيد الذى يأمره وينهاه .

والإنسان لم تصنع يداه سوى أصنام فى العلم وفى السياسة وفى الحروب وفى الاقتصاد .

ولاشك أن العلماء الذين صنعوا الصاروخ ويصنعون صواريخ أخرى أقوى قد ضحكوا لسذاجة جاجارين ونيكولاييف ولايكا عندما ارتفعوا ولم يجدوا الله فهم يعلمون الصعوبات التى أمامهم والتى لم يحلوا منها إلا القليل .

ولابد أنهم يتذكرون ما قاله العالم الكبير نيوتن : إن العقل الإنسانى ليس إلا طفلا صغيرا يلهو فى الرمال على شاطئ محيط الحقيقة .

أو ما قاله جيمس جينز : من أن الكون من الاتساع والضخامة والنظام بحيث لو سار فيه أى كوكب أو أى نجم فى أى اتجاه وبأى سرعة ولأية مسافة فإنه لن يصطدم بكوكب آخر وإذا حدث فسيكون شيئا نادرا تماما كما يصطدم عصفوران أحدهما فى استراليا والآخر فى أفريقيا وقد انطلقا فى اتجاه واحد .

أو ما قاله اينشتاين ردا على برقية تسأله : هل تؤمن بالله فكان رده : كل ما أعرفه وهو قليل جدا جدا يؤكد وجود الله حتى برقيتك هذه ..

نحن الآن نقرأ ما كتبه الشيخ رفاعة الطهطاوى فى كتابه « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » عندما ذهب فى بعثة إلى باريس ولايسعنا إلا أن نضحك فقد ذهب الطالب الأزهرى رفاعة الطهطاوى إلى باريس ورأى العالم الجديد .. رأى الناس ورأى العالم الجديد .. رأى الناس يأكلون بالشوكة والسكين فاندهش ورآهم يأكلون على تربيزات ـ وكان يسميها الطبلية العالية وزادت دهشته ـ ورأى المرايا التى يقف أمامها الإنسان .. فلا يجد نفسه منبعجا ولامنكسرا كما يحدث فى المرايا التى تركها فى مصر .. ولم يجد الرجل يغار على زوجته بل إنه يتركها لأى إنسان يرقص معها ..

ولكن الذى رآه الشيخ رفاعة وجعله يؤمن بالعقل الإنسانى وبعظمة صانع العقل الإنسانى هو شيء صغير وهزيل جدا وهذا مانقوله اليوم وما سنقوله عن الصواريخ بعد عشرين أو مائة عام .. لقد رأى الشيخ رفاعة شيئا غريبا اندهش له واندهش أكثر كيف اننا لم نفكر فى هذا فى مصر .. وكيف أن العقل الفرنسى قد اهتدى بسهولة إلى هذا الذى لم نهتد إليه .. سبحان الله .. لقد توضأ الشيخ رفاعة وصلى ... وطلب من الله أن « يقيض للكنانة مثل هذا الاختراع اللطيف » .. وهذه كلماته .

أما الاختراع اللطيف فهو : عربة الرش ..

فقد رأى الشيخ رفاعة عربة يجرها حصان وترش أحد ميادين باريس .. وراح يقارن بين الوقت الذى نقطعه نحن فى رش أحد ميادين القاهرة بالجرادل والقرب وبين الوقت الذى يقطعه الفرنسيون .

إن صواريخ روسيا وأمريكا ليست إلا عربات رش إذا قارناها بالتطور الذى سوف يحققه العلم بعد ذلك ..

ولاشك أن ما قاله جاجارين وغيره كلام صغير ساذج ... فى سذاجة كلام الشيخ المؤمن رفاعة الطهطاوى .

وجاجارين وغيره يشبهون طفلا صغيرا ذهب مع أمه إلى برج القاهرة ثم طلب إليها أن تضعه على كتفها ليكون فى مكان أعلى ثم وضعته على كتفها .. ولما أنزلته سألته إن كان قد رأى المقطم فأكد لها أنه رأى المقطم ولكنه لم ير الأطفال الذين يعيشون على سطح المريخ .. وأنه يؤكد لها أنه لاتوجد حياة على المريخ ..

صغير.. وجاهل طبعا .

أو أن جاجارين وغيره يشبهون ذبابة راحت تدور حول الكرملين .. ومرة .. مرة .. ثم عادت إلى مؤتمر الذباب الدولى وأكدت لأعضاء الوفود التى اجتمعت فى أحد الاصطبلات أنها دارت حول الكرملين عدة مرات .. وأنها رأت الشوارع المرصوفة والسيارات والأرض الخضراء والصحارى البيضاء وأنها لم تر هذا الذى يسمونه خروشوف !

ونيكولاييف وجاجارين وغيرهما هم أبناء العصر الصناعى المادى .. هم أبناء الصواريخ ، وإيمانهم بالعلم وبما صنعه العلم هو إيمان مطلق .. فليس فوق الإنسان شىء ولا أقوى منه سواء كان ذلك من الإنسان السوفييتى أو الإنسان الأمريكى .

مع أن الفارق بين الاثنين فى عالم الصواريخ بسيط جدا ... فصواريخ روسيا تشبه ساعات الحائط وصواريخ أمريكا تشبه ساعات اليد والصواريخ الروسية تحتاج إلى عملاق لكى يعلقها على حائط الفضاء أما الصاروخ الأمريكى فهو يحتاج إلى طفل ليعلقه على ذراعه .

وإيمان الإنسان بالعلم قديم جدا وعدم إيمانه بالإنسان قديم أيضا ..

فمن أيام بناء الأهرام والإنسان لاقيمة له ..

ففى بناء الأهرام مات ألوف العمال .. ولكن المهم هو أن عملا هندسيا ناجحا قد تم .. فالأهرام مجموعة من النظريات المعمارية والفلكية الناجحة

ولايهم أن يموت من أجل ذلك ألوف الناس .

وقناة السويس عمل هندسي ناجح .. وقد مات فى سبيل ذلك ألوف الناس وكان لابد أن يموتوا ... ونحن لم نثر على النظرية الهندسية التى مات من أجلها الألوف ولكن ثرنا على الاستغلال الذى ينكر على الملايين حقهم فى أن يملكوا أرضهم .. وفى دفاعنا عن حق مات من أجله أناس كثيرون .. وكان لابد أن يموتوا .

وبقيت القناة وهى انتصار علمى ..

وفى الحروب تنطلق قنابل .. تطير وتطيش .. وتصيب وتخيب .. ويموت الألوف ولكن الذى يهمنا هو انتصار العلم والأجهزة العلمية .

أما الإنسان القتيل فلا يهمنا ..

والقنابل الذرية والهيدروجينية كل يوم تضاعف قوتها .. قوة فتكها بالملايين وقد أطلقها الإنسان فى اليابان وكانت قنابل ساذجة .. إنها تشبه عربة الرش إذا قارناها بسفن الفضاء .. ولكن الإنسان لايهتم بما يحدثه من دمار قدر اهتمامه بمدى تفوقه فى سباق الدمار .. فى سباق القضاء على أكبر عدد ممكن من الناس ..

فالإنسان لايهم .. وإنما السباق والانتصار هو الأهم .

وباسم الدين قامت حروب .. ومات النساء والرجال والأطفال .. وبقى الدين ومات الناس ، بقيت الفكرة سواء كانت سليمة أو غير سليمة وهلك الناس .

وفى السياسة من أجل الحرية أو ضد الحرية مات الملايين وسيموتون .. ويفنى الناس وتبقى السياسة ..

فكل فكرة أهم من الإنسان .

وحتى الإنسان عندما يريد أن يقوى فإنه يزيل الإنسان من طريقه .. فلا قوة بغير الإنسان ولاقضاء على قوة إلا بالإنسان ..

فمن أجل بقاء إنسان يجب أن يهلك أناس كثيرون .

فالإنسان لايساوى شيئا عندنا .. عند الإنسان !

فالله الذى صنع الإنسان الذى صنع الصاروخ لم يجدوه فى السماء .

وعندما نزلوا إلى الأرض لم يجدوا الإنسان أيضا ..

وإنما وجدوا ما صنعه الإنسان .. وعبدوه .. وركعوا أمام الأفران وأمام أجهزة التليفزيون وأمام المدافع وأمام الصواريخ .

إن إنسان اليوم يجرد نفسه من إنسانيته .. إنه يصنع الآلة ويدخل فيها وينطق بلسانها .. يصنع الساعات ويقلدها .. فيكون كالعقارب التى تتحرك بوضوح على أرضية لامعة مخططة وينسى أن هذه العقارب تتحرك لأن تحتها عشرات التروس والمسامير تدور على بعضها البعض ويدوس بعضها البعض فى نظام ووفقا لنظريات علمية .. وفى لحظة يحس أحد العقارب أنه فوق وأنه يتحرك وحده .. وأنه عندما ارتفع فى الفضاء لم يجد هذا الذى يسمونه .. الله ..

إن أحد الأدباء الإنجليز فكر فى أن يصدر قصة عن عودة السيد المسيح إلى الأرض .. وكتب مقالا عن عودة المسيح وقال إن الأديب الروسى دوستوفسكى قد أعلن من قبل : أن المسيح إذا ظهر بين الناس فسيصلبونه مرة أخرى ..

فالناس هم الناس .. والطبيعة البشرية واحدة .. فلا يزال الشر أصيلا .. ولايزال الخير ضيفا أو سائحا أجنبيا يحتاج إلى خطابات توصية وليست الكتب السماوية إلا خطابات توصية من السماء إلى سكان الأرض .

وأخيرا اهتدى الكاتب الإنجليزى واسمه كالدر ـ مارشال إلى فكرة قصة .. إن المسيح أو أى نبى عندما يظهر فى انجلترا لابد أن يكون ابن أحد عمال المصانع .. ولايهم أن تكون هذه المصانع للحديد والصلب أو الفحم وفجأة يشعر بضرورة أن يترك المصنع وأن يعظ الناس أثناء تناولهم الطعام وينقطع عن العمل وفى هذه الحالة تعاقبه الشركة على أنه انقطع دون إذن ولكنه يصر على مواعظه فتنذره .. ثم تترفق به وتعطيه إجازة مرضية ثم تقرر لجنة مراقبة الإنتاج فى المصنع أن تعالجه على حساب النقابة .. ويعالج بالصدمة الكهربائية .. وبعد ذلك يعود إلى مكانه أمام الأفران فى المصنع ولايلتفت إليه عامل واحد فكل العمال مشغولون بمراقبة الأرقام سيقترب منه واحد أو اثنان من العمال وقد يضع الواحد منهما يده على كتفه وقد يقول له : أنت الآن أحسن .

وليس من المهم أن يرد .. فإنهم لن ينتظروا الرد .. وسيمضى كل واحد إلى مكانه فى المطعم .. وبعد ذلك إلى مكانه أمام الوحش الضخم الذى صنعه الإنسان .. أمام الآلات الثقيلة التى تضرب الحديد بالصلب وتضرب النار بالدخان وتغطى وجه الإنسان بالزيت والفحم والهباب ..

وكل يوم يتوضأ ويصلى لها .. وينسى أنه هو الذى صنعها وأنها لا يمكن أن تكون بغيره .

إن ظهور المسيح أو أى نبى فى هذا العصر الصناعى المادى سيكون له نفس المصير فالناس يدورون على مسافة قريبة من الأرض سعداء بالسيارة الهزيلة التى ركبوها .. كذبابة حول الكرملين ولايجدون هذا الذى يسميه الناس على الأرض : الله .

إن هذا هو مجرد إنكار لوجود الله .

ولكنه ولا شك إعدام للإنسان وقيمة الإنسان .

يبذرون الأرض بالملح !

الرجل الذى اخترع القنبلة الذرية حاول الهرب إلى روسيا .. والطيار الذى ألقى هذه القنبلة على اليابان أصيب بالجنون !

والرجل الذى اخترع القنبلة الهيدروجينية لانجلترا هرب إلى ألمانيا وانتحر !

والرجل الذى اخترع قنبلة الكوبالت انتحر .

لقد تنبه ضميرهم إلى خطورة أعمالهم ، وإلى الكارثة التى تنتظر البشرية على أيديهم .. لأنهم استخدموا عقولهم فى القضاء على حضارة الإنسان ، أى فى القضاء على تاريخ العقل الإنسانى وهو يحاول أن يضيف المزيد من النور فى كل طريق . فكأنهم استخدموا عقولهم فى القضاء على كل عقل ..

ولو أراد مجانين أقوياء أن يفعلوا بالإنسانية ، ما يفعله هؤلاء العقلاء ، ما صنعوا أسوأ من هذه الاختراعات المهلكة !

إن عالم الكيمياء السويدى الفريد نوبل الذى اخترع الديناميت ، وهو سلاح هزيل قد تنبه ضميره وندم على هذا العمل الفتاك . فرصد جائزة مالية لكل من يعمل على رفاهية الإنسانية ، وتخفيف آلامها وتدعيم السلام على الأرض .. أى أن هذه الجائزة لكل من يحاول أن يمحو أثر الديناميت والأسلحة التى تقضى على السعادة بين الناس .

ومن الغريب أن هؤلاء العلماء لايندمون إلا بعد أن تكمل أبحاثهم وإلا بعد

أن يروا نجاحها المؤكد . فكأنهم فى حماسهم العلمى ، واستغراقهم فى الدراسة ، وحرصهم على الوصول إلى نتائج محققة ، ينسون أنفسهم ، وينسون العالم كله ، ولايفيقون إلا على صوت دوى هائل يجعلهم يتساءلون : من هو هذا المجرم ؟

وعندما يكتشفون أنهم هم هذا المجرم ، يتساقطون تحت شظايا الضمير !

كأنهم لم يكونوا يدركون بوضوح نتائج أبحاثهم الخطيرة ، أو كأنهم كانوا مرغمين على البحث والاستمرار فيه ، ناسين مسئوليتهم الإنسانية الهائلة ..

وهذا يجعلنا نتساءل عن « طبيعة » هذه العلاقة التى بين العلماء والدولة ..

هل العلماء فوق الدولة ؟ هل الدولة فوق العلماء ؟

هل العلماء أحرار يفعلون مايشاءون ، دون أن تكون عليهم أية مسئولية أمام هذه الدولة التى تمدهم بالمال والرجال وتتوقع المنفعة على أيديهم ؟

أم أن الدولة ترى فى هؤلاء العلماء قوة خطيرة ، ثروة قومية ، مناجم ، كنوزا ، جيوشا ، ولذلك يجب أن تتمسك بهم وتصونهم وتحرص عليهم من أجل الدفاع عنها ، وبذلك يكون هؤلاء العلماء سلاحا لها ، ضد أعدائها ؟

أو بعبارة أخرى : هل العلماء أحرار بلا مسئولية .

هل العلماء مسئولون بلا حرية .

مثلا .. مثلا .. إذا اكتشف أحد العلماء نظرية فى الطبيعة ، يؤدى تطبيقها إلى انفصال الكرة الأرضية عن الشمس .. وبذلك تتطوح فى الفضاء ، وتنتهى الحياة عليها ، فما الذى يجب أن يفعله هذا العالم الكبير؟..

هل يعطى هذه النظرية إلى دولته ، لكى تتولى هى تطبيقها وتنفرد هى وحدها بشرف تخريب الكرة الأرضية ، وبذلك ينسى واجبه نحو الإنسانية ، ولا يذكر إلا واجبه نحو وطنه ؟ .

أو هل ينشر هذه النظرية فى العالم كله ، فلا تكون سرا تحتكره دولته . ثم إن انتشارها يؤدى إلى إضعاف قيمتها ، وبذلك ينسى واجبه نحو وطنه ، ولايذكر إلا واجبه نحو الإنسانية كلها ؟ .

أو هل يهرب بجلده ؟ ولكن إلى أين ؟ إن هربه هذه المرة ، إلى أى معسكر لن ينقذ الإنسانية من الكارثة ، إذن لابد من الهرب بصفة شخصية : بالجنون أو الانتحار .. فالجنون هو وحده الذى ينقذ عقل الإنسانية كلها ، أو موته هو وحده الذى يمد فى عمر البشرية .

إنها إذن مشكلة العالم الكبير الذى يجد نفسه على حافة العقل والجنون .. جنونه هو أو جنون كل الناس .. عقله هو أو عقل كل الناس ..

ولكن ما الذى يفعله رجل واحد عاقل فى عالم كله من المجانين ؟ .

ما الذى يفعله رجل واحد معه سر بقاء الإنسانية ، فى عالم يريد أن يفنى نفسه بنفسه ؟ .

هذه هى القضية الخطيرة العميقة التى يناقشها الأديب السويسرى فريدريش ديرنمات فى مسرحية « علماء الطبيعة » التى ترجمها الدكتور عبد الرحمن بدوى .. وقد اختار المؤلف السويسرى للعلماء العباقرة الذين وقعوا فى هذه الأزمة فى أعلى مستوياتها الإنسانية ، أن يدخلوا مستشفى المجانين ، وأن يعيشوا فيها انقاذا للحضارة الإنسانية ..

ومن ألوف السنين اختار الجنون رجل بسيط اسمه عوليس بطل الملحمة الإغريقية الخالدة .. فقد كان لابد لهذا البطل من أن يشترك فى حرب دامية .. ولكنه لا يريد هذه الدماء .. فتظاهر بالجنون فأتى بمحراث يجره حمار وثور وراح يبذر الأرض بالملح ولكنهم اكتشفوا أنه عاقل عندما وضعوا ابنه الصغير أمام المحراث ولاحظوا أنه أبعد المحراث عن ابنه ، فاقتادوه إلى القتال .. ليسفك

الدماء ، ويتعذب فى البر والبحر عشرين عاما ! .

فالتظاهر بالجنون وكراهية الحرب والدماء ، لم ينقذه من أيدى الشعب المتعطش للدماء .. فاتهموه بالجنون ، لا لأنه كان يبذر الأرض بالملح ، ولكن لأنه يهرب من منظر الدم ..

وكأنه هو وحده العاقل ، وكأن الناس كلهم مجانين .

ولكن عندما يكون هناك عاقل واحد والكل مجانين ، فلا قيمة لهذا العقل .. لأن الجنون هو الإجماع ، والعقل هو الخروج على الإجماع ..

وفشل عوليس .. وانتصر الناس ! .

ومن ثلاثة قرون روى لنا الأديب الإنجليزى سويفت فى كتابه المعروف « رحلات جيلفر » كيف أن هذا الطبيب جيلفر قد ذهب إلى دولة يحكمها نوع غريب من الخيول . أما الشعب فهو من الناس العاديين . ومن رأى الخيول أن الناس أغبياء ولذلك فهم يعاملون جيلفر على أنه إنسان غبى ، وأنه مجنون وأنهم هم العقلاء ..

ولكن جيلفر واحد .. ودولة الخيول بالملايين وقد أجمعوا على أنه وحده مجنون . فكان عليه أن يهرب وأن ينجو بعقله من هذه الملايين المجنونة ، فلا حياة لعاقل واحد ، بين ملايين المجانين .. لأن هذه الملايين بقوتها ستجعله ، وهذا حق ، المجنون الوحيد !

ومن ثلاثين عاما نشر توفيق الحكيم مسرحية « نهر الجنون » وهو فى هذه المسرحية يصور لنا دولة من أولها لآخرها قد شربت من نهر الجنون فأصبحت كلها مجنونة .. الشعب ورجال الدين وحتى الملكة .. ولم يبق من العقلاء الذين لم يشربوا من النهر إلا الملك وأحد الوزراء ..

وراح الشعب ينظر إلى الملك ووزيره بإشفاق شديد .. وهى نفس نظرة

الملك ووزيره إلى الشعب ورجال الدين والملكة .. ولكن الشعب أقوى والملك أضعف . ومن الممكن أن يعزلوه عن العرش بتهمة الجنون ، ومن الممكن أن يقطعوا رقبته ..

فرأى الملك ووزيره من العقل أن يشربا من نهر الجنون ..

وأنه من الجنون أن يظل هو العاقل الوحيد ..

فالعقل يحتم عليه أن يكون مجنونا ..

فشرب الملك ووزيره من نهر الجنون .. وتم الجنون لكل الناس .. وأنقذ الملك عرشه ونفسه !

والمشكلة عند الأديب السويسر أبعد من كل هذا وأعمق .. فهى ليست مشكلة أحد العلماء الذى يريد أن ينقذ رأسه ، ولا أن يحفظ مكانته العلمية أو السياسية .. وإنما هى مشكلة أحد العلماء أو كل العلماء الذين ارتفعوا بتفكيرهم وأبحاثهم إلى ما فوق مستوى الناس .. حتى وصلوا إلى درجة تهدد هؤلاء الناس بالفناء .

إنها مشكلة الإنسانية وعلمائها أمام حريتهم وأمام مسئولياتهم .. إنها مشكلة الدولة والعلماء والسياسة والعلم .

ففى مسرحية « علماء الطبيعة » ـ وهى آخر مسرحيات الأديب السويسرى نجد مأساة عالم اسمه « موبيوس » اكتشف نظرية لها نتائج تؤدى إلى نهاية العالم .. وقد نشر هو بعض المعلومات عنها . ثم اختفى بعد ذلك . وأدرك العلماء فى كل مكان أن موبيوس هذا ، هو أعظم عالم ظهر فى تاريخ الإنسانية .. وتمنى كل واحد منهم أن يعرفه ، أن يراه ، أن يجلس إليه ، أن يسمع تفاصيل هذا الاكتشاف الخطير .. ولكن موبيوس قد غطاه الغموض ١٥ عاما . وأخيرا اهتدت إلى مكانه مخابرات الشرق والغرب .. واتفقت المخابرات مع اثنين من

العلماء الكبار فى الطبيعة على الذهاب إلى موبيوس فى مكانه الذى اختبأ فيه أى فى مستشفى المجانين ..

وفى مستشفى المجانين يتظاهر واحد منهما بأنه نيوتن ، ويتظاهر الآخر بأنه اينشتين .. ويرتكب كل منهما جريمة فيقتل الممرضة المكلفة بالعناية به ، بعد أن لاحظ كل منهما أن هذه الممرضة قد اكتشفت حقيقته ، أو اكتشفت المهمة السرية التى جاء من أجلها ..

وفى الفصل الثانى والأخير من هذه المسرحية العميقة الجميلة ، نجد أن موبيوس يصارح العالمين الآخرين بحقيقته .. فهو قد ترك زوجته وأولادها الثلاثة ، وترك منصبه فى الجامعة : وقرر أن يهرب إلى مستشفى المجانين.. لأن هذا هو الحل الوحيد للمأزق الذى وقع فيه .. فهو يفضل الجنون على أن يحتفظ بعقله ويهلك الدنيا . بل إن عقله هو الذى هداه إلى الجنون ، لكى تستمر الحياة ، لأنه لايستطيع أن يواجه الدنيا المجنونة التى تريد أن تستغل نظريته فى إنهاء العالم كله ..

ويحاول العالمان الآخران اقناعه بالهرب من المستشفى ..

أحدهما يقول له إنه سيكون حرا يفعل ما يشاء ، يدرس ويبحث ويطبق نظرياته ، ويعيش حياة ناعمة هو وأولاده .. ثم يتفضل على الدولة بأبحاثه ..

والثانى يقول له : سيكون لك قيمة سياسية .. ستكون لك قوة .. لأن العلماء بلا سياسة ، لاقوة لهم .. ولكى تكون لك القدرة على أن تملى شروطك على الدولة ، وتسألها عن الأغراض التى تستخدم فيها نظرياتك ، يجب أن يكون لك دور سياسى .. فلا علم بغير سياسة .. ولا قوة للعلماء دون أن يكون لهم دور سياسى ..

ويرفض موبيوس الرأيين .. ويرفض الحياة فى الدولتين . فكل منهما تعطيه

وتنتظر الثمن . والثمن هو نهاية الإنسان وكل من الدولتين تتحفظ عليه ، وتخنقه وتحبسه .. فكل منهما سجن لعبقريته !

ولذلك فهو يفضل مستشفى المجانين لأنه سجن بلا استغلال . لأنه السجن الوحيد الذى يضمن له حريته ، والسجن الوحيد الذى يحتفظ له بعقله ، والذى يجعله مستريح الضمير ، لأنه برىء من دم الإنسانية .

واقتنع العالمان الآخران بالبقاء معه فى سجن الجنون ..

وخلاصة فلسفة موبيوس العميقة نجدها فى هذه العبارة :

« لقد اقتضى العقل منى أن أتظاهر بالجنون . لقد بلغنا نهاية طريقنا . ولكن الإنسانية لم تتقدم بنفس الدرجة .. لقد ضربنا المثل فى النضال . ولكن أحدا لم يتابعنا . فاصطدمنا بالفراغ . وأصبح علمنا شيئا مروعا وأبحاثنا محفوفة بالمخاطر . ونظرياتنا قاتلة .. ولم يبق أمامنا ، نحن علماء الطبيعة ، غير التسليم أمام الواقع . ولكن الواقع لم يرتفع إلى مستوانا ، بل إنه يفنى عندنا ويزول وعلينا أن نسحب علمنا ، وأنا من ناحيتى قد سحبت علمى . وليس هناك حل آخر غير هذا الحل وأنتما أيضا ليس لديكما حل غيره .. يجب أن تبقيا معى فى مستشفى المجانين ، أو يصبح العالم كله مستشفى مجانين .. إما أن نطفئ أنفسنا من ذاكرة الإنسانية ، أو أن تنطفئ الإنسانية .. إننا فعلا حيوانات متوحشة . لاينبغى إطلاقنا على الإنسانية .. » .

وتنتهى المسرحية بأن يعود العلماء الثلاثة إلى التظاهر بالجنون .. إلى الهرب من كارثة الدنيا . إلى هذه الكارثة الشخصية .

كأن العقل الإنسانى فاكهة إذا بلغ أقصى درجات النضج ، لابد أن يتعفن وأن يسقط بعد ذلك ..

كأن أرضنا لايمكن أن تبقى خصبة خضراء إلا إذا حرثها أعز أبنائها . ويذروها بالملح ..

كأن عبقرية الإنسان ، هى « عروس النيل » التى تلقيها فى النهر ، ليفيض بالحياة والخير والسلام .. ولكن هذا النهر ، مع الأسف ، هو نهر الجنون !

وتبقى المأساة .. ولا حل لها !

هذا الجيل .. وذلك الجيل !

هناك تهمة ظالمة تتكرر كل خمسين سنة ..

والتهمة تقول بأن (هذا) الجيل منحل ليس عنده طموح ، ولايريد أن يتعب .. جيل مستعجل ، يريد أن يحصل على كل شيء بسهولة . جيل يريد أن يرقص ويغنى وينام طول النهار ويسهر طول الليل ..

أما « ذلك » الجيل .. جيل زمان ، فكان التلميذ يذاكر بالعشرين ساعة وعلى لمبة جاز . جيل لايعرف الراديو ولا السينما .. جيل لايعرف الشعر السايح .. ولا يعرف البنطلون المحزق .. جيل إذا شخط الأب فى ابنه فإن الابن يغمى عليه ويجوز يموت من هذه الشخطة ..

ولم تكن البنت فى (ذلك) الجيل تستطيع أن تقول : بم لأمها أو حتى لأخيها الأكبر .. ولم تكن تنظر من باب أو شباك .. وإذا مشت البنت فى الشارع . فإنها تمشى كبنات الجيشا فى اليابان .. تمشى وهى تنكفئ على وجهها .. من شدة الكسوف ، أو لأنها رأت شخصا من بعيد يشبه أحد جيرانها .. أما الآن .. أما بنات (هذا) الجيل ، فأنت لاتفرق بينهن وبين الولد .. شعرها قصير وبنطلونها ضيق .. نحيفة القوام ، وترقص وتسهر ، وتتعرى على البلاج ، ولها رأى فى أمها وأبيها .. وعريسها ، ولها رأى فى السياسة والأدب .. وكل واحدة تريد أن تمثل وأن تسافر وحدها ..

الدنيا تغيرت ولابد أن القيامة ستقوم ، والسبب فى هذا كله : أن (هذا)

الجيل يختلف عن (ذلك) الجيل بصورة مفزعة .. وفى نهاية هذا القرن سيقال أيضا على كل الشبان الذين فى سن العشرين إنهم أسوأ الأجيال .. وأن جيل الشبان الصغار الآن ، هو أحسن الأجيال ..

والتهمة تتكرر كل جيل .. فكل جيل يرى نفسه أحسن من الجيل السابق عليه .. فالأب يرى أنه أحسن من ابنه ، والابن يرى أن والده من (الدقة) القديمة .. والبنت ترى أن أمها طيبة ، ولكنها برضه دقة قديمة .. برضه متأخرة ! .

وهذه التهمة ليست ظالمة تماما ، فلا يوجد شيء كويس كله ولايوجد شيء سيئ كله ..

فهذا الجيل لايخلو من عيوب طبعا .. عيوب الشباب ، والنقص فى التجربة .. ولكن هذه العيوب لها ظروفها . فإذا كان آباؤنا يمشون على أرجلهم من البيت إلى المدرسة . فقد كانوا معذورين فلم تكن هناك مواصلات .. فهل من المعقول بعد أن أصبحت المواصلات فى كل مكان أن نطلب إلى أبناء هذا الجيل أن يمشوا على أرجلهم .. هل من المعقول أن نطلب إلى الشبان أن يذاكروا على الحصيرة وتحت مصباح غازى ، على الرغم من انتشار المقاعد والكهرباء .. هل من المعقول أن نطلب إلى التلميذ اليوم أن يعمل فى أية وظيفة ليدفع مصاريف المدرسة ، على الرغم من أن التعليم أصبح الآن مجانا .. هل من المعقول أن نطلب من الفتاة التى دخلت الجامعة ، وأصبحت مهندسة وطبيبة ثم وزيرة ، وبطلة فى المباريات الرياضية ، وراقصة وممثلة وصحيفة ، أن تمشى وهى تكاد تقع على وجهها ، لمجرد رؤية أحد إخوتها . لماذا ؟ ما الذى تخاف منه ؟ ما الذى يخجلها ؟ هل من المعقول أن نطلب من هذه الفتاة التى تعلمت وتساوت بالرجل أن تقطع لسانها . ثم تضعه تحت جزمتها ، إذا تقدم لها عريس ؟. هل من المعقول أن الفتاة التى أصبحت وزيرة تشارك فى حكم

الشعب ، لايكون لها رأى خاص فى شىء خاص جدا ..

هل من المعقول أن نطلب إلى شباب هذا الجيل ألا يروا التليفزيون وألا يذهبوا إلى السينما لأن آباءهم لم يروا السينما من أربعين سنة ولا التليفزيون من عشرين سنة ! .

إننى أعرف صديقا ضرب ابنه الصغير على وجهه أمام الضيوف لأنه صحح لوالده بعض المعلومات الفنية .. وكان الابن على حق . هل هذا عيب ؟ أليس من المفروض أن يخطئ الأب ؟ أليس من المفروض أن يصدق الابن الصغير الذى يرى كل الأفلام فى التليفزيون يوميا ! .

طبعا فى (ذلك) الجيل كان الابن لايجرؤ أن يصحح معلومات والده .. أو كان من المستحيل أن يتوهم أنه هو على حق ، وأن والده مخطئ !

إننا لاننكر فضل (ذلك) الجيل .. ولا الجيل السابق عليه .. فكل الأجيال هى مراحل فى حياة المجتمع ، فى كل التاريخ ولا تاريخ بغير ناس .. ولا ناس بغير تاريخ .. وكل إنسان له تاريخ .. له طفولة وشباب ورجولة وشيخوخة .. ولكن المجتمع لايشيخ ، فهو متجدد دائما فعندما يكون هناك أناس قد بلغوا الشيخوخة ، يكون هناك أطفال صغار ، أطفال بالملايين وعندما يموت هؤلاء الشيوخ ، يكون الأطفال قد أصبحوا شبابا .. فالمجتمع فى شباب دائم .. فى حيوية دائمة .. أناس تقول عنهم (ذلك) الجيل ، وأناس تقول عنهم (هذا) الجيل ..

والتهمة الظالمة ، كرة يقذف بها جيل فى وجه جيل .. وتختفى الأجيال ، وتبقى الكرة ! .

وأنا لا أريد أن أعدد ما حققه هذا الجيل من أعمال عظيمة فى كل مجالات

الحياة الإنسانية .. ولا أريد أيضا أن أعدد ما حققته الأجيال الماضية .. أو حتى الجيل الماضى ..

ولكن من المؤكد أن (هذا) الجيل قد حقق الكثير.. حقق الاستقلال وضاعف الحرية ، ووسع جبهات التحرر ، وخرج من النطاق الضيق ، إلى النطاق العالمى .. ولم يعد مشغولا بحريته هو وحده ، وإنما مشغول بالحرية عموما .. فالحرية لم تعد مطلبا شخصيا ، ولا هدفا قوميا ، ولكنها مطلب عالمى .. وأنها مبدأ . فهى حريتى وحرية كل الناس .. حرية كل الناس من الجوع . ومن المرض ومن الجهل ، ومن الاستغلال .. والحرية تقتضى العدل . إنه تحرير من الظلم . ظلم القوى للضعيف . ظلم القادر للعاجز ، ظلم الكبير للصغير ، ظلم الأبيض للأسود ، ظلم الحاكم للمحكوم ، والحرية تقتضى عدالة التوزيع ، توزيع الثروة بين الناس .. بين الذى ينتج وبين الذى يستهلك . بين الذى يبيع وبين الذى يشترى .. بين الذى يتعب وبين الذى يرث بلا تعب ..

ولابد أن الأجيال القادمة ستكون أكثر حرصا على حريتها . لأن الحرية قيد أيضا فالذى عرف الحرية ، لايمكن أن يرتضى شيئا غيرها . فهو مرغم على أن يكون حرا .. لايستطيع إلا أن يكون حرا .. فلو فرضنا أن إنسانا عاش يتنفس من نصف أنفه .. ثم أجريت له عملية جراحية ، فراح يتنفس بكل أنفه .. فهو لايمكن أن يرضى التنفس بنصف أنفه .. إنه لايقبل العودة إلى التنفس بنصف الأنف ، أو برئة واحدة ، أو بنصف معدته ، أو يمشى على ساق واحدة ويعمل بذراع واحدة ، فهو مرغم على أن يكون حرا .. محكوم عليه بأن يكون حرا أو بعبارة أخرى : لاحرية له فى أن يختار حريته ! .

وكل يوم يحاول علماء النفس والاجتماع أن يعرفوا حقيقة (هذا) الجيل .. أن يعرفوا حقيقة هؤلاء الشبان الذين سيحملون أعباء الحاضر ليصلوا بها إلى

محطة المستقبل .. طبعا إحدى المحطات الاختيارية فى الطريق الطويل فى عمر مجتمعنا ..

ولايمضى يوم دون أن يسألوا الأطفال الصغار ، والشبان والفتيات المتزوجات واللاتى لم يتزوجن .. والأمهات والأرامل ..

وكل هذه الاستفتاءات تسجل تعبيرات اساسية فى عقلية الشبان ، من الذكور والإناث ..

ففى أمريكا يؤكد أحد الاستفتاءات أنه ليس صحيحا أن (هذا) الجيل أقل تدينا من (ذلك) الجيل .. وربما كان (ذلك) الجيل أكثر ترددا على أماكن العبادة ، ولكن الشعور الدينى واحد ، وربما أصبح الشعور الدينى أبسط عند (هذا) الجيل ..

وليس صحيحا أيضا أن (هذا) الجيل ميال إلى التدمير أو التخريب .. وأن (ذلك) الجيل كان أميل إلى الإنشاء والبناء .. فالجيل الماضى هو الذى خاض حروبا واسعة وهذا الجيل يحاول أن يتفادى المعارك ، فلا يشترك فى أى حرب .. وأن يحقق العدالة على الأرض بالسلام . ليس (هذا) الجيل الأمريكى وحده ، ولكن كل (هذه) الأجيال الشابة فى العالم كله ..

والاستفتاء الذى قام به الدكتور (واطسون) يؤكد أنه ليس صحيحا أن (هذا) الجيل لا يريد أن تكون له حياة زوجية .. على أساس أنه يقضى معظم الوقت فى المكتب أو فى المصنع أو فى النادى .. أو أنه إذا عاد إلى البيت فإنه يقضى الوقت كله يتفرج على التليفزيون دون أن يشعر بوجود زوجته أو أولاده .. فكأنه يعيش وحده ، أو كأنه من الممكن أن يعيش وحده ، دون أن يحتاج إلى أى إنسان آخر يشاركه (حتى) فى النظر إلى التليفزيون .

ولكن هناك فارق كبير بين أن يرى الإنسان أحد الأفلام وهو المتفرج الوحيد

وبين أن يرى الفيلم ومعه ألوف الناس . والفارق هو أن الإنسان اجتماعى بالغريزة .. وأنه لايستطيع أن يكون وحده . ولا حياة إلا مع الناس وبالناس وللناس .

وليس من الضرورى أن يعرف الناس الذين يشاهدون معه الفيلم ، ولكن يكفى جدا أن يحس بهم . أو أن يحس أنه ليس وحده . فهو عندما يدخل السينما يجد زحاما يضايقه ويسمع ضوضاء تنرفزه ، ويجد أمامه رءوسا تعلو وتهبط ، ويضايقه صوت رجل يشخر وراءه . وسيدة تشرح لزوجها قصة الفيلم .. ولكن كل هذه المضايقات .. تهون أمام وحدته .. أمام شعوره بأنه الوحيد فى الصالة .

وربما ضايقته هذه الهيصة فى السينما وجعلته يغادر السينما . ومع ذلك فهى أيضا أهون من مشاهدة الفيلم وحده . دون أن يكون هناك أى إنسان يضايقه !

ومعنى ذلك أن (هذا) الجيل ليس من أنصار العزلة والحياة بمفرده . فالعلم الحديث قد ربطه بكل الدنيا . الراديو والتليفزيون والسينما والصحافة كلها ربطته بالعالم من أوله لآخره .. فهو يختنق إذا عاش بمفرده . إذا عاش بمفرده فى بيته أو فى مجتمعه أو عاشت دولته كلها بمفردها دون أن تكون مربوطة بالدول الأخرى .. أو حتى إذا عاشت كرتنا الأرضية بمفردها دون الاتصال بالكواكب والنجوم الأخرى .

فالأرض التى نعيش عليها مشدودة بجاذبية الشمس .. والشمس هى التى تمدنا بالحرارة والحياة . فكل شىء مربوط من شىء . وإذا نحن قاومنا هذا الرباط . فليس الغرض من هذه المقاومة أن نقطع الرباط .. وإنما نتخلص منه بعض الوقت ..

تماما كالذى يعمل «رجيم» .. إنه لا يمتنع عن الأكل تماما ، وإنما يقلل منه .

فهذه الروابط ، أو هذه القيود تشبه الملابس ، تجعلها خفيفة وتجعلها ثقيلة حسب الظروف .. ولكن لابد من الملابس .. ولابد من الارتباط بالآخرين ..

فليس صحيحا أن « هذا » الجيل مفلوت .. وأنه لايريد أى قيد ..

وأحدث استفتاء أجرى فى ألمانيا هو الذى قام به الدكتور لوكارت . ونشرته الصحف والمجلات النفسية فى ألمانيا .. وقد وجه ٣٢ سؤالا إلى ستة آلاف فتاة .. ولم يوجه الاستفتاء إلى الشبان .

والدكتور لوكارت له نظرية معقولة ومقبولة من زمن طويل . وهى أن المرأة مقياس التطور . والمجتمع الذى تكون فيه المرأة متقدمة يكون مجتمعا متقدما .. فهى عقارب الساعة .. وكما أننا نعرف الساعة من عقاربها .. فكذلك مجتمعنا نعرفه من المرأة ..

فالمرأة تدل على عقلية الرجل .. فى البيت أو فى المجتمع فهى على رأس المجتمع .. وتدل على مدى تأثر أى مجتمع بالمجتمعات الأخرى .

فالمرأة ظلت قرونا طويلة محبوسة فى البيت . لأن الرجل فضل لها السجن على الشارع .. واختار لها الظلام على النور الذى يشيعه هو فى كل مكان إلا فى بيته . وإلا فى عقليته هو ..

فقد كان الرجل ـ مثل المصباح ـ داخله أسود وبقيت المرأة فى البيت مقيدة .. مربوطة .. مرهونة بإرادة الرجل ومزاجه ..

وحبس المرأة فى البيت يدل على أن الرجل له رأى غريب فى الحرية : وهو أن يكون هو حرا ، وتكون المرأة مقيدة .. أو بعبارة أخرى : أن الحرية ليست واحدة وأن الحرية قابلة للقسمة .. وأن الحرية كلمة مذكرة وأنها للرجال فقط .. أو أن الرجل هو إنسان وأن المرأة أقل من الإنسان .. أو أنها إنسان قاصر .. وأنها لم تبلغ سن الرشد . وأن الرجل هو وحده الذى عنده البلوغ وعنده

الرشد .. وأن الحرية هى البنك الذى يتعامل مع الرجال ، ويقفل الأبواب والنوافذ فى وجه النساء ..

ولكن المرأة المتقدمة تدل على أن الرجل أيضا متقدم . فهو حر . وهى أيضا حرة .. والاثنان فى ظل القانون . نفس القانون . فلا يوجد قانون رجالى وقانون حريمى .. ولا توجد حرية مؤنثة وحرية مذكرة .

والحرية معناها المسئولية ..

فالحر هو المسئول عن كل تصرفاته . والمرأة الحرة ، هى المسئولة عن كل تصرفاتها فإذا أخطأت فلا يقال إن والدها هو المسئول ، ولا أمها .. ولا أخاها .. إنها بالضبط ككل واحد من هؤلاء .. وإذا أخطأ أى واحد ، فلا يقال إن أمه هى التى أفسدته ، ولايقال إن أباه هو الذى لم يحسن تربيته .. وإنما يقال : إنه أخطأ لأنه حر .. والحر هو الذى يخطئ . وأنه أخطأ ، وهو مسئول عن كل ما يعمله .

والرجل يخطئ لأنه حر ، والمرأة تخطئ لأنها أيضا حرة ..

والذى لايخطئ إما مجنون وإما إله ..

فالمجنون لايخطئ لأنه لايعرف الفرق بين الغلط والصواب .

والإله لايخطئ لأنه منزه عن الخطأ ..

وكل هذا معناه أن المرأة المتقدمة كعقارب الساعة ، تدل على أن الزمن تقدم .. على أن المجتمع تقدم .. وعلى أن الرجل بالذات له عقلية متقدمة ..

ولذلك اختار العالم الألمانى لوكارت أن يقيس عقلية المرأة وحدها ليعرف عقلية الرجل فى نفس الوقت ..

وأول نتيجة كشف عنها هذا الاستفتاء : أن الفتاة الألمانية مثلها الأعلى

هو : أمها . فهى ترى أن أمها هى أحسن سيدة فى حياتها .. وفى الدنيا أيضا .

ومعنى هذا أن الفتاة ترى أن البيت هو أحسن مملكة . وأن سيدة هذه المملكة هى نموذج .. هى مثل أعلى . ومعنى هذا أيضا أن الفتاة الألمانية ترى أن البيت أحسن من المكتب وأحسن من المصنع . وأن حياتها المثالية أن يكون لها بيت وأن يكون لها أولاد وأن تربى أولادها تماما كما ربتها أمها . وأن يحبها أولادها كما تحب هى أمها . فهى تريد أن تكرر هذه الحياة . وأن تعيدها مرة أخرى .. فكأن الفتاة الألمانية لاتريد أن تعمل . وإنما تفضل الحياة الزوجية على الوظيفة .

ولذلك فهى عندما سألها الاستفتاء عن الغرض من دخولها المدرسة أو الجامعة . كان جوابها لكى أكون مثقفة فقط . أى لكى تكون ست بيت مثقفة . فهى تتعلم لأنها لابد أن تكون مثقفة . وليس من الضرورى عندها أن تكون موظفة .

ولابد أن يكون هذا هو رأى الرجل أيضا . فالمرأة تعكس صورة الرجل فى كل تصرفاتها . لأن المرأة حريصة على أن ترضى الرجل . وأن تكون عند حسن ظنه ، وعند حسن ذوقه . فهى اختارت البيت ، لأن الرجل الألمانى يريد البيت يريد الزوجة والابن . ويريد الزوجة التى تتفرغ للبيت . الزوجة الناعمة ، لا الزوجة الغليظة الزوجة العاملة ، التى تعيش كل الوقت مع الرجال .. كل الرجال .. انه يريد زوجة له ، طول الوقت . زوجة تنتظره طول الوقت ، ويبدو أن المرأة أيضا تريد أن تنتظر رجلا واحدا طول الوقت .

وهذا يدل أيضا على ظاهرة مهمة وهى أن الأب ليس المثل الأعلى للفتاة .. فالأب قد انقطعت صلته بالبيت .. لم يعد الأبناء يرون والدهم .. فهو طول الوقت مشغول خارج البيت .. فكل أبناء العصر الصناعى يعيشون كأنهم أيتام . بلا أب .. بلا إحساس بالأب . فالأم هى التى تراهم وتعيش لهم وترعاهم .. فهى الأب وهى الأم وهى الأخت أيضا . ولذلك لم تعد للأب هذه القيمة

الكبيرة التي كانت له من مئات السنين .. لقد سقط الأب عن عرش الأسرة . وأصبحت الأسرة كخلية النحل ، تحكمها ملكة ! .

ومن الغريب أن يجيء . ترتيب الأب فى هذا الاستفتاء الطويل ، فى مكان متأخر جدا . لقد كان ترتيبه رقم ٢٧ .. جاء ترتيبه بعد الأم والأخوة والجيران ونجوم السينما والتليفزيون والأدباء والفنانين ! .

جاء ترتيب المدرسين سابقا على ترتيب المدرسات .. فالفتاة ترى أن المدرس أكثر عدلا ونزاهة من المدرسة . وان المدرس صديق وزميل وأخ . ومعنى ذلك أن المدرس لم يعد ذلك السبع المخيف . لم يعد ذلك الذى يمسك الكرباج فى يد ، والنجاح والسقوط فى اليد الأخرى ..

واختيار التليمذة للمدرس كمثل أعلى ، واختيار الأم كمثل أعلى كلاهما يؤكد حاجة التليمذة إلى الأخ والصديق والأب .. وأنها عندما لم تجد الأب والأخ فى البيت ، تحرص على أن تجده فى المدرسة . وكل هذا يؤكد أن الأب والأخ قد اختفيا من البيت .. ولم يتربع فى البيت سوى الأم ..

شيء غريب حدث أيضا فى نتائج الاستفتاء الذى أجراه الدكتور لوكارت فى جنوب ألمانيا على فتيات فى العشرين هو أن هؤلاء الفتيات يجعلن ترتيب نجوم السينما والتليفزيون فى نهاية القائمة .

فهن يضعن الأب ، كمثل أعلى فى المرتبة ٢٧ ، ولكن يضعن نجوم السينما والتليفزيون فى المرتبة ٣٠ !

على الرغم من أن صور نجوم الشاشة تملأ غرفهن وكتبهن وأنهن يبكين عند رؤية هؤلاء النجوم .

وهذا يدل على أن الفتاة من الممكن أن تنبهر لنجم الشاشة وتحبه . ولكنها لا تحترمه . ولا ترى أن حياتها ترتبط به .. ولاتحب أن تعيش مثله . أنها تعجب به

فقط . ولكنها لاتريد أن تتزوجه ولا أن يكون مثلها الأعلى بين الرجال أو بين النساء .

ومعنى ذلك أن الفتاة لم تخدعها الأضواء ، ولم تضللها الدعاية الضخمة التى تحيط بالنجوم ، وأنها تعلم أن هذا النجم عندما ينطق بالكلمة الحلوة فى الفيلم أو فى الأغنية ، لايقول كلاما من عنده ، وإنما من عند غيره من المؤلفين .. فلا الكلام كلامه ولا الإخراج من عنده ، وإنما كله تمثيل فى تمثيل .. فهذا الخداع الفنى ، لم يخدع الفتاة . وهذا يدل على نضج فى عقلية الفتاة الصغيرة وعلى فهم سليم للدنيا .. وعلى رغبتها فى حياة بلا خداع ولا أضواء تبهر العين وتوجعها .

والنتيجة النهائية لهذا الاستفتاء : أن الفتاة ــ والفتى أيضا ــ تريد البيت والحياة الهادئة ، وأنها حريصة على أن يكون جيلها أحسن من الجيل السابق .. إنها تريد أبا لأولادها أحسن من أبيها .. ويبدو أن هذا هو رأى أبناء هذا الجيل أيضا . إنهم يريدون البيت ، وأن يكونوا أحسن من آبائهم .

فليس صحيحا إذن أن (هذا) الجيل يهدم ، وأن ذلك الجيل كان يبنى .. وأن « هذا » الجيل قوة ناسفة لكل بيت وكل علاقة .. وان « ذلك » الجيل كان قوة جاذبة متمسكة بكل علاقة وكل رباط .. وإنما ظالمة لجيل من أوله لآخره .

ومنذ عشر سنوات كان الناس يقفون أمام عمارة إيموبيليا ليلتقطوا لها صورا ، باعتبارها أعلى عمارة فى مصر.. وفى ذلك الوقت كانوا يقولون أعلى عمارة فى قارة أفريقيا .. مع أن ارتفاعها عشرة أدوار فقط .

أما « هذا » الجيل قد التقط عشرات الصور للقمر وللمريخ أيضا .. ولابد أن الجيل القادم سينظر إلى جاجارين على أنه أول عربجى حنطور دار حول الأرض ..

وتتكرر التهمة .. تهمة التأخر والانحلال من الجيل السابق إلى الجيل الذى يليه .. إنها ليست تهمة ولكنها نظرة استخفاف أو غمزة عين أو هزة كتف من الذين كبروا إلى الذين لم يكبروا بعد ، من الذين شاخوا إلى الذين مايزالون شبابا .. من الذين لم يعد لهم مستقبل إلى الذين لهم مستقبل ، من « ذلك » الجيل إلى « هذا » الجيل !

كل شيء ..
إلى حدٍّ ما !

أنت عاقل . ولاشك . أنت تفكر وتدبر .. وتحسب حساب الغد وبعد الغد .. وتمشى على رجليك .. وعلى الجانب الأيمن من الشارع ، وحتى لو مشيت على الجانب الأيسر ، فأنت تعرف خطورة عبور الشارع .. عاقل .. وأنت تقرأ وتكتب وتقول إن هذا يعجبك ، وهذا لا يعجبك ، عندك أسباب لكل شيء .. وإذا أردت شيئا فأنت لاتخطفه بالقوة ، وإنما تفكر فى وسيلة للحصول عليه .. بالقانون ، أى بالعقل .. بالذوق أى بالعقل .. أو بالحيلة أى بالعقل .. كل شيء يدل على أنك عاقل .

ولكنك تظل تمشى بالساعات فى الشوارع بلا هدف ، وإذا توقفت عند أحد المحال التجارية .. فإنك تلمح فتاة .. الفتاة فى أصبعها دبلة .. وصاحب الدبلة ممسك بذراعها الأخرى .. وأنت تمشى وراء الاثنين .

وإذا رأيت العين الحمراء من هذا الزوج .. فإنك تتجه إلى فتاة أخرى .. فإذا جاءت إشارة المرور ومنعتك من اللحاق بها ، فإنك تقف فى طابور أمام باب السينما .. وكلما اقتربت من نافذة التذاكر ، عدت إلى آخر الطابور .. وتمضى الساعة وأنت تنتقل من الشباك إلى آخر الطابور .. ثم تدخل السينما وتنام .. مع أنك عاقل !

ولكن هذه الأفعال لاتدل على أن العقل الذى كنت تفكر به وأنت تعبر الشارع كالبهلوان بين السيارات ، قد تعطل أو سقط منك .. فأنت عاقل

ولا شك .. ولكنك عاقل إلى حد ما .. تدرى ماذا تفعل ولكن إلى حد ما ..

أنت ولاشك تحب زوجتك .. وأنت لم تضيع وقتك فى الشوارع هكذا إلا لأنها قد سافرت إلى أهلها فى الريف. وأنت تحبها جدا .. فيوم مرضت فى الأسبوع الماضى كنت تجلس إلى جوار سريرها .. مع أن مرضها عادى جدا .. ولكنها العشرة الطويلة .. الحب القديم الذى ولد معكما وأنتما صغيران .. إنها ابنة عمك .. أو أكثر من ابنة عمك .. إنك تحس أنها أختك .. أو تماما كأختك .. وهذا ما يضايق زوجتك .. وما يضايقك أنت .. فأنت تثور على نفسك وعلى حبك البارد الجامد الذى يشتعل بالنار كلما رأى فتاة فى الشارع .. أو حتى كلما رأى خادمة تنشر الغسيل .. ولكن هذا القلب يصبح كالقطار عندما يقترب من المحطة ، وعندما يقترب من زوجتك .. دقاته منظمة كأنك نائم ، هادئة كأنك طفل .. أو كأن أحدا ليس معك .. أو كأنك أمام أختك أو والدتك .. فإذا بك تلعن الأيام التى كانت فيها بيوت العائلات تتجاور .. والأطفال يلعبون فى الشارع لعبة العريس والعروس .. فهى عروسك منذ طفولتك .. •

فأنت تحبها .. وتلعنها .. وتثور عليها ..

إذن فأنت تحبها إلى حد ما .. وهى أيضا تحبك إلى حد ما .. وعندما تهرب من البيت إلى المكتب .. يصبح الأوتوبيس كسفينة الحجاج .. وكأنك فى طريقك إلى مكان مقدس .. كل شىء هناك ملىء بالناس والأوراق .. والسعاة يقفون منزعجين عند رؤيتك .. كأنهم كان لابد أن ينتبهوا لمجيئك منذ خرجت من البيت .. كأنهم فوجئوا بتشريفك الذى يحدث كل يوم وفى هذه الساعة المبكرة .. وأنت سعيد بهذا الاستقبال الكاذب .. وتجلس على مكتبك وتشم رائحة التراب ، ورائحة الورق والسجائر الخامدة والشمس الكسول وهى تكدس الذباب حولك .. ولكنك لا تهتم بهذا كله ، وتمد يدك إلى ورقة ملفوفة أمامك

وتلتهم ساندويتش الفول .. مع أنك رفضت أن تذوق هذا الفول فى البيت .. فأنت تحب عملك .. وتحب مكتبك وتراب مكتبك والسعاة الواقفين على باب مكتبك ، ووراء باب مكتبك تجلس أنت تطلب من الله أن يريحك من بيتك ، وكل من فى بيتك ..

ولكن حبك لهذا المكتب وما فيه من تراب وورق وذباب وسعاة وساندويتشات ليس حبا ثابتا .. إنه إلى حد ما ..

فمنذ أيام عندما علمت أن دورك فى الترقية لم يأت بعد .. ماذا فعلت .. لم تجلس على مكتبك ، لم تمسك ورقة ، لم ترفع عينيك فى مواطن جاء إليك ، لم تهتم بساع واحد وقف لك .. اتجهت إلى بيتك .. ونزعت ملابسك .. وفى البلكونة رحت تملأ صدرك بالهواء .. وكانت زوجتك سعيدة بعودتك .. ولم تشأ أن تسألك .. فقد كان ذلك اليوم هو يوم الخميس .. ليلة الجمعة ..

فأنت تحب مكتبك إلى حد ما .. وتكره بيتك إلى حد ما .
ولكنك مع ذلك لست ساخطا تماما .. وإنما إلى حد ما ..
ففى كثير من الأحيان يرى الناس السعادة على وجهك .. أنت الآن فى الأربعين .. وليس على وجهك علامة واحدة .. لا توجد تجاعيد حول عينيك ولا جبهتك .. وبشرتك متوردة .. وعيناك لامعتان وابتسامتك مجلجلة .. ولا تزال أسنانك سليمة أغلبها .. على الأقل لم تضع طاقما بعد .. فأعصابك هادئة .. أو مستريحة .. ولكن هذا الهدوء إلى حد ما أيضا ..

ففى بعض الأحيان عندما تمشى فى الزمالك .. وترى سيارة فخمة فإنك تتطلع إليها .. إلى رقمها .. كأنك تعرف أحدا يملك مثل هذه السيارة .. أو كأنك تمارس هواية الفقراء . وهى حفظ ماركات السيارات .. وتنتقل من آخر الشارع إلى حيث تقف السيارة .. وكأى طفل صغير تلمس السيارة بيدك .. ثم

تضغط عليها بأظافرك .. كأنك تريد أن تشوهها .. أن تحطمها .. أن تحطم ولو جزءا صغيرا منها ..

فأنت إذن ساخط إلى حد ما . وأنت حاقد إلى حد ما ..

وعندما تجد إلى جوار السيارة شيخا يتسول ، فإن يدك تسرع إلى جيبك ولا تجد فكة .. فتعطيه الخمسة قروش التى رفضت أن تعطيها لأحد أبنائك فى الصباح ..

فأنت إذن تحب أبناءك إلى حد ما .. وأنت لست ساخطا على كل الناس .. وإنما على أصحاب السيارات الفخمة ، إلى حد الخربشة أى إلى حد ما ..

وأنت مؤمن بالله .. ومؤمن بقضائه وقدره .. وكثيرا ما تردد : أن الخير هو مااختاره الله .. وكثيرا ما تردد : لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع .. وكثيرا ما تقول : الجنة تحت أقدام الأمهات .. لاشك أنت مؤمن . وأنت تصلى معظم الأحيان .. وأنت تصوم فى غالب الأحيان وأنت تزور قبر والديك .. وتترحم عليهما .. وقد رآك بعض الناس وأنت تبكى .. وفى الحقيقة أنت بكيت عندما تذكرت كيف كانت حياة والديك .. وأنت وعدت الله ألا تكرر حياة والديك . وألا تكرر نفس العذاب ، فتكون أبا كوالدك ، وتكون لك زوجة كأمك ، ويكون هناك أولاد مثلك .. ويكفرون بالأبوة والأمومة ، والحياة العائلية لقد وعدت بهذا كله .. ومع ذلك تزوجت .. فأنت تحب والديك إلى حد ما .. وأنت تكره أسرتك إلى حد ما .. ولكن هذ «الحد ما» قد زاد .. وكل يوم يزداد .. والنار تشتعل بينك وبين زوجتك ، وأولادك يتفرجون .. تماما كما كان يحدث بين والدتك وأبيك .. وكنت تحتار أيهما على حق .. هذا أبوك .. وهو طيب ومسكين ومريض ، وهذه أمك وهى مريضة جاهلة ساذجة وهى مكافحة أيضا .. إنهما يتضاربان بكلام كالرصاص ، وبنظرات كالنار ، وبدموع تغلى .. والفقر يفتك بهما وبك واخوتك ، والمرض يهلك الأب ويحطم

الأم .. وكل يوم تشتعل النار ، وكل يوم تسقط الأم على الأرض ، وإلى جوارها يسقط الأب .. وفى ذلك اليوم حملت الاثنين إلى الفراش .. وعلى مقعد إلى جوارهما جلست .. وارتفع صوت يعلن طلوع النهار ، وارتفعت مع صوته يداك تقول : يارب . إلا هذه الحياة .. أى شىء إلا أن أكون أبا .. أى شىء يارب !

واختار الله لك أن تكون أبا .. وضقت ـ استغفر الله ـ بمشيئة الله .. وربما كان هذا هو السبب فى أنك لا تصلى دائما ، ولا تصوم غالبا ، ورضت أن تذهب إلى الحجاز .. فأنت مؤمن إلى حد ما .. مستسلم لإرادة السماء إلى حد ما ..

وأنت رجل . طبعا ليس من الضرورى أن يكون كل أب رجلا ، ولا كل زوج رجلا . ولكنك رجل إلى حد ما .. فالرجولة مائة فى المائة غير موجودة .. والأنوثة مائة فى المائة لا وجود لها .. ولكن نسبة الرجولة فيك عالية . فمعنى ذلك أنك رجل إلى حد ما .. وأنثى إلى حد ما .. فأنت تحمل مسئولياتك بلا شكوى .. إلى الله .. والشكوى لله ، ليست شكوى . فهذا طبيعى أن يشكو المؤمن لربه كذلك ولكنك لا تشكو فى نهاية الشهر .. ولا تشكو وأنت تعاون بنات خالتك ولا تشكو وأنت تدفع أموالا ـ وإن كانت ضئيلة ـ إلى أبناء إخوتك .. إن زوجتك لا تعرف شيئا من هذا كله .. وأنت لا تشكو .. فالأموال تنزل من بين أصابعك .. كعرق جبينك .. قليلة ولكنها تتساقط .. وأنت رجل لأنك تضحى بالكثير من أجل غيرك .. إن زوجتك مريضة منذ سنوات .. وكان فى وسعك أن تتزوج غيرها .. وهى التى طلبت منك ذلك .. ولكنك لم تفعل .. إن كراهيتك لابنة عمك وزوجتك أم أولادك ، إلى حد ما .. وهذه رجولة .. فأنت رجل ولاشك . ولكنك رجل إلى حد ما ..

فأنت تقف أمام المرآة طويلا .. وأنت اشتريت صبغة سوداء للشعرات

البيضاء التى ظهرت على جانبى الرأس .. وعندك فرشاة لتنظيف أظافرك .. وألوان كرافتاتك فاقعة .. لا تتناسب مع سنك ولا مركزك . واستخدام العطور والبريانتين ، واستخدام البودرة بإسراف فى عنقك وصدرك .. والخادمة قد أكدت لزوجتك التى لا تصدق ، أنك وقفت عاريا ورحت تغرق نفسك بالبودرة .. لا أحد يصدق .. ولكنه حدث .. مع أنه لا توجد فى حياتك امرأة أخرى .. ولكن المرأة التى فى حياتك ، هى الأنثى التى فى شخصية كل رجل .. والتى تظهر فيه عادة عند الأربعين .. فأنت أنثى إلى حد ما .. ورجل إلى حد ما ..

وأنت صبور أيضا ..

وإلا ما وصلت إلى هذا المكان من كلامى .. وأنت يسهل خداعك أيضا ... فأنت تصورت أنك ستصل إلى شىء من هذا الكلام .. وإن كنت قد لاحظت أنك كنت تقفز فوق السطور ، ولا تعبر على السطر من أوله إلى آخره .. ولذلك فأنا أرى أنك صبور إلى حد ما .. وأنت أيضا لا يسهل خداعك فأنت منذ السطور الأولى أدركت أنك لن تصل إلى شىء ، وإنما الذى دفعك إلى قراءة كلامى هذا هو العادة .. فقد تعودت منى أن أقول لك كلاما له معنى .. له أول وله آخر .. وأنا خذلتك هذه المرة ..

الحقيقة أننى لم أخذلك تماما ، إنما إلى حد ما ..

فكل شىء فى الدنيا هو إلى حد ما .. لا صدق .. لا كذب .. ولا حب .. ولا كره .. ولا إيمان ولا كفر .. ولا موت .. ولا نهاية ولا بداية .. إنما كل شىء إلى حد ما .

المسافات التى بيننا

هذه محاولة لتفسير بعض العلاقات التى بين الناس .. لا أقول إنها تفسير كامل .. فلا يوجد تفسير كامل لأى شىء .. وخصوصا إذا كان هذا الشىء صعبا معقدا كالذى بينى وبينك .. أو بينك وبين أقرب الناس إليك .. فإن هذا «القرب» أو هذه «القرابة» هى التى تجعل التفاهم صعبا .. فأقرب الناس إليك هم أبعدهم عنك فى كثير من الأحيان .. فبين أى اثنين من الناس توجد مسافة . هذه المسافة هى الطريق الطويل جدا الذى أقامت عليه الإنسانية كل تجاربها لتجعله أقصر فإذا أصبحت هذه المسافة أقصر حاولت الإنسانية من جديد أن تجعله أطول ..

وبين التقصير والتطويل . تضيع أعمارنا .. وتضيع أحلامنا وآمالنا .. ولكنها تتجدد باستمرار .. وتعاود النظر فى هذه المسافة التى بيننا .

ما هو الفرق بين الإنسان والقرد ؟ .

الأصابع قادرة على أن تمسك أى شىء .. وقادرة على صناعة أدوات من الحديد والخشب .. لتكون هذه الادوات فى خدمتها .. أى لتكون هذه الأدوات أصابع أقوى من الأصابع الطبيعية .

ولذلك فالإنسان هو الحيوان القادر على صناعة «الأدوات» لنفسه .. هذه الأدوات توفر عليه مجهوده اليدوى والعضلى .. فهو اخترع الشوكة والسكين ..

واخترع السيارة والطيارة والتليفون .. وكلها أدوات توفر عليه المشى والجرى والصراخ .

وسبب هذه القدرة عند الإنسان أن أصابعه يمكن تحريكها . يمكن أن تمسك أى شىء ..

وسبب هذه القدرة أن هذه الأصابع فيها «مسافات» .. أى بين بعضها البعض مسافات من الممكن أن تقرب ومن الممكن أن تبعد . على عكس «أظلاف» البقر والجاموس «وأرجل» البطة أو الأوزة .. فهذه مفروض أنها أصابع تجمدت .. أى أن المسافة بين بعضها قد جمدت .. أو بعبارة أخرى لا توجد مسافات .. وإنما توجد مسافة واحدة .. فالبطة لا تستطيع أن تمسك السكين ولا الشوكة وهى كذلك لا يمكن أن تحركها .. وكذلك البقرة ..

فوجود مسافات بين أصابع الإنسان هى التى أعطت لأصابعه حرية الحركة .. حرية التقريب والتبعيد بين هذه الأصابع ..

أما القرد .. فهو عاجز عن تقريب أصابعه وتبعيدها .. لأن القرد عنده مسافة واحدة .. ولكن بين أصابع الإنسان مسافات كثيرة .. يمكن أن تكبر وأن تصغر .. على النحو الذى يريده . فهو يستطيع أن يمسك الدبوس .. ويستطيع أن يمسك البرتقالة .

فصدر هذه الراحة أو هذه القدرة غير المراهقة هو هذه المسافات المتعددة بين الأصابع .. هذه الحرية التى منحتها الطبيعة لأصابع اليدين لا أصابع القدمين التى تشبه أصابع القرد ..

وفى المتاحف القديمة يوجد نوع من البط كانت له أصابع ..ويقال إن هذا النوع من البط كان يعيش فى ظروف اضطرته إلى أن يطير فوق الشجر .. وأن يهبط إلى الماء .. أى كان مضطرا إلى استخدام أصابعه .. إلى تحريكها .. إلى

خلق مسافات بينها .. وخلق المسافات وتحريك الأصابع هما اللذان أبقيا على هذه الأصابع وهما اللذان جعلاها قادرة على أن تمسك السمك من الماء .

إلى أن جاءت الظروف التى جعلت البط لا يحتاج إلى أصابعه وعدم الاحتياج إلى الأصابع هو الذى جمد الأصابع .. وجمد المسافة بينها .. فأصبحت أقدام البط قطعة واحدة لا كأصابع الإنسان متحركة .. مرنة غنية بالانحناءات والمسافات .

فكما أن المسافة الواحدة تجعل الأصابع عقيمة .. تجعلها عاجزة عن « انتاج » شيء لأنها عاجزة عن الحركة فى كل الاتجاهات . لأنها محرومة من المسافات كذلك عندما تكون هناك مسافة واحدة بينك وبين إنسان آخر .. وهذه المسافة لا تزيد ولا تنقص .. وتصبح أنت وهو كأصبعين فى قدم واحدة فأنت مشدود له وهو مربوط بك .. وانتما الاثنان معا عاجزان عن الحركة أى لا حركة لكما فى أن تقتربا أو تبتعدا .. عندما تكون أنت وأى إنسان آخر على مسافة واحدة طول الوقت فإن هذه العلاقة لابد أن تكون عقيمة .. أى تكون ميتة ..

ولذلك فكل علاقة تشبه أصابع يد القرد علاقة ميتة . علاقة عقيمة .. وكل علاقة تشبه أصابع الإنسان علاقة مثمرة منتجة ..

أى كل علاقة فيها مسافة هى علاقة غنية بالألوان والحياة والحرية ..

خذ مثلا .. العلاقات المتلازمة .. كالحب والزواج .. والصداقة والزمالة والعداوة .. فالحب علاقة بين اثنين .. رجل وامرأة .. هذه العلاقة تقرب بينهما وتجعلهما ينظران إلى كل شيء فى الدنيا ، وكأن كلا منهما قد استعار عينى الآخر ، وأذنيه ، وعقله وذوقه ، كأنه يقف فى مكانه .. كأنه يعيش فى جلده كأنه يعيش فى داخله .. كأنه لا توجد مسافة واضحة بينهما .

والمتزوجان متقاربان ، والمسافة التى بينهما أساسها الحب والاحترام والنضج

والمصلحة .. هذه المسافة لها ، إلى جانب ذلك ، طابع قانونى .. إنها مسافة مسجلة فى الورق وبشهادة .. وعند الاختلاف بين الأزواج هناك شروط للبعد والقرب ، والفترة التى يتباعد فيها الزوجان وللفترة التى يستأنف فيها الزوجان هذه المسافة .. وهناك شروط قانونية كقطع هذه المسافة بالطلاق مثلا .. فإذا كان هناك أولاد .. فالأولاد هم وسيلة لتقريب المسافة بين الزوجين المنفصلين .. فكل المسافات بين الزوجين منصوص عليها فى القانون .

أما الصداقة فهى العلاقة الحرة على الرغم من أن تعبير «العلاقة الحرة» غير دقيق .. لأن العلاقة معناها أن يتعلق الإنسان من شىء أو بشىء كما تتعلق اللمبة من السقف أو كما يتعلق الحلق من الأذن .. ولذلك فالشىء المعلق ليس حرا وإنما حريته محدودة .. فهى علاقة محدودة الحرية ..

ومعنى أنها علاقة أنها ارتباط بشخص أو بشىء .. وهى حرة بمعنى .. أن المسافة فيها لا حدود لها .. فن الممكن أن يكون لك صديق فى أسيوط وأنت فى القاهرة .. ومن الممكن أن يكون لك صديق فى القاهرة وأنت لا تراه إلا قليلا جدا .. ولكن تحس أنك على علاقة به .. تحبه وتحترمه وتشتاق إليه . وتتمنى له التوفيق .. فأنت مربوط به .. ولكن هذا الرباط حر .. واسع ... طويل .. غير محدود . ومن الممكن أن تكون بينك وبين إنسان آخر صداقة وأنت لا تعرفه .. كأن تكون صديقا لممثل كبير معروف أو مؤلف يعجبك .. أو راقصة بالية عالمية .. فأنت تراه كلما ظهر فى فيلم . أو ظهر له كتاب .. وتحرص على ذلك .. وتتابع أخباره .. وتهتم به وتنشغل عليه ..

فالصداقة علاقة حرة .. علاقة بشىء أو بشخص .. ولكن هذه العلاقة لا تقيدك .. وإنما تمنحك الكثير من حرية الحركة .. من حرية اختيار المسافة التى بينك وبين صديقك .

والعداوة كذلك علاقة فالذى تكرهه أو الذى تعاديه أنت مربوط

بكراهيته ، أنت مربوط بمتابعة أخباره انتظارا لفشله والشماتة فيه أو انتظارا لوقوعه فى خطأ لكى تستغله بالتشهير به أو بالانقضاض عليه ..

والفرق بين العداوة والصداقة .. أن الصداقة علاقة حرة وأن العداوة علاقة غير حرة .. علاقة جامدة عقيمة .. علاقة متحفزة .. هذه العلاقة تنتهى بنهاية الخصم والخصم ينتهى بالقضاء عليه .. نهاية واحدة وهدف واحد ..

والعداوة علاقة لها مسافة محدودة .. أى علاقة تأكل المسافات وتقضى على حرية الحركة .. تقضى على تنوع المسافة .. علاقة تجعلك أنت وخصمك إصبعين فى قدم إنسان ، أو فى يد قرد . علاقة عاجزة عن صنع ألوان أخرى من الاهتمامات والمتع الإنسانية .. فالرجل الذى يعادى رجلا هو إنسان لم تعد أمامه إلا مسافة واحدة وإلا هدف واحد .. هو أن المسافة التى بينك وبين هذه الشجرة عشرة أمتار .. فلكى تقضى على هذه المسافة ، فإنك تقتلع الشجرة .. فإذا اقتلعت الشجرة لم تعد هناك مسافة ..

والذى يعادى إنسانا هو الذى ينظر إليه كشجرة يريد اقتلاعها .. وبذلك تنعدم المسافة .. لأن أى مسافة لابد لها من طرفين .. فإذا انعدم أحد الطرفين لم تعد هناك مسافة !.

والزمالة فى العمل هى علاقة أيضا ..
وهى علاقة حرة .. أو على الأصح هى حرة أكثر من أنها علاقة .. فأنت حر فى أن تكون لك صلة بزميلك . أو لا تكون .. ومن الممكن أن تعرفه ومن الممكن ألا تعرفه .

وحيث يوجد مكان كبير للعمل .. تجد نفسك زميلا لمئات من الناس لا تعرفهم .. فهناك حرية لا نهاية لها للابتعاد أو للاقتراب من هؤلاء الزملاء .. ولكن لا توجد هناك علاقة مباشرة .. لاهى صداقة ولا هى عداوة ولا هى

حب ولا هى كره .. وإنما هى علاقة الأصابع بالكف . علاقة الأصابع بالذراع .. علاقة فى المكان .

فنى الزمالة ، أنت حر فى أن تبتعد وفى أن تقترب .. ولكن ليست هناك علاقة بالمعنى الحقيقى .. قد تكون علاقة « عملية » أى فى العمل .. أو علاقة ميكانيكية كعلاقة المسمار فى العجلة اليمنى من السيارة ، بمسمار آخر بالعجلة اليسرى لنفس السيارة .. أو لأية سيارة أخرى ..

ولكن العلاقة النموذجية هى العلاقة الزوجية ..

ففيها الزمالة والصداقة والحب .. ومن الممكن أن تنعكس فيها هذه الأوضاع فتنتهى إلى الكراهية والعداوة .. والزمالة أيضا فى العمل أو فى المجتمع ..

والعلاقة الزوجية نموذجية .. لأنها أولا علاقة .. ولأنها ثانيا حرة .. والمشكلة الأساسية فى الزواج ليست هى العلاقة .. ولكن المشكلة هى الحرية .. أى حرية الحركة .. أى حرية تكبير وتصغير المسافة بين الطرفين..

ولأن هناك حبا ، فإن هذه المسافة ليست حرة كما يجب .. فالحب يربطك بالذى تحبه .. ويجعلك مطالبا بالتضحية ..

وأنت عندما تضحى فى الحب فأنت تضحى بحريتك فى عمل مسافات قريبة ، ولكن يسمح لك بعمل مسافات طويلة بينك وبين الناس .. فأنت كزوج يجب ألا تكون لك علاقة بفتاة أخرى ، وإذا كانت هذه العلاقة هى الصداقة البعيدة . أو الزمالة فى العمل .. أو تعرفها الزوجة ، فمعنى ذلك أن هذه العلاقة ، أو هذه المسافة ، ليست فقط بينك وبين هذه الفتاة وإنما هى بين زوجتك وبينها ..

أى إذا كانت لك علاقة بفتاة . وهذه العلاقة تعرفها الزوجة . وترضى

عنها . فهى علاقة بين امرأتين .. أى أنك لم تعد لك علاقة بها .

فكأن التضحية التى أنت مطالب بها ، من أجل زوجتك ، قد حرمت عليك أن تكون لك أية علاقة أخرى .

ومعنى ذلك أن العلاقة الزوجية .. أو المسافة الزوجية هى المسافة الفريدة الوحيدة .. التى يجب ألا تتكرر وإذا تكررت . فبعلم الزوجة .. ومن النادر أن تقبل أية زوجة أن يكون زوجها على علاقة . أو على مسافة مماثلة للعلاقة التى بينها وبينه .

ولكن لماذا يتجه الزوج ـ خصوصا هو ـ إلى تكوين علاقات أخرى .. إلى عمل مسافات أخرى ..

والسبب ـ فى نظرى ـ هو أن المسافة الواحدة التى لا تتغير هى المسئولة دائما عن كل متاعب الحياة الزوجية .. وعن متاعب الصداقة وعن متاعب الزمالة .. وعن متاعب المحبين ..

لابد أن تطول هذه المسافات وأن تقصر ..

لابد أن يبتعد أحد الطرفين عن الآخر ، ليس بالعنف ، ولكن برفق بالاتفاق .. فإن تغيير المسافات بين أصحاب العلاقات هو الوسيلة الوحيدة لإنقاذ هذه العلاقات من الضياع .. من الانهيار .

إن الإجازة معناها عمل مسافات جديدة ..

إن الخلافات بين الأصدقاء ، هى فى الواقع ليست إلا ضرورة لعمل مسافات بالقوة .. وإنها أجازة بالاكراه بين الأصدقاء وبين المحبين وبين الأزواج .

إن الأطفال الصغار ، عندما يتركون الخبز ويأكلون الطوب والحجارة من الأرض .. فهم فى الحقيقة يبحثون عن الأملاح الناقصة .. الأملاح التى يجهل

الأب والأم أنها ناقصة فى غذاء هؤلاء الأطفال . فأكل الطوب وضرب الطوب بين الأصدقاء والمحبين ضرورة لمواجهة النقص فى حيوية هذه العلاقات .. فالخلافات مثل أكل الطوب ـ هى ضرورة لابد منها للإبقاء على هذه العلاقات حتى لا تذبل ، حتى لا تموت .. هى فرصة لحرية الحركة .. هى فرصة لتغيير المسافة بين « المتعلقين » أى الذين بينهم علاقات ـ سواء التلميذ والمدرسة أو الموظف والمكتب . أو العامل والمصنع أو الصديق والصديق والزوج والزوجة ..

حتى العداوة يجب أن تتغير فيها المسافة .. فالمتخاصمون يستريحون إذا انتهت هذه العداوة بشكل ما ، بالصلح مثلا .. لأن الصلح معناه تقريب المسافة التى جمدت .. أو إنهاء هذه المسافة نهائيا ، باختفاء أحد الطرفين .

وأعود إلى الحياة الزوجية باعتبارها العلاقة التى تضم كل أنواع العلاقات بين الناس .

فالخوف فى الحياة الزوجية أساسه : المسافة ..

فالزوجة تخاف أن تتغير هذه المسافة .. أى أن يبعد الزوج عنها قليلا .. فإحساس الزوجة شديد جدا بالنسبة لأى تغيير يطرأ على الزوج .. تغيير فى مواعيد الحضور إلى البيت ، أو فى عادات النوم والأكل .. أو فى الاهتمام بها .

أى تغيير معناه أن الزوج قد حدث له شىء .. أى حدث له شىء جعل المسافة بينها وبين الزوج بدأت تتغير أى بدأت تختلف عما كانت عليه قبل ذلك . أى أن المسافة بدأت تتغير ، لسبب لا تعرفه الزوجة ، راح يبتعد عنها ..

وكل الخناقات بين الأزواج سببها الزوجة ـ خصوصا أن الزوجة ـ حريصة على أن تظل المسافة التى كانت بين الزوجين أيام « الخطوبة » والحب والهيام لا تتغير .. فإذا تغيرت هذه المسافة شعرت الزوجة بالحزن والخوف الشديد على حبها وعلى حياتها الزوجية .. على المسافة القصيرة التى بينها وبين زوجها .

وتنسى الزوجة ـ وهى فى خوفها الشديد ـ أن أيام الخطوبة أو الحب السابق على الزواج ، ليست إلا مرحلة وبعد ذلك يذهب الزوج إلى حاله . إلى عمله .. إلى اهتمامات أخرى غير الزواج . وينسى الزوج ـ وسط مشاغله الكثيرة ـ هذه المسافة الضيقة التى كانت بينه وبين زوجته .. وهذا النسيان ليس معناه أن فتاة أخرى ظهرت فى حياته .. ولكن معناه أنه عاد إلى حياته . عاد إلى المشاكل المعيشية التى هى عبارة عن مواسير الحياة وأسلاك النور للحياة الزوجية ..

وحرص الزوجة على أن يكون لها أولاد من زوجها .. معناه حرصها على « تصميم » هذه العلاقة .. على « مسمرة » هذه المسافة .. أى على تثبيتها .. أو على ربط الزوج من رقبته أو من رجله أو يديه .. أى وضع الكلبشات فى قدميه حتى لا يتحرك حتى لا تكون هناك مسافة أو مسافات بينه وبين الزوجة أو بين العالم الخارجى وبين البيت .

والتجاء بعض الزوجات إلى الإسراف .. معناه أن الزوجة حريصة على « قصقصة » جناح الزوج حتى لا يطير .. حتى لا يبعد عنها : حتى لا يكون على مسافة أطول منها ومن بيتها ومن أولادها .

فهذه المسافة التى بين الزوج والزوجة يجب أن تكون كالمسافة التى نسميها خط الهدنة .. أو المنطقة المنزوعة السلاح .. وهذه المسافة لا يصح أن يقترب منها أحد الطرفين .. وإلا كان فى ذلك خطورة عليه .. فربما قتله الطرف الآخر وله الحق .

يجب أن تكون هناك مسافة أبعد وأوسع وأكبر من هذه المسافة المنزوعة السلاح .. يجب أن يبتعد الزوجان والصديقان والزميلان .. إلى مسافات أبعد .. يجب أن تكون أغنى .

وهذا هو الفرق الوحيد بين الإنسان السجين والإنسان الحر : المسافة !.

فالسجين له مسافة واحدة ثابتة لا يستطيع أن يغيرها .. السجين هو الإنسان المحروم من تغيير المسافة .

أما الإنسان الحر . فهو القادر على أن يكون على مسافات مختلفة من الناس .. فهو يستطيع أن يكون على مسافة متر منك وأن يكون على مسافة ألف كيلو متر .. فهو حر .. فى الليل والنهار .. وهو قادر على صنع المسافات التى تعجبه .

والعذاب .. والجحيم هو أن يكون الناس على علاقات ثابتة جامدة بعضهم من بعض .. تماما كالمرضى فى غرفة واحدة .. كالمساجين فى زنزانة واحدة .. لا مسافة بينهم .. عيونهم مفتوحة بعضهم على بعض .. آذانهم مفتوحة على حناجرهم .. أنوفهم تشم عرقهم . إن عيونهم قد جعلتهم يرون أنفسهم على مسافة واحدة .. فها هو الجحيم .. هذه هى جهنم . أن تكون أنت وأى إنسان آخر ، مهما كانت درجة تعلقك به على مسافة واحدة لا تتغير .. ومسافة واحدة تخاف أن تتغير .. وإنما تبقى حبيسا فى عينيه ، سجينا فى أذنيه لصيقا بأنفه . هذا هو السجين الرهيب الذى دفع كل المترابطين والمتعلقين من الأصدقاء والزملاء والأزواج إلى الهرب .

ولكنهم يعرفون السبب .. والسبب هو المسافة التى يجب أن تتغير من حين إلى حين .

العلاقات بين التلميذ والمدرس .. بين المريض والطبيب . لماذا هى كريهة هكذا .

لأنها علاقة من لون واحد .. من مسافة واحدة .. علاقة الخوف بين التلميذ والمدرس .. مسافة فيها خوف مسافة جامدة لا تتغير .

المسافة بين الطبيب والمريض .. مسافة واحدة . المريض يتلوى ويتلوى

والطبيب يغرس فيه الإبرة ويبحث عن غيره .. إنها علاقة آلية .. إن هناك مسافة بعيدة بين المريض وبين الحقنة التى هى فى يد الطبيب .. ولكن عندما تصبح العلاقة إنسانية شخصية أى يكون المسافة قريبة فإن الأمر يختلف .. وهذا هو الفرق الوحيد بين المستشفى العام والمستشفى الخاص .. إنها المسافة القصيرة بين المريض وبين طبيب المستشفى الخاص والمسافة البعيدة بين طبيب المستشفى العام وبين المريض ..

أعود مرة أخرى إلى الحياة الزوجية باعتبارها مجموعة من العلاقات .

فأنت عندما تحب ، تكون هناك مسافة ضئيلة بينك وبين الفتاة التى تحبها .. أى لا تكون هناك مسافة .. لأن الفتاة التى تحبها تحرص على أن تكون قريبا منها معظم الوقت .. أى أنها تحرص على أن يكون المسافة بينكما فى المكان والزمان ضئيلة إلى أبعد مدى .. فهى تحاسبك بالثانية والميلليمتر. ولاشك أن الزواج الفرصة الوحيدة لكى تهرب من «انعدام المسافة» بينك وبين الفتاة التى تحبها.. فأنت تتزوج لكى تكون هناك مسافة بينك وبينها أو لتكون هناك مسافات . فأنت عندما تتزوج لن تكون على اتصال طول الوقت بالفتاة التى تحبها .. فقد انتهت هذه اللهفة على المكان والزمان .. فقد أصبح لكما مكان وأصبح لكما زمان محدد .. أى أصبحت لكما مسافات معروفة .. أى أن الزواج قد انقذكما من انعدام المسافة أو ضيق المسافة . التضييق الشديد الذى يفرضه الحب .. فأنتما قد تزوجتما لتكون بينكما مسافة .. لتكون عندكما حرية أكثر .. لكى تتحرر أنت منها قليلا وتتحرر هى منك قليلا :

والذى يحدث بعد ذلك هو أن الزوجة تطالب بالعودة إلى لهفة الحب السابق على الزواج أو إلى حالة انعدام المسافات .. إلى تحديد إقامة الزوج .. أو التحفظ على حريته .

والحل الوحيد هو أن يعود الاثنان بالذوق أو بالقوة .. إلى خلق مسافات

جديدة .. إلى أن تكون المسافة أكثر مرونة .. فيجب ألا تكون المسافة بين الزوجين جامدة كأن كل واحد محاط بطبقة من الأسمنت المسلح ، وإنما يجب أن تكون مرنة .. كأنها حبال من المطاط تقترب وتبتعد ولاتنقطع .. مثل أيدينا .. ومثل أصابع أيدينا ... تقترب وتبتعد عنا ولكنها لا تنفصل ..

فلا حياة لهذه «المسافة» التى اسمها الزمالة أو الصداقة أو الحب أو الزواج إلا بخلق مسافات جديدة باستمرار ..

فلكى تعيش أحسن وأعمق يجب ألا تكون على مسافة واحدة من كل شىء ومن كل الناس ..

فأنت لا تستطيع أن تكون على مسافة واحدة من صديقك وعدوك .. من زميلك ومن زوجتك .. فلابد من تغيير المسافات ... وأساس التغيير هو إحساسك ومصلحتك .. والإنسان الذى على مسافة واحدة من الناس .. هو إنسان لا يبالى بشىء .. ولا يبالى بأحد .. فالكرسى الذى أمامه والجالس على الكرسى واحد .. كلاهما لا قيمة له .. وأنت أيضا لا تستطيع أن تبالى بكل الناس وبكل الأشياء .. فأنت لا تستطيع أن تحب كل إنسان وأن تحب كل شىء وبنفس الدرجة .. تحب الكرسى وتحب الجالس عليه .. أيا كان هذا الجالس عليه ... ولا تستطيع أن تكره كل الناس وأن تكره كل الأشياء ..

فأنت باستمرار على مسافات متغيرة من كل شىء ومن كل إنسان حولك . وحياتنا هى تغيير مستمر .. تغيير مستمر فى المسافة التى حولنا .. فى المسافة التى بيننا .. وبين الناس ..

والسلام باليد والعناق والقبلات والصفعات .. كلها الصور من صور تقريب المسافة بين الناس بالحب أو بالكراهية .. وأنت لابد أن تحب ولابد أن تكره ..

أى لابد أن تكون على مسافات من الناس .. على مسافات بينك وبين مكتبك وبين مصنعك . وبين أهلك ... وأصدقائك وزوجتك وأولادك .. يجب أن تكون هناك فترات للتنويع والتجديد وإلا حدث ما يحدث للسفينة التى تمشى فى البحار الباردة فتتجمد حولها المياه .. أى تتجمد المسافة بينها وبين الشواطئ .. وتكون مسافة واحدة بينها وبين الجليد .. فتعجز عن الحركة .. ولكن عندما يذوب الجليد .. تكون هناك مسافة تكون هناك قدرة على الحركة .. تكون هناك الحرية التى تؤدى إلى تنويع وتجديد العلاقات بينك وبين الناس الذين حولك ..

ولذلك يجب أن تجعل المسافة التى بينك وبين أصدقائك وزملائك .. وبينك وبين زوجتك .. مسافة مرنة أى مسافة متجددة .. أى لا تجعلها مسافة واحدة .. وإنما مسافات .. وإلا تجمدت علاقاتنا .. وأصبحت كأصبع القدم . أو أصابع يد القرد عاجزة عن أن تمسك شيئا .. فإن أساس الابتكار والتجديد هو هذه المسافات بين المحبين والأصدقاء والزملاء .. وخصوصا بين الأزواج !

الفهـــرس

بداية العبث

المنتمى واللامنتمى

فلســفة مــا .. !

رقم الإيداع : ٨٨/٢٥٠٩
الترقيم الدولى : ٩ ـ ٢٠٠ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ـ٨١٧٢١٣ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

